مقالات

16.2.2022

محمد مستجاب

نبش الغراب في واحة العربي

الجزء الثاني – الكائنات

مختارات الكرمة



محمد مستجاب

نبش الغراب
في واحة العربي

الجزء الثاني - الكائنات

الكرمة

نبش الغراب
في واحة العربي
الجزء الثاني - الكائنات

facebook.com/alkarmabooks

twitter.com/alkarmabooks

instagram.com/alkarmabooks

مستجاب، محمد.

نبش الغراب في واحة العربي - الجزء الثاني: الكائنات / محمد مستجاب - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢١.

٢٧٢ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: 9789776743496

١- المقالات العربية.

أ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٣٩٣ / ٢٠٢١

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

المحتويات

الحمار ٧
الخروف ١١
الحصان ١٥
الأسد ٢٠
الذئب ٢٥
الكلب ٢٩
البغل ٣٣
الثور وثورات أخرى ٣٨
القط ٤٢
النمس ٤٧
البقرة ٥١
القرد ٥٥
الجمل ٥٩
الكلب [مرة ثانية] ٦٣
الغزال ٦٨
الفيل ٧٣
الماعز ٧٧
الفأر ٨١
القط [مرة أخرى] ٨٥
الأرنب ٩٠
القنفذ ٩٤
الخفاش ٩٩
الكلب [مرة ثالثة] ١٠٤
الضفدع ١٠٨
الثعبان ١١٣
السلحفاة ١١٧
التمساح ١٢١
الغراب ١٢٦
الديك ١٣٠
الحمام ١٣٤

البط ١٣٨
الطاووس........................ ١٤٣
الهدهد........................ ١٤٨
الببغاء ١٥٢
طريق البجع ١٥٧
أبو قردان........................ ١٦٢
البومة........................ ١٦٧
الحوت ١٧٢
النمل ١٧٦
العنكبوت ١٨٠
العقرب........................ ١٨٥
الدودة........................ ١٨٩
الغول........................ ١٩٤
العفر والعفريت ١٩٩
الشيطان ٢٠٤
النخلة ٢٠٩
القمح ٢١٣
الورد........................ ٢١٨
التفاح........................ ٢٢٢
شجر السَّنط ٢٢٦
القصب ٢٣١
الرُّمَّان ٢٣٦
التوتة........................ ٢٤١
الزهر........................ ٢٤٦
البصل........................ ٢٥١
السمسم........................ ٢٥٦
التمر.. من آل تيمور..
حتى تيمورلنك ٢٦٢
الكوسة ٢٦٧

الحمار

صاحب الحق الضائع

الحمار أقدم أصدقاء الإنسان، ولا ينافسه في ذلك سوى الكلب، وهو ـ حينما يهتم به صاحبه ويزهو ـ تنتابه الكبرياء الواضحة، فيتراجع رأسه إلى الخلف وتبدو في عيونه مسحة الحكمة التي كثيرًا ما نراها في وجوه العسكرية الفاشلة، وإن كان الحمار أكثر بروزًا في التاريخ، وتمثل تصرفات الحمار معظم التراث المرح في مختلف أركان العالم، وأكثر الحمير التاريخية شهرة: حمار جحا، وأكثرها غموضًا حمار الحاكم بأمر الله الفاطمي، الذي خرج بصاحبه ـ الحاكم ـ إلى حلوان وعاد بدونه إلى القاهرة، فلما طال قلق الرعية بحثوا عن الحاكم فوجدوا ملابسه مدماة وممزقة عند عين حلوان، ولا يزال للحاكم أتباع ينتظرون عودته إلى اليوم، وأشهر حمار أدبي في العالم هو الخاص بالإسباني خوان رامون فيمينيث (نوبل ١٩٥٦) في مؤلفه «حماري وأنا»، وأشهر حمار أدبي عربي هو الخاص بتوفيق الحكيم، ثم هناك الحمار الكاريكاتيري الشهير الذي صاغه الرسام

عبد المنعم رخا (حمار أفندي)، والحمار الأخطر ـ صاحب الحق الضائع ـ هو الذي حمل السيدة العذراء وابنها السيد المسيح وهو طفل، ومعهما يوسف النجار، كي يخترقوا الحواجز والفلوات من الناصرة الفلسطينية إلى داخل صعيد مصر هربًا من اليهود، حيث تركوا آثارًا ذات شأن في المطرية (شجرة مريم) وأسيوط (الدير المحرق ـ جبل العذراء).

وظل الحمار يغطي الجهد الإنساني لصنع الحضارة في الجر والنقل والركوب والحرث والري والسياسة والثقافة، وعندما أمتلك ثروة ـ أي في القريب العاجل ـ فسوف أصدر صحيفة يومية اسمها: «الحمار»، ويكون لها ملحق أسبوعي في الفن: «الحمار المخطط»، وملحق شهري يختص بشؤون الفكر فقط: «الجحش»، ذلك لأن الحمار صبور هادئ رزين يرى من الأمور أكثر مما تراه المباحث والمخابرات والأقمار الصناعية والمصادر المطلعة، ويختلف الحمار عن كثير من السياسيين في قدرته التلقائية على الترحيب الصاخب عندما يرى أنثى من نوعه، ويطلق عليها اللغويون «الأتان» وقد وردت كثيرًا في أشعار أدباء الهجاء وبخاصة جرير والفرزدق، وصوت الحمار ـ النهيق ـ هو أنكر أصوات المخلوقات كافة (الخنزير يطلق صوتًا كريهًا) وقد خرج صوت الحمار على القياس الأوبرالي فلا تجد له في علوم الصوتيات (لغة أو موسيقى) مثيلًا، صوت عريض لا يدانيه في ذلك إلا ذكاء الحمار نفسه، فهو ذكاء عريض مستقر لا يخضع لنوبات التجديد أو الابتكار أو الإبداع، يجعل تصرفاته محدودة مرتبطة ارتباطًا يقينيًا بوجود صاحبه كارتباط التنظيمات الشعبية

بزعمائها، وموظفي الحكومة بمكاتبهم حينما يعجزون عن الخروج عما ألفوه واعتادوه، وليس في وصف أحدهم بأنه حمار أي سب أو شتيمة أو مجاز.

كلمات لها معنى

عليك أن تقول الحق مرة أخرى، حتى لا تبدو الأولى أمرًا عارضًا.

❊

إن الحياة تنبثق كالنافورة الجميلة، التي لا تلبث أن تغرق الطرق.

❊

الوقت كالسيف، وماذا بشأن المدافع؟

❊

المتنبي هو الشاعر الوحيد الذي راح ضحية نصف بيت من شعره، «ومن العار أن تعيش جبانًا»، عندما ذكَّره به قاطع طريق وصرعه بسببه، ومن يومها والشعراء يرفضون أن يتذكروا شيئًا سبق أن قالوه.

❊

كانت الغيوم متهدلة، كجورب امرأة فقيرة.

❊

س: هل أنت صاحب تجارب فاشلة؟
جـ: صاحبها فقط؟ وزوجها أيضًا.

❊

زوجتي لا تصدق حتى الآن أن الجهات الأصلية أربع فقط، إذ تنظر إليَّ في شك، فربما أكون قد أخفيت عنها واحدة.

*

المعرفة: قطرة عين العقل، ومعجون أسنانه أيضًا.

*

دخل على زوجته فوجدها متألقة فكاد يعود خارجًا متوهمًا أن البيت ليس بيته. وقد عاتبته زوجته على ذلك لأنه جاء في غير موعده.

*

عمى القلب: أن تتشبث بالزهور دون الأغصان أثناء تسلقك الشجرة.

الخروف

ذو السر الباتع

الخروف حيوان عالمي لا تكاد تخلو منه بقعة، يتميز بقرونه الملفوفة المشرعة فوق هامته، وكأنه مستعد دائمًا لمواجهة تمرد، يسير وسط القطيع من الشياه والمعز في اعتزاز وكبرياء وتسلط، وكثيرًا ما ينتهي به الأمر مخترقًا بالأسياخ فوق نار جماعة تقضي وقتًا سعيدًا، وقبل أن يكتشف أهل المدن تقديم زوج من الحمام أو الدجاج للعريس ليلة الفرح، كان الخروف هو المختار الدائم لهذا الموضوع خلال التاريخ كله، وليس مصادفة أن الطريق المؤدي لمعبد الكرنك حيث تماثيل شوامخ الفراعنة، تربض على جانبيه كباش بادية السطوة والرصانة والعزة، إذ إن الكبش يتمتع بمنظر فريد من الجوانب أو المواجهة، كما أن لديه قدرة خاصة على استكشاف أي حركة تمس سطوته من خروف شاب، هو في العادة ذو تجربة محدودة، وشمهورش ـ أحد ملوك الجن ـ يوصي دائمًا ـ أو يأمر دائمًا ـ مريديه في حلقات الزار الصاخب بذبح خروف رحماني تحت قدميه،

والخروف الرحماني - نسبة إلى الرحمانية بدلتا مصر - يتميز بشراسة وضخامة، وذو دسم أكثر من الخراف الأوسيمي أو العبيدي المصرية أو حتى المارينو الفرنسية والإسبانية، وكثيرًا ما تجد جلد الخروف مفروشًا على الأرائك الشرقية وفي مداخل حجرات الضيوف إعلانًا عن تمتع صاحب البيت بسر الخروف الباتع، ويوازي ذلك ما تجده في مداخل قصور اللوردات والبارونات من جلود السباع إعلانًا عن شجاعتهم في رحلات الصيد.

ويُعد لحم الخروف أشهى وأدسم لحم حلال على الإطلاق، ومن المفرح أن التهامه في عيد الأضحى جاء مناسبًا لرغباتنا القديمة منذ أن افتدى به سيدنا إبراهيم ابنه النبي إسماعيل، وقد حاولت أوطان أخرى أن يكون لها حيوانها الأثير كالخنزير أو البقر، لكن الخروف ظل الأشهى والأنسب والأحلى دائمًا.

ولعل افتقاد الخروف للفروسية والنبل والوعي - مع ما يتمتع به من منظر ذي سطوة وتحدٍّ وشراسة - هو الذي جعل الناس يلقبون خصمهم بأنه خروف، وخصمهم يسمع لكنه لا يدرك المقصود كعادته.

كلمات لها معنى

البوُّ: جلد البقرة أو الناقة يُحشى بالقش ليصبح بديلًا لصغيرهما (الذي تم التصرف فيه) توسلًا لاستمرار استدرار اللبن، وليس في الأمر انتقاد للنظم السياسية القائمة.

*

إنني أدهش لهذا التراحم الذي تسبغه النساء على الكلاب والقطط، مما لا يترك فرصة للتراحم مع أي كائن آخر.

*

لقد نجح العصر الحديث في إلغاء الخيزرانة من يد المدرس والعصا من يد الزوج، فظهرت الهراوة في الشارع.

*

الأنوثة مثل الأدب والفن والصناعات الدقيقة: موهبة، أما الرجولة فهي مثل الأدب والفن والصناعات الدقيقة: عبقرية!

*

داهمته زوجته في المنام فسقط من فوق السرير، جاءت زوجته ورفعته إلى السرير فمات.

*

كانت راقية هادئة مهذبة وتخلصت منه دون سكين أو حبل أو سم:
فقط كانت تنمق الزهور بكثافة حول فراشه كل ليلة
وتغلق النوافذ وتبتسم.

*

أرسل صديقًا ليصلح بينه وبين زوجته، ثم أرسل نصف عائلته لاغتيال صديقه ـ حادث.

*

ناقد أدبي دؤوب يدخل إلى النص الأدبي صباحًا، وتعيده الشرطة آخر النهار إلى أهله من بين أنقاض نص أدبي آخر.

*

كانت حياته موفقة: أنجب خمسة أبناء وقد عاش منهم سبعة.

❊

أكاد أعتقد أن التحذير الدائم من خطورة التدخين
تموله شركات السجاير.

❊

المرأة الصادقة هي التي ترتكز بمرفقها فوق مكتبه، وتظل ترتكز بعد أن تتزوجه.

❊

إنها تشكو من أن حياتها أصبحت صحراء حارة، وهي الآن تبحث عن رجل ثقيل الظل.

❊

لا تسب هذا العصر، ويكفيه أن أتاح لك فرصة الفخر بجميع الهزائم التي حاقت بك.

❊

عندما قُتل زوجها دون أن يرى أول أولاده منها، أصابتها موجة إخلاص جعلتها تلد دون توقف بعد رحيل زوجها بسنوات طويلة.

الحصان

رفيق الحضارة والأدب والإستراتيجية والجمباز

حلم اليقظة التاريخي، وأمنية الإنسان، أن يمتطي حصانًا، ولو كان يمتلك أفخر السيارات أو الطائرات، وعندما أنقذ الشاطر حسن حبيبته ست الحسن والجمال في سرعة وفروسية، فقد تم ذلك على ظهر جواد، ومن المؤكد أن الأمر لم يكن ليكتب له النجاح التام لو أن الشاطر حسن استعان بجمل أو حمار. وسوف يعوزك خيال قوي لو تصورت عنترة العبسي (فارس العرب) يغازل عبلة دون أن يمتلك حصانًا، فحتى كلمة فارس جاءت من فوق ظهر الفرس، فقد كان الحصان طوال التاريخ أثيرًا لدى العرب يفجر فيهم الحب والشعر والغزو بصفته حيوانهم الأسطوري والخرافي والإستراتيجي، قبل أن تدهمه الدبابات والسيارات المصفحة والطائرات والصواريخ، وهو الحيوان العربي الوحيد الذي نافس أصحابه في نسبه وأصله وفصله، فلكل حصان ثمين ملف يؤرخ له منذ نعومة حوافره وما حاق

به من نزوات وتغيرات وأحداث. وأشهر الخيول ـ غير جواد عنترة بن شداد ـ حصان طروادة الخشبي الضخم الذي تسلل في بطنه جيش الأعداء ليداهموا المدينة، وحصان الشطرنج الواقف بجوار الطابية متحفزًا، وحصان المملوك الشارد الهارب بصاحبه من فوق أسوار القلعة هربًا من المذبحة التي دبرها محمد علي الكبير فتكًا بالمماليك، وقد نجا المملوك دون الحصان، ثم حصان الجمباز الخشبي الذي تتقافز على ظهره فاتنات المعاهد الرياضية. وأكثر الخيول مرحًا وسخرية حصان دون كيشوت الذي قاتل به الأوهام وطواحين الهواء في رواية «سرفانتس» الإسباني، أما مرافقه «سانشو بانزا» فقد كان يمتطي جحشًا، ويقول العامة عمن كُسر عموده الفقري: «انكسر حصان ظهره»، وفي المأثور من عموم معاني ندابات الجنائز: «رجع الحصان ودماغه محنية»، أي أن الحصان عاد بدون صاحبه وقد شمله الحزن، مع أن صاحبه لا يكون قد لمس حصانًا في حياته.

وأكثر الجياد العصرية شهرة: الحصان الأمريكي الذي يمتطيه الكاوبوي في آلاف الأفلام السينمائية، وحصان حلبة السباق الذي تقام له احتفالات المباريات الضخمة التي يعشقها مدمنو المراهنات، وبقايا خيول «البرجاس» في صعيد مصر وصحراواتها. و«البرجاس» نوع من رياضة التحطيب على ظهور الجياد تسبقها مطاردات صيد يستبدل فيها شاهد خشبي بالغزال يطعن بالرماح في سرعة، وليس للحصان أي أمجاد في احتفالات نقل العرائس إلىَ بيوت العرسان، فقد كان ذلك وقفًا على الجمال ثم السيارات،

فلم نسمع عن عروس امتطت حصانًا ليلة دخلتها إلا في فيلم «رابحة»، لكننا رأينا خيولًا تجر عربات نقل رفات موتى العسكريين والعظماء.

والجواد يستجيب لإيقاع التصفيق والطبول والموسيقى، ولعل تراقصه اللطيف يعد امتيازًا خاصًّا لا تجيده إلا الخيول العربية الأصيلة، وهو أيضًا يستجيب لحركة مروضه أو صاحبه، ويثيره التماع البرق وهزيم الرعد، ولا ينام أرضًا بل يريح واحدة من قوائمه الأربع مستندًا على ثلاث منها ثم يستبدل أخرى بها كلما طالت رغبته في الراحة. وقد احتاز الحصان الكريم لقب الجواد، ويمتاز بالسرعة وقوة الاحتمال وخفة الحركة، ومن ألوانه الكميت والأدهم والأشقر والأحمر والعسلي والأزرق والأسود والأشهب. ومن محاسنه الحجل (بياض فوق الحوافر) والغرة (بياض في الجبهة) ثم هناك نوع نادر اسمه «الصادق» حيث يغزو شريط أبيض المسافة من أسفل خطمه مرورًا بأسفل الرقبة حتى بوادر صدره.

والحصان ـ بعد ذلك ـ هو المقياس العصري للقدرة الميكانيكية، ابتداء من نصف حصان لموتورات رفع المياه، وعشرين حصانًا لسيارتك، وأربعين لآلات الحرث والجر، بغض النظر عن مآل كل ما ورد في هذا عن الخيول والتي ينتهي مصيرها في أغلب الأحوال إلى لحوم تغذية الحيوانات المفترسة بالحدائق، أو إلى جر عربات الركوب وكسح النفايات، وهي نهاية يصعب على الإنسان تصور أن تكون لحلم اليقظة التاريخي.

بين كل هذه الجماعات الضخمة من ضحايا الطائرات والسفن، ستجد واحدًا ـ في الأقل ـ خبيرًا بالتنجيم.

*

عليك أن تؤجل هجومك علينا حتى تنتهي من تدخين آخر سجائرنا.

*

الإسورة في المعصم، والخلخال في القدم، ولا يزال بعض النساء يتحلين بحلقة مخزومة في الأنف: صياغة حديثة للقيود التاريخية.

*

مثل حل الواجبات المدرسية: العلاقات الزوجية.

*

يقشعر الجسد بردًا وحبًّا، يقشعر العقل إفلاسًا ومكرًا.

*

لا تزال مسألة التفاحة التي قدمتها أمنا حواء لأبينا آدم في الجنة، والتي أودت بهما إلى أسفل سافلين، أمرًا غامضًا، مع أن التفاحة لم تكن أمريكية.

*

أدفع عمري ثمنًا لأول خطاب غرامي كتبته في حياتي، علِّي أمسك بأولى بذور المداهنة التي جعلتني شخصًا ناجحًا.

*

لو أني أملك أمر جائزة كتابة المقالات العصرية لصنعتها على شكل جراب الحاوي.

*

كانت أناملها تعزف على أوتار القلب، أقول كانت: لأني تزوجتها.

الأسد

من المملكة القديمة إلى السجن الحديث

في كتب المدارس، الأسد ملك الغابة، وفي علم الحياة، ملك الأحياء في الغابة وخارجها، وفي التاريخ رمز السطوة والقوة والجبروت على هامات القياصرة والملوك والسلاطين وأمراء المقاطعات، وآخر أسد تاريخي كان «هيلاسلاسي»، أسد يهوذا وملك الحبشة، وشاهنشاه إيران اتخذ من الطاووس رمزًا دون الأسد، ثم هناك الأسد البريطاني الذي عاشت إمبراطوريته تحت ظله، حيث لا تغيب عن عرينه الشمس، بعد ذلك انهمر الأسد في الزمن الحاضر من غابته وتحول إلى ماركات سيارات وعلامات لأغلفة الأدوية المقوية، وقافزًا في السيرك ولاويًا عنقه في زئير مضحك على مقدمات أفلام شركة «مترو»، وترى أثر الأسد في الوشم على صدور وأذرع مواطنينا تحديدًا للهوية والاسم والبلد، قبل ظهور عصر البطاقات الشخصية وأوراق الهوية وجوازات السفر.

وقد احتفى عالم الحيوان العربي «الدميري» بالأسد، فأفرد له صفحات تضم كثيرًا من أسمائه ابتداء من السبع وقسورة وورد، وانتهاء بالغضنفر ودرغام ـ أو ضرغام ـ ولا يزال حكام جمهوريات أفريقيا الوسطى يزخرفون اسمه على عروشهم، ذلك أن هذا السبع ظل موضع تفاخر البشر ـ والعرب منهم ـ بصفاته القوية والجبارة التي تشغى بها قصائد الفخر والحب أيضًا. ويمكنك أن تخاطب أعداءك وأصدقاءك بلقب الأسد في حرية تامة، ودون أن تقع تحت طائلة قانون السب العلني إذا ما استخدمت لفظ «اللبؤة» ـ أنثى الأسد ـ وصفًا لزوجاتهم، وأيام كان الأسد أسدًا ذا ضراوة وزئير وعرين ولبؤة وأشبال، كان يأنف أكل الرمم وبقايا صيد الآخرين، ولم يكن يهاجم الآدميين إلا إذا جاع جوعًا شديدًا، أو إذا استشعر منهم خطرًا، في حين أن اللبؤة تفعل ذلك دون تقصير ودون اهتمام بفكرة القوة والعزة والكبرياء، لذلك نجد اللبؤة هي التي تطعم السبع الشائخ العاجز أو الجريح المكلوم.

وأشهر حكايات الأسد هي التي أنشأ منها «برنارد شو» مسرحيته عن ذلك الأسد الذي رفض رغم جوعه الشديد أن يأكل عدو القيصر حينما ألقوه إليه، لأن عدو القيصر كان صيادًا عالج ذات مرة ـ منذ زمن ـ شوكة دخلت في قدم هذا الأسد بالذات، وليس هناك حكاية معاصرة توازيها.

ومع أن الأسد ارتبط وجوده بالغابات، إلا إن مجده الأدبي فاق هذه المساحات، ومن المؤكد أنه كان يعيش في بعض وديان البلاد

العربية، إذ ورد ذكره كثيرًا في فنون الآداب القديمة، من مجاز وتشبيه واستعارة. ولعل عنوان كتاب ابن الأثير «أُسْد الغابة في معرفة الصحابة»، ثم قبيلة بني أسد التي عاشت في جنوب شبه الجزيرة العربية ـ والتي منها الشهير امرؤ القيس ـ، خير شاهدين على ذلك.

كما أن اسمه لا يزال يعلو أسماء وألقاب بعض القبائل والأسر في المجتمعات المعاصرة، في الأردن الدكتور ناصر الدين الأسد الذي كتب أجمل وأرقى نقد في الرد على كتاب «الشعر الجاهلي» لطه حسين، وهو كتابه «مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية»، ويبز في موضوعيته ورصانته ودقته كتابي الخضر حسين ومصطفى صادق الرافعي.

وقد أحكم الإنسان سطوته على حركة الأسد، وحد من حريته داخل الحدائق المسورة في غابات تنزانيا وكينيا، أو مسجونًا في حدائق الحيوان بالمدن الكبرى، أو أسيرًا في برامج التلفزيون التي نرى فيها ملك الغابة وهو يغمض عينيه ويفتحهما اتقاء الذباب والبعوض وتعليقات المذيع، ودون أن يبكي.

كلمات لها معنى

هذا الصمت البالغ الذي يحط على الذين تزوجوا ممن يحبون، بليغ أيضًا.

*

إنني أعرف ضعف ما تعرف، وأملك ربع ما تملك، إنني أثرى منك.

*

اقتضى الأمر تسعة شهور لتتحول علامة التعجب الهيفاء الأنيقة إلى علامة استفهام ذات كرش غليظ.

*

الفقر ليس عارًا، لكنه أبدًا ليس فخرًا.

*

لا بد أن يكون ذا عمر طويل ومديد هذا الذي لا يكف عن الفرح بالأشياء الجديدة، حتى لو كانت كفنًا.

*

كان سلسًا مرنًا يمكنه أن يتسلق جهلك ليحط داخل جيبك، هذا تفسير لمصطلح خاوي الوفاض.

*

بريق الذهب لا يدانيه بريق، ولا يعلو عليه سوى بريق عيون الأنثى.

*

الدبلوماسية هي قدرتك على إخفاء مخالبك في دفء ابتسامة واسعة.

*

يدهشنا مرتين: أن يكون شاعرًا، وأن يظل صيدليًّا.

*

س: هل توافق على زواج ابنتك من محبوبها الفقير؟
جـ: اسألوا أمها، فقد وقعت في نفس المأزق معي، ولا تزال تندب حظها، أنا لا أذكر.

❊

هذه الخضرة التي تنتشر على الموائد، آخر ذكرى من أيام الحرية في السهول.

الذئب

عاشق الدم والقمر والخراف والقصائد

مع أن الذئب ينتمي إلى فصيلة الكلاب، في علوم الأحياء، فإن ذلك أهون وأكثر قبولًا من انتماء الأسد لعائلة القط، ومن بين آكلات اللحم يظل الذئب مشهودًا له بالوفاء لروح الجماعة، وأكثرها تنفيذًا لخطة مداهمة جماعية، وإصرارًا على جني ثمار جهده منها دون التحلي بالفداء والتغني بالنصر، مع إقامة الأقواس المناسبة، وأحيانًا المناقضة للنصر ذاته. ويشارك الشعراء في الهيام بالقمر، وعواؤه المعروف يبدأ من المقام الأدنى بطيئًا ثم يتصاعد ـ كلما تفاعل مع القمر والحب ـ إلى المقامات الأخرى، وهو بطل لواقعة ناريخية لم يكن طرفًا فيها، لكنها صنعت له شهرة مدوية، وهي ما أثاره أبناء يعقوب لأبيهم من أن يوسف عليه السلام فتك به ذئب في حين أنه كان قد بدأ أولى سلالم المجد في قاع جب. ويتمرغ الذئب في الحكايات الشعبية الشرقية كقاطع طريق للأطفال الذاهبين إلى بيوت جداتهم، لكن أثره في الأدب المكتوب قليل، أشهرها قصيدة

للبحتري وبيت شعر للمعري «عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى، وصوت إنسان فكدت أطير»، أما في الغرب فإنه يمتلك شريحة واسعة ورائعة من النثر والشعر، أعظمها على الإطلاق رواية للألماني «هيرمان هيسه»: «ذئب البراري» ـ أو «ذئب البوادي» ـ كما وضع الغرب أيضًا، كتابًا عن زعيم تركيا «كمال أتاتورك» تحت عنوان: «الذئب الرمادي» أو «الأغبر». وقام الممثل العتيد «مارلون براندو» بتمثيل فيلم شهير: «ذئاب الميناء»، قمنا في مصر بتفريغه في عدة أفلام مشابهة، مع أن كل ما ورد سابقًا يستخدم الذئب مجازًا للتعبير عن السعار والشراسة وعنف المداهمة. والذئبة لا تقيم وزنًا لزوجها العاجز، ولا تهتم بنقل الصيد إلى الوكر إلا لجرائها، بل وكثيرًا ما تهجر هذا الوكر تحللًا من الوقوع في براثن الأخلاق الفاضلة، ولعل ذلك يُعدُّ امتدادًا للروح النازية التي تجعل قطيع الذئاب يتخلص ـ أولًا بأول ـ من مرضاه ومجروحيه وعاجزيه، ليظل القطيع شرسًا فتيًّا، وعيون الذئب حمراء غامقة كأنها قد انتهت توًّا من نزيف دموي، لكن ذئاب الحقول انقطعت منها روح القطيع ولم تعد سوى أفراد يخلون من حركات اللف والدوران والمناورة، وتقلصت ذؤوبتها التاريخية إلى مجرد اقتناص ضفدع أو دجاجة أو فتح بطن بطيخة أو عصر عود قصب (أمر منتشر في حقول صعيد مصر). ويكاد الذئب العصري ينهي حياته دون اصطياد حمل أو ماعز أو خروف واحد، ولذا فقد تقلصت أعداده إلى درجة الندرة في كثير من المناطق التي تسيطر عليها نقابات العمال والصحف والمجالس النيابية والمدارس والأحزاب، ويعاني من الوحدة حينما يطلع القمر فيصبح كالشعراء

الصعاليك لا يلبث أن يداهم الخيام والقصائد والأكواخ المنقطعة، ثم يعود فيعوي ويزوم مفعمًا بالشجن فيتشمم الندى والحصى والأعشاب وبقع الدم، ويطارد السحالي وقصائد النثر والجرذان وأبيات الحشرات. وهو يبز الإنسان شوقًا واندفاعًا إذا ما تسللت إليه روائح الضأن غير أنه لا يعود إلى شاة سبق له أن أكل منها على غير ما هو معروف عن رفاقه من المغرمين بالضأن، لكنه يظل أمينًا لتوحشه وطبيعة الافتراس فيه. ويحكي الدميري عن أعرابية حملته جروًا صغيرًا لم يجاوز مرحلة اللبن، ولما عادت إلى خيمتها وجدته قد فتك بفراريجها كلها، فالذئب لا يخضع للألفة والاستئناس والتدريب والوفاء كالأسد والنمر، لكنهم يعشقون فيه قدرته على التخويف التي تجعلهم يطلقون اسمه على أشخاصهم، بدر الديب وعلاء الديب ومحمود دياب وكمال أبو ديب وكذلك الديبة، الذي كان واحدًا من قدامى الرياضيين المصريين.

كلمات لها معنى

حتى الصداقة تقبل التهجين،
فكثيرًا ما أنتجت فسائل التفاح جميزًا.

*

قالوا إن أباها يخفي كنزًا، فتزوجتها لترتكن كارثتي على ثلاث قوائم: زوجتي وأبيها والكنز، ولم يسقط أحدنا حتى الآن.

*

حريتي الكاملة هي تلك اللحظات المبكرة والثمينة التي أغني وأصفر وألحن فيها: تحت الدش.

*

المخ أوار ذكي متأجج، فإذا برد أصبح قابلًا للطهو.

*

يرحمه الله، فقد كان في صحة جيدة، لأنه استفاد كثيرًا من الأسبوع الذي قضاه معنا.

*

ـ أين أجد أسطوانات وأشرطة موسيقى «البوب»؟

ـ هناك، فنحن نعزلها عن ركن الموسيقى.

*

إذا كانت العصا من العصيان، الهراوة من الهراء، فمن أين جاءت السكين؟

الكلب

رمز الوفاء في البراري والشوارع والبيوت: صديقًا وقائدًا وحارسًا مع احتمال تسليمك للشرطة!

أعترف بأني شغوف بالكلب شغفًا لا يقل عما تكنه له العوانس والصيادون والصابرات والباحثات عن العزاء، وقد كتبت عنه مرتين، ودبجت عنه رواية وقصصًا قصيرة حتى إنه وقع عليَّ لوم كثير من الأصدقاء وأصحاب الشأن وذوي الآذان المشرعة، مع أنك لو وزعت ما في الكلب معدوم النسب من صفة كالوفاء مثلًا على الذين حولك، لأصيبوا بحالة حادة من الإنسانية الدافئة، وهو كلام معروف رصد كثيرًا من وقائعه الدميري والجاحظ ودوائر المعارف المختلفة. وأشهر كلب هو المصاحب لأهل الكهف في القرآن الكريم، والكلب المصري «هول» الذي أصبح علمًا على كل كلاب الشرطة، يتحسسون بأنف هذا الكلب رائحة الدم والبارود والمخدرات والمطمور من الأسرار، وكلب الشاعر الأخطل الذي هجا به قومًا: «إذا استنبح الأضياف كلبهم، قالوا لأمهم بولي على النار»، وكلب «آل باسكرفيل» الذي كشف سره

«شرلوك هولمز» في رواية سير «آرثر كونان دويل»، والكلب الملعون الذي يرد يوميًّا ـ وأحيانًا كل ساعة ـ على لسان البشر وصفًا تعسفيًّا عدائيًّا لآخرين من البشر، وكلب السلطة: نوع من المخلوقات الإنسانية يفسر كل ما يحدث من أمور بطريقة خاصة تصلح لأن تكون وشاية جيدة للسلطة، وصوت سيده: علامة تجارية ظلت راسخة على أسطوانات الحاكي في شكل كلب غاص ببوزه في البوق وقد أقعى مشرعًا أذنيه، وقد اختنق كلب صوت سيده تحت مداهمة شرائط المسجلات الحديثة.

والكلب أكثر فصائل الحيوانات تعددًا في أنواعه وأحجامه وأشكاله، حتى إن ثمة نوعًا منه ذا شكل معين لو قارنته بنوع آخر لما استطعت أن تضع الاثنين في فصيلة واحدة، ولذا فقد كادت فصيلة الكلاب تحتوي داخلها عددًا لا بأس به من فصائل أخرى من المخلوقات: أمناء السر، نقاد الأدب، خدم الحريم، المؤرخين الرازحين تحت وجهة نظر واحدة، صبية الورش والمقاهي والنوادي، ناضورجية المهربين (أي هؤلاء الذين يكون عملهم مراقبة الطرق والمسالك بالنظر)، وناضورجية قواد الحملات قبل عصر التقدم العلمي المذهل، وناضورجية الزوجات ذوات الأزواج الغائبين، وكل هذا غير أنواع الكلاب ذاتها، السلوقي وأصله من بلدة سلوق باليمن، والأرمنتي وتشتهر به منطقة أرمنت أعلى صعيد مصر، وكلب الصيد ويطلق عليه علميًّا كلب الذئب الروسي، وكلب الغنم ـ أي كلب الرعاة ـ وهو المشهور بكلب «سان برنارد»، وتتفرع من كل ذلك جنسيات متعددة مثل كلب الصيد الأفغاني، والصيني، والمصري البلدي، والقوقازي، والإسباني.

وأصغر أنواع الكلاب ما يُسمى بالزبزب: صغير الحجم جدًّا ـ أقل من أرنب ـ قصير القوائم، ويمتاز بالتهور والشجاعة والذكاء، ويربى في البيوت حيث لا ينضم إلى الأنواع الضالة الهائمة في الشوارع والساحات وحول المذابح والسلخانات ومعامل تفريخ البيض وتربية الكتاكيت.

وكل أنواع الكلاب قابلة للاستئناس والتدريب، وتحظى ـ عند تدريبها ـ بقدرتها على الإمتاع واللهو وإثارة المرح، ويمكنها ـ حينئذ ـ أن تفوق الإنسان في الخداع والمناورة. لكنها تفعل ذلك خالية من الشر، والذي يظل الإنسان وحده صاحب الامتياز فيه، والذي يسلم قياده ـ بشكل أو بآخر ـ لكلب يقوده من قضية إلى قضية، ومن سعادة إلى سعادة، ومن بؤس إلى بؤس. فإذا كان قد فقد بصره تمامًا، فعليه أن يعتمد على كلب أمين يخترق به الشوارع والمسالك، العصا وحدها لا تكفي.

كلمات لها معنى

في معظم الأحيان يقوم الصبر بجهد رائع كي يصوغ صياغة مهذبة مادة: العجز.

*

لو كان الأمر يتوقف عند حدود أنني أعرفك، لهان. المشكلة أن آخرين يعرفونني ـ أنا ـ أيضًا.

*

يمتاز الإنسان بأربع خصال نادرًا ما تجدها مجتمعة في مخلوق آخر: أنثاه تحيض، وكفه بخسة، ولسانه أعمى، وقلبه مريض.

❊

الأنثى أخطر عناصر إشعال الإبداع فينا، مرة أو مرتين ـ أو ثلاثًا، ثم بعض الوقت كي تنطبق المقولة على أنثى جديدة.

❊

الثقافة الشديدة تفسد في المرأة أجمل ما فيها: تلقائيتها.

❊

نار الله الموقدة أن يكون أحدهما بليدًا: زوجتك أو رئيسك في العمل، جهنم أن يكون الاثنان.

❊

يصمم الأطباء الشرعيون وعلماء التشريح على أن مخ المرأة أصغر من مخ الرجل، إنهم يستبعدون من مخ المرأة طبقة المساحيق.

❊

في القطارات التي تستغرق زمنًا طويلًا بالذات: الزوجة بجوار زوجها، أما العشيقة فأمامه.

❊

نتمتع نحن الفقراء بخيال واسع، وإلا فكيف نكمل باقي أصناف المائدة.

البغل

صفات حرجة وطهارة لا حيلة فيها

لا بد من توفير حسن النوايا أثناء قراءة هذا الموضوع، فالبغل ـ ومثله كل ما يدور في الكون من حالات وعناصر ـ من مخلوقات الله، وهو ما نرتكن إليه كي نضع البغل في موقعه الإيجابي الذي يستحقه بدلًا من نفيه خارج الاهتمام، ويكفي البغل فخرًا أنه فاق الخيول ـ (ذات الشهامة المتألقة)، والإبل ـ (ذات الصبر الراسخ)، والحمير ـ (ذات الامتثال والخنوع) في اختراق الفلوات والجبال والأنهار ليحمل الكتب والزاد إلى هؤلاء المنقطعين ـ للإيمان والعلم ـ بعيدًا عن ضجيج الناس. وقد قام البغل ـ مبكرًا ـ بجهد فائق في حل ما رآه علماء الوراثة المعاصرون أنه معضلة: من الذي يؤثر في نوع الجنين، الذكر أم الأنثى؟ وظهرت أبحاث عديدة متوالية تراقصت جائزة نوبل العالمية في ميدانها حول الخلايا الحية وتركيباتها وصولًا إلى نتيجة قام البغل بتحقيقها منذ ملايين السنين. إذ يقول الدميري في كتابه الشهير «حياة الحيوان»: فإذا كان الذكر حمارًا كان البغل

المولود شديد الشبه بالفرس، وإذا كان الذكر فرسًا كان شديد الشبه بالحمار، ليصبح مناسبًا أن نشير هنا إلى أنه «ابن أمه»، والمعلومة بدائية ـ يجهلها كثيرون من أبناء العصر الحديث ـ فالبغل عقيم لا يولد له، ولانتفاء الذكورة والأنوثة منه حاقت به قوانين العقاب في السب وصفًا لأعدائنا والمناوئين لنا، وخصوصًا عندنا نحن الشرقيين ـ عربًا وغير عرب ـ الذين نفخر بالخصوبة بجانبيها الذكوري والأنثوي، حتى إن طالبًا للعلم من بلاد البنغال احتج على بحث زميل له زعم أن لفظ «البنغال» جاء نتيجة لما اشتهر فيها من القدرة الفذة للبغال على صعود جبالها (قسم من الهيمالايا الهندية) حاملة ما يحتاج إليه المقيمون أعاليها من زاد واحتياجات، وهو افتعال لغوي وقع في صوتيات اللغة دون معناها.

وعموم الناس ـ في أقطارنا ـ لا يقتنون البغال، إنما هي شريحة واحدة ـ دون الفلاحين والبدو ـ تلك التي تعرف لهذا النوع من الحيوانات قدرها: أصحاب عربات الشحن (الكارو) وتجار الحبوب والأقمشة قبل أن تنتشر محلات بيعها في كثير من المواقع، وقبل أن تتفشى استخدامات السيارات بأنواعها. لاحظ أن البغل ـ الآن ـ دخل في دائرة الاندثار، بل بدأت الحمير والخيول والجمال تحس بما جرى للبغل تمهيدًا للمصير المتوقع لها خلال السنوات القادمة بجراراتها الآلية فاقدة الإحساس والمشاعر.

لكن البغل لا يزال مشاركًا للحمار وصفًا للغباء في فصول المدارس وساحات التعليم وإهانات الكبار للصغار في المطاعم والورش ومواقع التشغيل والبناء والمحاجر والموانئ والحقول. لكن

البغل ـ دون الحمار ـ ينفرد بالتسلل غير المعلن بين سطور تحليل بعض التصرفات السياسية، وحيثيات أحكام انفصال الأزواج، والقدرة على التحمل دون مناقشة، وعجز الفرد عن اكتساب خبرات جديدة (الجمود)، وبؤس العواطف، وفقدان اللماحية (الذكاء السريع)، والخوض فيما يجب عدم الخوض فيه، وارتفاع الهمة والقدرة النشطة دون أن تمتزج بالتذوق، وأي جمل أو حصان أو حمار سوف يجد من صاحبه ـ أثناء السفر ـ صوتًا شعريًّا غنائيًّا نشوان يصنع إيقاعًا يربطهما معًا: إلا البغل الذي تستوي عنده كل الأمور، يخترق جداول الماء ويقفز فوق القنوات (الجمل لا يمكنه ذلك)، وأكوام الرمال والحصى والتراب (الحمار لا يمكنه ذلك)، ولا ينشغل بعذاب حارق للزوجة والأنجال (الحصان ونحن، لا يمكننا ذلك)، ولا يكافح طويلًا كي يعود إلى بيت صاحبه: الدار أو الوطن (كثير من السياسيين لا يهتمون بذلك).

وقد نتج عن عدم انتباه البغل لحقوقه أن امتلأت الكتب بالنوادر، والشوارع بالنكات، وجلسات السهر الرخيص ـ والغالي أيضًا ـ بالتعليقات التي تجر البغل من أذنيه، والتي تسبغ على البغل ما يظلمه ويجور على تكوينه الذي اختصره عمرو بن العاص في واقعة جاءت في كتاب «الكامل» للمبرد، حينما نظر أحدهم إلى ابن العاص وهو على بغلة قد شمط وجهها هرقًا (أي ذات وجه عجوز ذي غضون قديمة)، فقال له: أتركب هذه وأنت على أكرم باحرة؟! (والباحرة ـ بالحاء لا الخاء ـ جاءت من البحر صفة للفرس واسعة الجري مزجًا مع الناقة فائقة التحمل)، فقال عمرو بن العاص: إنه لا ملل عندي

لدابتي ما حملت رجلي، ولا لامرأتي ما أحسنت عشرتي، ولا لصديق ما حفظ سري: إن الملل من كواذب الأخلاق. وهو ما استند إليه واحد من القضاة المصريين ـ في الستينيات ـ حينما رفض دعوى طلاق بين زوجين لم تتح لهما فرصة إنجاب، لكنهما أقرا بحسن العشرة. وذلك هو المدخل الجميل الذي يمكن لي أن أتمنى أن يصعده البغل من بين الوديان وعربات الجر وخشونة الجبال، ليصبح رمزًا عصريًّا لكثير من تصرفاتنا ذات النبل والطهارة. لقد حظي بذلك الحمار: شعار الحزب الجمهوري أو الديمقراطي في الولايات المتحدة الأمريكية، عذرًا فقد عجزت عن التحديد الدقيق ـ والضروري ـ بين الحزبين أثناء استغراقي في كتابة هذا الموضوع.

كلمات لها معنى

سألته في استياء: لماذا فعلت ذلك في صديقك، فقال في هدوء: وهل لا بد لي من البحث عن واحد لا أعرفه كي أفعل فيه ذلك؟

*

بهجة بالغة المرارة: مشهد أحفادي يحاولون ـ في صخب الطفولة ـ العبث في أحجار الهرم، نفس الأحجار التي كنت ألوذ بالجلوس عليها في الأيام الغابرة، كانت زوجتي ـ جدتهم ـ تمعن في وجهي.

*

لا نزال نحصي الديون في حدود نقود تمت استدانتها.

*

الزهور لا تنبت في المنطقة السفلى من النبات.

*

من الممتع أن يحاول أساتذتي تقليد «سارتر» و«سيمون دي بوفوار» في علاقتهما المتميزة، دون أن ينتبهوا إلى أن المسألة بدأت منذ ريعان شبابهما.

*

الطاقة تساوي الكتلة في مربع سرعة الضوء، رجاء مراعاة فروق الظلام.

*

كثيرًا ما نجحنا في إغلاق الباب الذي يأتي منه الريح، لكننا لم ننتبه إلى فتحه أوقات النسيم.

الثور وثورات أخرى

أحسست بحرج يصل إلى حد الاضطراب حينما اقتربت من «الثور» ومادته الغزيرة الطافحة في القرى والوديان، فإذا بهذا الثور يلقي بي في «الثورة» بصفتها أنثاه من الناحية اللغوية الخالصة مستبعدًا البقرة: الأنثى الواقعية، وهو أمر شائع حينما تتخلق الأنثى بحروف تصنع لها عالمًا لغويًّا له إيقاع وصدى مختلفان عن سطوة المذكر: الجمل والناقة، والأسد واللبؤة، الرجل والمرأة، الثعبان والحية، الرفق والشفقة، أما أن يقودني الثور إلى الثورة بصفتها حالة هياج فقط: يصبح صعبًا أن أغمض عيني عن حياتي وتاريخي ومفاهيمي وكتابتي وإدراكي النقدي - أو التذوقي - للنصوص الأدبية - في الشعر والقصة، دون استبعاد اللوحات الفنية والأبنية الموسيقية. إن الثورية المتأججة في الوجدان تحتاج إلى نوع من الفصل بينها وبين الثور حتى أجعلك تحس بالارتياح معي - حتى لو كان مؤقتًا، كي يباح لنا أن ندرك أن الثورة تعني الكثرة. يقال: ثورة من رجال، وثورة من مال، كما أن ثورة الشفق عندما يبدأ الليل في الزحف ضاغطًا على النهار

لإزاحته من عالم النور، ولعل ثور الشفق الممتد في الآفاق بحمرته الداكنة الساحرة هو أكثر المشاهد تأثيرًا في النص الأدبي منذ الأبد، حتى إن الثور يعني انبعاث الشيء قبل أن يصبح جنسًا من الحيوان: ثار البركان ثم ثارت الفتنة، وثار فلان: اشتعل غضبًا، وثارت نفسه أي تجشأت ـ ربما بسبب أمراض القولون العصبي المبكرة في الذكر بالذات حينما يمعن في غضب مكتوم على مساحة تضاريس وجه أنثاه، وقد يتطور الأمر صاعدًا من أمعاء البطن إلى «الفريصة»: يقوم الرجل ثائرًا فريصته: أي عصب الرقبة وعروقها التي تنتفخ ـ منذ الأزل ـ عند الغضب، وتؤدي به إلى الحالات العصرية ـ والثورية ـ التي نعاني منها الآن، مع أن التراب ـ أقصد الغبار، له ثورة لا تقل شأنًا عن ثورة الدخان والجراد، والطحالب أيضًا حتمًا تنتشر على وجه الماء الساكن أو الهائج. ويبدو أن الثور سيظل يتراجع أمام اجتياح أنثاه حتى ينتهي به الأمر إلى تلك الأطباق الشهية ذات الرائحة المخترقة لمنطقة الاشتهاء في الخياشيم، في حين تنشط أنثاه ـ الثورة ـ لتداهم الرأس الإنساني لينتشر الشعر ويتفرق، وثورة الماء من البئر تتوازى بانفعال أقل حدة من ثورة البركان، وثورة البعير من مبركه ـ أي المكان الذي يبرك فيه ـ تعني انبعاثه واقفًا، وعندما تثور الحصبة بفلان: أي بدأت تنتشر. ويحتل الفلاح من الثورة ما يسمح له بأن يحرث الأرض ويقلبها تمهيدًا لزراعتها، وفي سورة البقرة: «قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ» ـ وعندما يعود الفلاح كي يثير الأرض فإنما يقصد أن يصمم لاستخراج بركاتها منها، أما إثارة الأمر فتعني بحثه، ومدارسته وبالذات في التقارير السرية غير

المعلنة في المؤتمرات والاجتماعات ودورات المجالس النيابية المحلية والدولية.

إلا إن الثور يعود خلسة ـ على غير ما تعود من سلوك هائج ثائر ـ ليحمل اسمه ثور بن عبد مناة بن عدنان، وهو من العصر الجاهلي قبل ظهور الإسلام، وكانت منازل أهله حول جبل ثور الذي به الغار الذي لجأ إليه الرسول الكريم بعد ذلك في أثناء هجرته من مكة إلى المدينة، وقد حمل أهل ابن عبد مناة هذا الاسم. أما أبو ثور فهو إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي، وهو فقيه من أصحاب الإمام الشافعي، وكان ذا علم وفقه وورع وفضل، وقد صنف الكتب، ومات ببغداد شيخًا بعد أن وضع الكثير من الآراء في الخلاف بين الإمامين: مالك والشافعي. أما الثوري سفيان بن سعيد من بني ثور أيضًا، فقد نشأ في الكوفة، وراوده المنصور العباسي كي يلي الحكم بعده، فأبى رافضًا أن يقع في خضم السطوة والسلطة، وانتقل إلى البصرة مستخفيًا ليموت فيها دون أن يعرفه أحد، وله من الكتب الجامع الكبير والجامع الصغير.

وقبل ظهور الثورة بأحقاب كان الثور يعني: السيد، والمهيمن على الأسرة أو القبيلة، وبه كني عمرو بن معد يكرب، ثم لم يلبث شأن الثور أن امتد إلى معانٍ تنزل به من السمو والعلو إلى صفة الأحمق، بل وتدني إلى البليد الفهم، والمجنون كما هو معروف أيضًا، وقد يدعونا ذلك إلى التقاط أنفاسنا، والإمعان في هدوء إلى الوجود، وأن نبتسم قليلًا، وألا نستبعد أجزاء الثور المتبلة في الطبق الشهي، وأجزاء الثورة أيضًا.

كلمات لها معنى

كل جرح له خطورته، أشدها خطرًا تلك الجراح التي لا تنزف دمًا، جراح القلب بالذات.

❊

ليس هناك أعمق تأثيرًا من نظرة رقيقة في وجهك الغاضب من طفلة لا تجيد الكلام، طفلتك على وجه الخصوص.

❊

أول من وصل إلى قمة الجبال: الطيور والحشرات، في دقائق أو ساعات، والإنسان أيضًا خلال عدة أيام أو شهور ـ أو سنوات.

❊

أفكر في رواية ممتعة، أنجح عبرها في جمع كل عواصم العالم في منطقة واحدة، تاركًا بقية الشعوب كي تستمتع بالدنيا الصافية دون عواصم.

القط

الأليف الجميل الأنيس، والمطارد الدائم لفئران العالم

انتبهت ـ فجأة ـ أنني لم أكتب عن القط، مع أنه كان في ذهني من بدايات التخطيط لهذه الموضوعات، وكلما اقتربت منه خمشني بمخالبه المستورة في قدميه، إنها استثارة لعصره القديم الذي وضعه فيه علماء الأحياء جنبًا إلى جنب مع الأسد والنمر والببر والفهد. إنها عائلة القط، الذي ـ خروجًا على توحش أقرانه أبناء العائلة الواحدة ـ سيظل الأنيس الجليس ذا الدم الخفيف، والذي أيضًا لديه قدرة فائقة على التراحم والتواؤم مع البشر، وأي أمن أحسست به حينما كان ينسل قط الشتاء بين طيات فراش طفولتي وهو يتناغم بالهرير الدافئ، حتى ولو طافت حوله وساوس واتهامات لكونه لصًّا منزليًّا خالصًا، ومحبوبًا أيضًا، مع أنه لا يحب هذا التضامن الذي يقوم به الكلب ـ مع أهله وأصحابه ضد الغرباء، إنه يريق الود على كل من في المنزل، قد يتردد لكنه لا يتوانى عن أن يشمشم فيك ثم يصعد

إلى حجرك، ليتيح لك فرصة تمرير أصابعك بين شعر رأسه ورقبته، في أولى دقائق زيارتك الأولى للمكان. ويمكنك أن تحيق الأذى بأصحاب القط فينزعج من القسوة ويهرب، ولا يحاول أن يكون شجاعًا ولو مرة في حياته، إنه جبان جميل وأثير للبشر، حتى إنه بزَّ الكلاب في التآلف الإنساني الدافئ، دون أن يكون في هذا التآلف أي وفاء، حتى إنه من كثرة تراحم القطة بأولادها فإنها تأكلها خشية وقوعها في القسوة والتعذيب.

وللقط موضع مهم في الذاكرة الإنسانية خلال سريانها عبر العصور، ولا تزال أقوام تداوي مريض الحمى بتناول لحم القط (أكلته مرة وأنا دون الثامنة من عمري)، كما أن كثيرًا من شياطين الزار تكمن أيام التعطل في أجساد القطط. وتستثار هذه الشياطين حين تتأجج حلقات الزار بخبط الطبول الضاجة باسم «بس»، ومعروف أن في مصر القديمة كان ثمة إله هو «بس» ويرمز إليه بالقط، وهو اللفظ الذي ينادى به هذا الحيوان اللطيف حتى اليوم، كما أن حالات الجذام التي تتآكل فيها الأطراف كانت تعالج بدم القط، يراق فوق الطرف المصاب ثم يتم ربطه بغطاء من جلد القط المنزوع قبل أن تداهمه برودة الاغتيال.

وللقطِ دور كبير في مرحلة اعتقادات تناسخ الأرواح التي مرت بالشرق القديم، سوف أختصرها لك في حكاية إحدى قريباتنا، فقد أنجبت طفلين توأمين، رحل واحد وبقي واحد، ورأيتها ـ بنفسي ـ وهي تحتضن قطًا بمبالغة في الاحتضان معتقدة أن روح وليدها الراحل قد احتلت جسد هذا الحيوان، ولم يكن

ذلك مفاجئًا لي، إنما الأخطر هو ما تعتقده أيضًا من أن الوليد الباقي حيًّا، تتلبسه روح قط ليلًا، وذلك ليتمكن من أن يسرح مع أخيه، ولتثبت ذلك قامت إلى رقبة ابنها وكشفت عنها لنرى أثر خرابيش القطط المتشاجرة معه ليلًا، كان واضحًا أن الجميع كانوا يمعنون في الرقبة المخربشة من أثر كثرة تعريتها وتغطيتها، تكاد تكون ملتهبة من السحجات.

وأخطر أنواع القطط هو الذي يطلقون عليه في القرى: النفور ـ أي النافر الهارب في الحقول والمراعي ـ وربما يكون هو «السنَّور» ومشهور بالشراسة والحياة وحيدًا، يقطع الطريق على الأفراد دون الجماعات ويحيق بهم الأذى، وقد اختفى هذا النوع واندثرت معه حكاياته التي كانت مزدهرة أيام طفولتنا. وهو نوع من أنواع عديدة تشمل القط الشيرازي وقط بورما المقدس والقط الرومي، وكلها تتميز ـ كما هو معروف ـ بقدرتها الفائقة على الشم والرؤية ولا سيما في الظلام، وفي معابد التبت هناك القط الذي يحوز التقديس ـ كالقط الفرعوني وقط بورما.

وأكثر القطط ألفة وونسًا (أو أنسًا) القط السيامي بلونه الذي يشابه الغيوم لحظة غروب الشمس، ولعل ميزته الكبرى أنه يتعود سريعًا على العادات الراقية في النوم والأكل والنظافة، حيث تخفت عنده عادة اللصوصية أو التطفل على الموائد أو المواء المقلق عند تجهيز المائدة. كذلك فإنه مما يريح ربة البيت أن هذا النوع من القطط يألف استخدام أركان دورات المياه أيضًا، وليس من بينها النوع الأسود الذي يمثل الشبح الشرير القادر على القفز فوق

الموائد وبين الأطباق وعلى الأسوار وبين شواهد المقابر وفي الأركان الخربانة، والذي صوره ـ في أجمل القصص ـ «إدجار آلان بو»، والذي منه نوع لا يحب رهبان الأديرة المنقطعون رؤيته لأنه ممسوس من الشيطان، ويتشاءمون من موائه ومن رؤيته ومن محاربته في نفس الوقت. وتكره القطط الكلاب، وفي حالات تحتاج إلى جهد تمكن البعض من توليف قط معين على كلب معين دون بقية القطط والكلاب، لكن الغرام الأكبر: للقط هو اصطياد الفأر، وكل الدنيا: شعوبًا وقوميات مختلفة يكون همها الأول الاستخدام الأمثل للعداء بين القط والفأر. والذي فعله «والت ديزني» أنه استقطع «ميكي ماوس» ليصنع له عالمًا سينمائيًّا كارتونيًّا فريدًا ومستقلًّا، فجاءت مؤسسات أخرى لأفلام الكارتون لتقيم عالمًا دراميًّا مرحًا ومسليًا عن العلاقة بين القط والفأر: «توم» و«جيري» لكنها جعلت الفأر ـ بصفته المطارد ـ ذكيًّا، وجعلت من القط الذي يقع في أحابيل الفأر: غبيًّا. والأدب عمومًا لا يحفل كثيرًا بالقط إلا بصفته نديمًا للمنقطعين والعوانس، في حين أن «هانز كريستيان أندرسن» الدانمركي، وكامل كيلاني المصري استخدما القط في بعض قصصهما بصفته حيوانًا طيبًا يحمي الأطفال ويحول بينهم وبين شر الفئران والثعابين وذوي الضمير الميت. وبعدهما قام كثيرون معاصرون بالاهتمام بالقط، ابتداء من المناهج الشهيرة للمدرسة الابتدائية (قطتي صغيرة ـ واسمها نميرة) وانتهاء بالموجة العارمة ـ حاليًّا ـ والتي توسع فيها التأليف لأدب الأطفال تلبية لدعوة كبار المسؤولين والمنظمات الدولية المختلفة.

كلمات لها معنى

نزلات البرد تكشف مساوئ القرود، والنساء، والأطباء.

❊

انظر للكلب وهو ينبح امرأة جميلة: إنه يهز ذيله طربًا.

❊

امتلكت نوعين من الجمال: مرة لأنها أنثى، ومرة لأنها ـ مع ذلك ـ زوجة.

❊

للفوضى نظام خاص لا تدركه العيون الرتيبة.

❊

نتيجة غير متوقعة لحصول المرأة العصرية على حقوقها، اقترب أسلوبها الأدبي من أسلوب الرجل.

❊

العناصر المبكرة تعني سيادة صنف المؤنث: الجنة، والحية، والتفاحة، وجهنم، كان الرجل عنصرًا واحدًا: إبليس.

❊

سحر الأبوة في كونها قامت على صيغة المؤنث.

❊

المطبخ مغرم بالنساء، لذا يفوح اصطيادًا للرجال.

❊

عرف الحمار التخطيط مبكرًا، ثم ترك وضع البرامج للبشر.

النمس

الفاتك بالثعابين، والمنتظر في الوظائف الحكومية بين الدرجة الثانية ودرجة وكيل الوزارة

النمس حيوان لاحم، أي مفترس يحب اللحوم ـ صغير، أكثر رشاقة من الثعلب، وأكثر انسيابًا من الكلمة الشريرة، يعشق الحقول والأماكن القريبة من الدواجن. والنمس لا يحظى بالاهتمام المدرسي كالثعلب والذئب والقط والكلب، مع أنه أكثرها ورودًا على لسان العامة بما يمثله من استخفاء وخفة ونعومة ولصوصية وتهذيب، كما أنه لا يعمل بأي شكل في الموروث من القصص والتي تحملت أثقل منه وأقل ذكاء كالفيل والأسد، وأخف منه وأردأ أخلاقًا كالنمل والفأر والنحل والبعوض، وربما يرجع ذلك إلى كون النمس محققًا بشكل واضح في أخلاق عتاة الموظفين، وخصوصًا المحجوزين بين الدرجة الثانية ودرجة وكيل الوزارة، وفي سلوك الضباط الذين يختارون من العساكر المثابرين، والعاملين في مجال الكتابة الطامحين لموقع رئيس التحرير،

وملاحظي مواقع العمل الذين ينوبون عن المهندسين المؤهلين، وحملة المفاتيح من رعاة مصالح البيوت، وتجار الآثار القديمة، والوسطاء في إعادة المسروقات، والقادرين على تمثيل الأدباء في محافل الأدب دون أن يكون لديهم أي رصيد يسمح، والباعة الجائلين للقماش الذين يبيعون على عتبات البيوت ما هو مكدس في المحلات القريبة، وأصحاب الحظوة في العمل السياسي الذي تحكمه المصادفة فلا يبارحونه بعد أن تنتهي المصادفة، وبؤساء التعبير الأدبي الذين لا يزالون يكتبون عن شهامة المرأة التي ضبطت وهي تسرق علاجًا لزوجها العاجز، كما أن النمس يتحقق أكثر في الكلاب التي يتركها أصحابها ويهاجرون، حيث يصبح الكلب يتيمًا هادئًا متسللًا وهائمًا.

والنمس حيوان وحيد متوحد مع نفسه لا ينشق عليها، لا تجيد الحيوانات الأخرى استعارة اسمه في أنواعها مثل الكلب: كلب البحر وكلب السمك، والثور: ثور المسك والثور الآدمي، والبقر: بقر الماء وبقر الصحراء، والحمار: الجحش الحديد (وهو الدراجة)، والظبي والغزال: الحبيبة المعشوقة، والجمل: سفينة الصحراء، والخروف: كل من لا يدرك حقيقة ما يجري، وفي حالة استثنائية فإن النمس هو الموظف القادر على التواصل مع رؤسائه، يأخذون منه صفاته ويمنحونه أخلاقهم المعاصرة.

وليس هناك ـ فيما أعتقد ـ حيوان غير النمس مولع بقتل الحيَّات والثعابين، يداورها ويحاورها ويحاصرها حتى يداهمها في أكثر نقَاطها قوة: مؤخرة الرأس، أو الرقبة، وهو قادر على التربص،

والانتظار والتدقيق عند المهاجمة. ولعل ما يساعده على ذلك أن المعجم الوسيط وضع كلمة «تَنَمَّس» مقابل: «تربَّص» في حذر وحيطة، دون أن يهتم بأن الفعل «تنمَّس» منحوت من النمس، ولذلك فقد جاء النمس في قائمة معبودات القدماء، وفي أوامرهم ونواهيهم ألا يحيقوا به الأذى، وأن يراعوا معاملة جثته بالحسنى والإكرام إذا ما عثروا على النمس ميتًا، مع ملاحظة أن كبد النمس علاج للاستسقاء، وقلب النمس علاج للتوجس والاضطراب، ومخ النمس علاج لإدمان السهو والخطأ، ورقبة النمس علاج للظروف الصعبة التي تواجهنا بعد سن الستين، وعيون النمس علاج للظروف الصعبة التي تواجهنا قبل سن الستين. أما أقدام النمس فهي علاج لنا في كل الظروف دون اهتمام بأن بعضنا لم يشاهد نمسًا حتى الآن.

ولقد كان النمس شاهدًا على مرحلة حضارية، فقد وقف وزير الثقافة المصري محمد عبد الحميد رضوان عام ١٩٨٣ مفتتحًا مؤتمر طه حسين بجامعة المنيا، وخطب مادحًا إقليم المنيا قديمًا وحديثًا بما فيه من «قوة النمساء»، وهرعنا إلى المراجع لنعرف شيئًا عن قوة النمساء، لكن بعض العارفين أشاروا إلى أن المقصود قوة النماء ـ لكن كاتب الخطبة سحب الكلمة قليلًا لتملأ السنتيمتر الباقي لتصبح النماء: النمساء.

ولم أصدقه، ذلك أنني متأكد أن ثمة مرحلة حضارية مرت علينا هي: النمساء، حتى ولو لم يعلن ذلك وزير الثقافة.

كلمات لها معنى

يكافح وينافح ويرتحل إلى بلاد الله كي يحقق لزوجته وأولاده الحياة المنشودة تحت سطوة زوج آخر يبرز فجأة لمشاركة الأسرة الترحم على الفقيد، موعظة عصرية.

❊

كل المعاجم اللغوية سوف تظل تضحك عندما تقترب من هذا التعبير: الاتحاد السوفيتي.

❊

متعة كبرى أن تفهم أكثر ممن حولك، مأساة.

❊

هذا الذي يخصص في شقته حجرة للنوم، مع أنه في أشد الحاجة إلى حجرة لليقظة.

❊

قلبي مع أي رجل يتزوج ممن تزوجت من قبل، يكافح كي يقهر الماضي، ويكافح كي يسيطر على الحاضر، دعك من المستقبل.

❊

لقد بدأت المسألة بمناقشة الاستشراق، ثم محاولة فهم الاستغراب، تمهيدًا للانتباه إلى الاستشمال، فمتى نصل إلى الاستجناب؟

البقرة

رمز الخصب والتفاؤل والانقياد التاريخي السريع للمآسي

يرى البسطاء من النحاة والضالعين في اللغة أن البقرة جاءت من بقر البطن، اختصارًا لما يعتقدون أنه عمل البقرة الأصلي، في حين يرى العارفون بأمور البقر ومنهم المؤرخون والفلاحون (المصريون بالذات) وجماعات أصدقاء الحيوان، أن البقرة طاقة خير، ومنبع إدرار، ومبعث تفاؤل، وإشارة خصب، وموطن صداقة، وفي دخولها بيته أول مرة يضمخ الفلاح رأسها بالدقيق طلبًا لنزول البركة في صحبتها، ولعل ذلك ـ في معنى آخر ـ آخر بقايا علاقته بـ«حاتحور» ربة الخصب المصرية في الأحقاب القديمة، لكنها أيضًا ستظل علامة السنوات المقبلة في الحلم الشهير لسيدنا يوسف عليه السلام، جدبًا أو ثراء. وهذه الصفات الميمونة في البقرة جعلتها موضع تقديس ـ لا تزال ـ عند كثير من طوائف الهند، والبقرة ـ بعد هذا ـ ستكون الحيوان العصري الوحيد الذي تظل الفائدة منه قائمة في كل أجزائه

وثناياه من اللحم واللبن والزبد والأحذية والحقائب الجلد إلى الغراء والكيماويات الوسيطة (القرون والأظلاف)، حتى عظام البقر تدخل وسائط في الأسمدة وبعض الصناعات الغذائية والدوائية.

وجسم البقرة تشكيل هندسي بالغ التوازن، ولها إيقاع خاص في مشيتها، وعيناها من أجمل ما رأى الوجود من عيون، سواء كانت عيون المها ـ بصفتها الصنف الأكثر شاعرية وأندر وجودًا ـ أو في عيون البقر البلدي أو الأهلي كما يطلق عليه في كتب التراث، لكن ذلك ما لا يراه المربون في الحظائر الضخمة المقامة في المراعي الشاسعة في هولندا وفرنسا وأمريكا، إذ فقدت أبقارهم صفاتها المتألقة تحت روح التجارة والتعليب والتصدير. انظر إلى طبق البلوبيف أمامك، فلن تحس بما يعتمل داخلك من شاعرية دموية مثلما يحدث لك عندما تغوص أصابعك في كتل اللحم البلدي في الثريد الوطني، الذي يصل إلى ذروته لو كان المنفرش في طبقك مخًّا بقريًّا مسلوقًا تجاوره شريحتان من اللسان مع قليل من السلاطة الخضراء ذات الفلفل الحارق والطحينة البيضاء.

وللبقرة غضبها الخاص ـ والمزمجر ـ إذا ما حاق بها أو بوليدها الأذى، وهي قادرة على النطح بأقسى مما تراه في حلبة صراع الذكر منها في إسبانيا والبرتغال، لكنها في غير ذلك حيوان ودود شديد الارتياح لمرأى أصحابها، وتشارك حيوانات الحقول الأخرى في سهولة قيادتها، لكنها تختص دونها بما يطلقه العوام على المنقادين بأنهم بقرة، أما ذوو الفهم العسير فيطلقون عليهم: حمار، وليس لهذا أي علاقة بتلك الجماعات المعاصرة المنقادة بسهولة إلى حتفها الظاهر.

ويرى علماء الأجناس أن البقر زامل الإنسان منذ فجر التاريخ، وأصبح سلوك أي منهم مفسرًا وشارحًا لسلوك الآخر، حتى قرون البقر لم تنجُ من التفسير الإنساني الذي رُمز به إلى الجاهل بما يحدث في حياته الخاصة من أمور. وأنت لا تستطيع أن تمنع إحساسًا بقريًّا يداهمك عند خروجك المزدحم من السينما أو دار الأوبرا أو السوق أو المدرسة أو محطة القطارات والمطارات أو التجمعات الحزبية. ولا تستطيع البقرة أن تحول بينها وبين الإحساس الإنساني عند مثولها مع أقرانها وولائدها للغذاء، أو الاجترار أو الذبح. ولهذا تجد اللوردات والنبلاء وعتاة صيادي الحيوانات يفخرون بأن يفترشوا في مداخل قصورهم جلود السباع، ويخفون عن عمد جلود البقر، مع أن البقر نقطة ارتكاز أساسية في حياتهم: صيدًا أو بقاء أو حسن تقدير للأمور. وإلا فلماذا وضع المهاجمون من التتار والقوقاز رؤوس البقر ذات القرون فوق هاماتهم؟ كما وضع المهاجمون من غير التتار والقوقاز رؤوس البقر ذات القرون داخل قلوبهم؟

الإجابة لا تحتاج إلى بحث آخر.

كلمات لها معنى

الشقاء إحساس وليس قدرًا، رأيت ذلك والسائق يفتح له باب السيارة الفخمة، ووجهه قد داهمه الاشمئناط والبؤس.

*

هذه الصبيانية التي تراها في خطاباتنا إليهن، هي آخر الأعمال الجليلة التي تسعدنا ونحن نتناول عقار تخفيض اليوريا ـ البولينا ـ في الدم العجوز.

*

الكبير يأكل الصغير، وفي المقابل: الكبراء تودي بهم الصغائر.

*

كلما رأيتها أيقنت أنها البئر العميقة الخالية من الماء لتصبح هوة سحيقة.

*

جميع الأمهات صالحات للدعاء الميمون، جميع الأمهات!

*

أي أنثى جديرة بالحوار المتألق، على ألا تتحدث عن إنسان آخر غيري.

*

فاتورة الكهرباء قد تعني كمية النور، لكنها أيضًا ـ تعني الرغبة العارمة في معالجة قلة الدفء.

*

اقضِ أكبر وقت ممكن في النظر إلى وجهها الجميل، إياك والإمعان في أصابعها، لا تغضب مني.

*

لو استطعت أن تربت بأصابعك على خدها مجاملًا أو مواسيًا، فسوف تبدو بقية الأمور واضحة في الأفق الغامض.

القرد

زميل البشر في التشريح والمرح والاستيلاء على الأشياء

وقفت كثيرًا على حافة ساحة القرود متحرجًا من الكتابة عنها، لا سيما وأن المنطقة التي يقع فيها مسقط رأسي تحتوي على أضخم تمثال لقرد رأته عيني. فقد كانت منطقة الأشمونين ـ وسط صعيد مصر ـ تعبد إله الحكمة ـ ويمثله القرد ـ في الأحقاب الوثنية، يراه السائحون الآن مدهوشين وعيونهم ترمش بإيقاع قردي جميل. وربما تكون هذه المنطقة وراء الحكايات والخرافات التي كثيرًا ما تحيل أبناء الآمرين والخطاة والعصاة إلى هذا المسخ، مع أنها تخلو من الغابات الكثيفة. ونظرية «داروين» المرعبة وعلماء الحيوان يصنفون القرد ـ بكل أنواعه ـ مع الإنسان في خانة الرئيسيات، وتحتهما تندرج بقية المخلوقات المعروفة، لكن القرد ظل قادرًا على التسلل إلى ملامح الناس وتصرفاتهم، ابتداء من الطريقة التي يقشر بها القرد السوداني وأصابع الموز، وانتهاء بالطريقة التي يتقافز بها الإنسان

صعودًا وهبوطًا، وبالقفز الثلاثي والرباعي وفنون الجمباز المختلفة، حتى ضاق الأمر بالقرد ـ في العصر الحديث ـ ليقف وراء أسوار حدائق الحيوان وفي ساحات السيرك ومصادقة حواة الأسواق والشوارع وصيادي الغابات. ويستمتع علماء التشريح بما اكتشفوه من تماثل القرد مع الإنسان في الجهاز الهضمي وتكوين الأصابع وحجم المخ ورغبة الذكر في السيطرة على القطيع أو العائلة. كما أن كليهما شديد المرح والسعادة بالطعام والنقود والنفاق والدفء ومداعبة الذين سيكونون ورثته، ولهما ولع بالاستعراض والمعايشة وتصدر الندوات الثقافية وسماع الموسيقى والوفاء. دعك من الطريقة التي يفتح بها السكرتير باب مديره العام أو وكيل وزارته، أو نصف الانحناءة التي يقدم بها الأديب الجديد مؤلفاته إلى رئيس التحرير أو نصف الإغماضة التي ترمق بها جارك حين يقتني سيارة أو زوجة جديدة، أو الطريقة التي تجلس بها وسط أسرتك ـ متبسطًا على الأرض ـ عند العجين والخبز والنوم كالفلاحين، أو حتى النهج الذي تسلكه حين تفكر في الاستيلاء على أشياء أصدقائك: الكتب والأقلام وآلات التصوير والرياش والأثاث والمفاتيح. ذلك كله تحصيل لعلاقة تاريخية مزمنة بيننا وبين كل فصائل القرود سواء التي لا يزيد حجمها على جرو (وليد الكلب) أو التي يفوق جرمها مارد الأساطير.

ويعاني القرد الآن ـ كما يعاني الإنسان الفاضل ـ من الانقراض، فمنذ القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن العشرين ـ وأكثر ـ اجتاح الإنسان أنواع القرود صيدًا، واجتاحته الطبيعة حرائق وأوبئة وقحطًا،

وداهمته الحيوانات ذات الفصائل الشرسة اقتناصًا مما ألجأ الدول (الأفريقية بالذات) إلى إقامة محميات علَّه يعود للتكاثر، ويرجع إلى موضعه الأثير في كوابيس أحلام البشر، وإلى مركزه المعروف في علاج اضطراب الدورة الشهرية والجذام والشلل الرعاش، على أن يتم إنضاج لحم القرد على نار هادئة في ليلة مقمرة، بعد تخليصه من مؤخرته ذات المساحة الحمراء.

كلمات لها معنى

كلاهما يبدأ حلوًا لذيذًا وينتهي بكارثة: السكر والحب.

❊

قالها رجل دون أن نعترض: كل الطرق تؤدي إلى روما.

❊

يقود الرعد الطبيعة إلى صبوة التحقق فينطلق البرق.

❊

نعم أصبحت النصوص الأدبية تنقسم إلى عدة مدارس آخرها: مدرسة العلاقات العامة.

❊

يظل الحلم الإنساني الواسع يتقلص حتى ينتهي إلى الأمل في حفرة سليمة ومترين من قماش جديد، بدون ذلك تصبح النهاية مرعبة.

❊

قد يكون ضروريًّا أن تعرف أن متانة مسكنك ترتبط بما يحمله من خوازيق.

*

حالة نكوص تداهم القصة الحديثة، وإلا فلماذا نستحضر حوادث الغرام الأولى والمبكرة؟

*

حكمة الله: الذين لم ينجحوا يمثلون النسبة الكبرى من البخلاء.

*

الشدائد تصنع الإنسان، وتظل ترعاه حتى تقضي عليه.

*

سداد الأمانة إلى أصحابها، وحل الواجب المدرسي، والعلاقة الزوجية، عليك أن تختار أكثرها سأمًا وثقلًا على النفس.

*

ليس صحيحًا أن المخ الذكي هو الذي يفسد الحياة، إنه المخ الشديد الانتباه والتيقظ.

*

تحت طبلة كل أذن معسكر للشياطين.

الجمل

الصديق التاريخي الذي ـ كان ـ يجوب الأصقاع بالأفكار والقوت والفلسفة والأشعار

بعد سنوات قليلة سوف يصدر العالم العربي كتابًا تذكاريًّا عن الجمل، ونحاول أن نرسمه لأحفادنا في الكراسات وعلى السبورات وشاشات الكمبيوتر، بيدنا الكريمة التي توقف تلامسها مع العالم في حدود القلم والورق والجريدة ومقابض السيارات والبيوت والأزرار والمصاعد، وعيوننا الكليلة التي لم تعد تمتد إلى آفاق أكثر رحابة من أوراق البنكنوت ومذكرات الساسة وألعاب الفيديو، مع أن علاقتنا نحن العرب بالجمل لم تكن كأي علاقة أخرى مع أي كائن آخر، فإن كان الحصان شجاعة وفروسية ونبلًا وسيفًا وفتحًا، وإن كان الثور والبقرة حرثًا ودرسًا وغذاء، وإن كانت الشياه لحمًا ولبنًا وملابس، فإن الجمل كان كل ذلك ويزيد. هو هودج التاريخ يتهادى حاملًا الحضارة العربية: الكتاب والزاد والأفكار والفلسفة ودواوين الشعر إلى شتى الأصقاع، ابن صحراء خالص استقطر من الصحراء صفرة

الجلد والصبر على العطش وتحمل المكاره واختزان القوت والرغبة في الثأر والانتقام، طيب يحب الكلمة الطيبة كالوالدين، متحرر يعشق التنفس في الهواء الطلق بعيدًا عن الأبنية ذات السقوف كقدماء الكهنة والزاهدين والمتصوفة والباحثين عن حقيقة الوجود، أحمق ـ ليس كالصحراء فقط ـ بل وكالمرأة المطلقة، هادئ كالموظفين المحالين إلى الاستيداع، ساذج ـ وبالغ السذاجة ـ أكثر قليلًا من العاملين في مجال الوعظ والنصح والإرشاد، رزين رصين كالذين أثقلهم الدهر بالمصائب ليصبحوا محكمين في المجالس، طيع مطيع ودود لطيف كالعرائس في الأسبوع الأول من التزاوج، صادق كالدقائق الخمس السابقة على انتهاء الأجل، لا يحب الأذى من أقرب الناس ولو كان صاحبه شديد الاحتفاء به. رأيته في قريتنا يدك البيت بعوارضه ويقتحم المكان حتى يصل إلى صاحبه ليفترسه، لكنه في الأمان والاطمئنان يسير الهوينى وراء صبي صاحبه ولو بدون مقود، ولم يكن أكثر زهوًا لعروس من الاحتفال بها في هودج جمل مزخرف بآيات من الزهور والتألق وقماش الساتان، كما كان من حظ جيلنا أن يلحق بمهرجان المحمل في المولد النبوي الشريف.

كانت قريتي تخرج بجِمالها المنمقة السامقة المتهادية وراء الخيول بالطبل والزمر والصياح المتلألئ بالبشرى والأهازيج، وبالصخب نفسه كانت الجِمال تخرج بالبشرى لأول رمضان المعظم، يتحاطب الفرسان أمامها وتُقام حلقات الفروسية وتنطلق الأعيرة النارية ابتهاجًا فلا تنزعج. وعندما داهمت السيارات الأفراح أصبحت انتقالًا سريعًا ضاجًّا يخلو من السرور والزياط وانتشاء الجماعات

في مواسم التكاثر. واستُبعدت الجمال من أفراحنا لتتحول إلى حمالات الحطب والقطن والقصب، ففقدت الجمال رشاقتها وشاب تكويناتها تضخم وتكاسل، وحتى الذكور ازدردت صوتها المجلجل كصوت انسكاب المياه من القلل، وابتلعت حناجرها واستسلمت للاجترار والبروك في البيوت المسقوفة كي تعاني من السأم والملل والجرب وجراح محامل الليف الخشن، ولم يبق من عالم الجمال الأصيلة إلا مجموعات متناثرة في الصحراوات البعيدة تحتفظ بنحافتها الرشيقة وسرعتها المنطلقة وكأنها بقايا قصيدة فخر قديمة، ويقوم أصحابها بتنظيم آخر مهرجانات الهجن في الإمارات والكويت والمملكة العربية السعودية، وقد تلاشى هذا من سائر الأقطار العربية الأخرى.

ولعلنا سنعاني أكثر حينما نضطر أن نشرح لأحفادنا بأن الجمل العربي حيوان طيب عايشناه وعايشنا خلال أحقاب التاريخ، وأنه يختلف عن الديناصور، وعن الزرافة، وعن الجمل ذي السنامين، وعن حيوان اللاما، ويختلف أيضًا عن هذا الحيوان الهزيل المرسوم على علبة السجائر الأمريكية.

كلمات لها معنى

أكثر من رأيت تألقًا: ولد يندفع ببشرى النجاح، عازف اندمج في العزف دون أن يتوقف تحت سطوة التصفيق.

*

الذين يرقبون في قلق مستقبلهم، نادرًا ما ينتبهون إلى حلاوة اليوم.

❊

لا تسافر ولا تصادق ولا تكتب، إن كنت تريد أن تعرف البشر... ادخل السجن.

❊

كل وردة تنزعج من خطر أصابع تسعى لقطفها، وتنزعج أكثر من أمان يتركها تذبل على غصنها.

❊

لقد ضقت ذرعًا بهذا الحصار القاسي الذي تفرضه عليَّ زوجتي، إنها تتفانى في تنفيذ مطالبي.

❊

العواطف كالتربة تحتاج بين وقت وآخر للتقليب والتهوية وتعريضها للشمس، يستحسن أن يتم ذلك خارج البيت.

❊

الأدباء زينة العالم: يسيحون عند التعرض لأية حرارة، ويتكلسون كالكوليسترول عند الاحتفاظ بهم فترة طويلة.

❊

مصارعة الثيران، مصارعة الديوك الأجمل: مصارعة نقاد الأدب.

الكلب [مرة ثانية]

صديق أثير هائم في الأرض والتاريخ

الكلب حيوان أهلي، يربى للصيد أو الجر أو الحراسة، ومع ذلك فمعظم الكلاب التي تغطي أرض العالم قفزت من فوق أسوار هذا التعريف المعجمي، لتهيم في الشوارع بروح شاعرية تتشمم أوكار الطعام والقصائد، تهابر وتثابر وتتجمع وتتشاجر وتختلف وتتفرق وتتوالد، وخلال كل ذلك تنبح وتعوي وتبث رسائل في الأفق الليلي تقلق أو تريح في نفس الوقت. ويقول العلماء إن الكلب من أول الحيوانات التي استأنسها الإنسان، يدعمون استنتاجهم بالتآلف السريع بين هذا الحيوان والبشر. ولقد رأيت كلبًا ضاريًا مهيب الشكل يحاول أن يرافق أحدًا في الشارع، يبصبص بذيله ويزوم في رسالة رقيقة ويتابع الشخص المقصود الذي ـ حينئذ ـ ترتعد فرائصه ويلوذ بالمداخل وانحناءات الحوائط. فلما فشل هذا الكلب في الارتباط بالبشر بدأ ينبح ويطارد الناس ساخرًا، كان واضحًا أنه يعبث، وأنه محبط ويائس، وأن المأكولات التي يلقيها إليه الناس استئناسًا أو

خوفًا جاءت بعد موعدها، غير أن القصة انقطعت دون نهاية مناسبة، فقد وقع في معركة مع كلب رعاة من «الغجر» كانوا يمرون بقطيع الأغنام في الشارع، فتجمعوا حوله بالهراوات والفؤوس والحراب ووضعوا له نهاية غير مريحة. وأشهر كلب في الوجود لم يفعل شيئًا طوال حياته، كلب أهل الكهف الذي ظل مع أصحابه في كهف «الرقيم» ثلاثمائة وازدادوا تسعًا، حتى خرجوا من هذا «الماضي السحيق» ليروا عالمًا جديدًا وأنظمة جديدة ولهجات جديدة. هم رأوا ذلك، أما الكلب فقد تساوى معه أن يأتي في عصر أباطرة الرومان أو فلاسفة اليونان، فالبشر جميعًا كائنات لها إحساس، وهذا الإحساس لا يتغير باللغة أو بالعصر. كان أهل الكهف في محنة التعرف على العصر الجديد، وكان الكلب أصيلًا لا تثيره هذه التغيرات ما دام أصحابه معه.

ومسألة وفاء الكلب معروفة، وفي الموروثات الشرقية والغربية حكايات عديدة عن كلاب قضت نحبها لائذة ـ أو لابدة ـ في أماكن أصحابها الذين رحلوا: سواء في المساكن أو الفيافي أو في المقابر، ولذا فإن الكلب يحظى بتعاطف إنساني قد لا يحظى به الإنسان في بعض التجمعات.

كلب «آل باسكرفيل» للسير «آرثر كونان دويل» هو أشهر كلب روائي، والذي كشف الأخلاق الجهنمية في هذا الكلب هو «شرلوك هولمز» الباحث عن أسرار الجرائم. استولده عالم بيولوجي من علاقة مهجنة بين بقرة وكلب، فجاء المولود كلبًا جهنميًّا له هيكل بقري ضخم وملامح كلب، وطلى عينيه بمادة فوسفورية (كالتي تستخدم

في أرقام الساعات) ليبث الرعب في منطقة معزولة له فيها مأرب. إن منظر حيوان غائل في الظلام له خوار البقر وعينان من شرر لكفيل بأن يدفعك رعبًا لتنغرز في وحل المستنقع، هذا بالضبط ما حدث لضحايا كلب «آل باسكرفيل».

والأنواع العديدة من الكلاب، والعديدة في الحجم أيضًا، تشبع رغبات وحاجات الإنسان، ولعل كلب أرمنت الشهيرة في محافظة قنا بالصعيد المصري هو أشرسها، وأخطرها كلب الرعاة الألماني ـ الذي عرف فيما بعد بكلب الشرطة (الكلب البوليسي) لتجاوبه مع التدريب لمتابعة وتحديد الروائح، وهو الذي يطلق عليه كلب مكفوفي البصر، وكلب الزبزب الصغير طويل الجسم قصير القوائم الذي يمتاز بالشجاعة والذكاء، كما أن ثمة كلبًا صغيرًا يدرب للهو ويُعتمد عليه في السيرك والملاهي لخفة دمه وميله إلى المعايشة.

والكلب سلوان الأرض، لذوي الإحساس بالوحدة، والمكلومين، والعوانس، والذين خرجوا من وظائف ذات مركز قوي، والمخلصين من مساعدي أهل الشأن الكبير، وذوي الروح الشاعرية فاقدي الأمل، كما أن الكلب صفة تطلق على الذين يحرسون العجين ويسرقونه، وتابعي أصحاب المناصب، لكن الجهر بتوجيه صفة الكلب على أي فرد تبيح تطبيق قانون العقوبات الخاص بالسب العلني.

وسيظل الكلب ـ مع كل الاعتبارات ـ الصديق القديم الأثير للإنسان، دخل معه التاريخ ووسمه على معابده ومقابره وحوائطه المقدسة، ثم ظل وفيًّا له حتى شاركه في أولى تجارب رحلات

الفضاء، لتكون «لايكا» اسمًا جميلًا ومعبرًا عن النصف الثاني من القرن العشرين، مع أن جلَّ الكلاب ما زالت تهيم في الأرض، دون صيد، أو جر، أو حراسة أو مركبة فضاء، مع إتاحة الفرصة لأن يقف كلبك الوفي ـ لحظات ـ على مثواك، دليلًا على الإخلاص المتناهي.

كلمات لها معنى

الذئاب لا تعابث السحالي تواضعًا، إنها في انتظار ظهور النعاج.

*

زمن عجيب: لقد أصبح الخط المستقيم يثير الدهشة.

*

النور الوهاج كالظلام الدامس، لا يبيح للعيون قدرة على الرؤية.

*

والعقل أيضًا قد تصيبه شراهة المعرفة فيقع صريع التخمة.

*

وبرغم انفعال قائد الأوركسترا، وحركاته المؤثرة بذراعيه النشيطتين، فنادرًا ما ينظر إليه العازفون.

*

الظواهر الطبيعية لم تنشأ كي تولد منها الكهرباء بل جاءت أصلًا لخدمة الشعراء.

*

الفرق بين بعض الحكام والسلحفاة: أن السلحفاة على دراية كاملة بالمكان الذي تعيش فيه.

❊

حتى مياه المستنقعات جاءتها فرصة للتسامي كي تصبح سُحبًا.

❊

هدير الشلالات ممتع، لبعض الوقت فقط.

الغزال

الجميل الخفيف المتناسق في التكوين والحركة والشعر والمعاني ودمى الأطفال

ينساب الإحساس الجميل بالغزال في نفوس عموم الناس، مع أن بعضهم ـ ومعظمهم ـ لم يروه رأي العين أصلًا، يتداخل في خفة حركة المحبوب واتساع عيونه واتساق خطوته ـ مع حناء تصبغ كعبه، ويتمرغ في المواويل وألحان الفراق وشجن النوى، كما أن الشعر العربي ـ منذ بكوره غزلًا ـ استعار الغزال ووضع في كل أجزائه وأنواعه من جميع الظباء: قلق النهار وسهر الليالي. وعلماء الحيوان يجعلون الظبي أصلًا للفصيلة والغزال فرعًا، ثم يردون المجموعة كلها إلى الفصيلة «البقرية»، فيفسدون علينا كثيرًا من المسائل، تمامًا كما يردون السباع إلى فصيلة القط، فيحيلون الشجاعة والبسالة إلى مجرد مواء جائع ممطوط.

ونادرًا ما يطلق الناس على مواليدهم «ظبي»، ولا يوجد في المَمالك سوى «أبو ظبي» في الإمارات العربية المتحدة. لكن الغزال

ينتشر اسمًا لقبائل وأفراد، وكذلك «ريم» ـ مولود الظبي ـ الذي استأثر مع المها ومع الهيثم (وليد الصقر) ـ على كثير من الأسماء الحديثة، ومع ذلك فقد حال عناد الشعر الحديث دون استفادته من كل هذه الألقاب والأسماء، ربما لأن خطى الإيقاع الرباعي للغزال، ثم الخطوات المتزنة في سيره الآمن، ثم القفزة الواسعة في الهرب خوفًا، كانت أصعب مما تتحمل مقاطع الشعر الحديث المتناثرة.

ولذا فإن أسرع وأجمل ماركات السيارات وعلامات علب الشيكولاتة وزجاجات المشروبات وأشكال مؤانسات الأطفال من دمى وألعاب تأتي على شكل الغزال، استقعد البيوت والأرائك والمهود (جمع مهد)، بعد أن ضاقت به الصحاري والروابي فزعًا من طلقات رصاص هواة صيده الجبابرة، إهلاكًا للوقت وطلبًا للهو، ثم: واستمتاعًا بلحمه الجميل الخفيف الخالي من الدهون، والذي يمكن لك أن تترك الغزال في بيدائه لتستعيض عن لحمه بزوجين من الأرانب مع طبيخ الملوخية، في حين يتوقف هواة لحم الغزال عند الشواء فقط.

والغزال يستوطن في أعداده القليلة الباقية: أفريقيا وآسيا، ومساحة في برامج الاهتمام بعالم الحيوان في السينما والتلفزيون، وبدايات تلقين الأطفال شيئًا من الفنون التشكيلية، في كراسات الرسم. غير أن ثمة «غزالة» ذات شهرة في الشجاعة والفروسية تنام في بطون التاريخ، وتقترب منها فنون الدراما الحديثة (والتي لم تترك حادثًا ذا شأن دون تمثيله حتى الآن فيما أعتقد)، وهي غزالة زوجة شبيب الشيباني، خرجت مع زوجها على الخليفة عبد الملك بن مروان، لتواجه القائد العتيد العنيد الجبار الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي

فر أمامها وتحصن منها، فعيره الشاعر عمران الخارجي بقوله: «أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامة» ـ و«هلَّا برزت إلى غزالة في الوغى»، وقد أوقع بها وقتلها خالد الرياحي في معركة على أبواب الكوفة، وبعدها غرق زوجها، كما أن الغزال يحتاز نهرًا في جنوب السودان، وواحة صغيرة في جنوب مصر. وثمة غزال كان فنانًا تشكيليًّا وخزافًا في العصر المملوكي المصري (القرن ١٥)، وله قطع متعددة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، وقبله يحيى الغزال شاعر وسياسي أندلسي في القرن التاسع، ثم الغزالي ـ أبو حامد أشهر فقيه ومتكلم وفيلسوف وصوفي ومصلح ديني اجتماعي، وقد عاش في القرن الحادي عشر الميلادي، والذي يمتد بمدرسته عبر القرون ليصل إلى الشيخ محمد الغزالي: الخطيب والإمام والمتحدث والمفسر المصري المعروف في العصر الحديث. وربما يكون الغزل ـ أي فن التمهيد المبكر لقيام علاقة دافئة بين الذكر والأنثى ـ يرجع لغويًّا وتكتيكيًّا إلى الغزال ذاته: المبادئ والأسس والمناورة وشدة الحنو ومرونة الملاطفة، والقدرة على التحمل، دون أن يتخلى عن المثابرة والعناد والإصرار الجميل لأنه حيوان جميل وجدير بأن نتعلم منه دون أن نتخلى عن حذرنا منه.

كلمات لها معنى

للجسد قدرة فائقة على أن يعمل بإتقان دون الاهتمام برعونة اللسان.

*

الصباح البهي مثل النقود: يستحسن عدم إفساده بالتفكير فيما سوف يليه.

❊

ليس صحيحًا أن الناس معادن، لا يزال بعضنا غير قادر على التوصيل أو التواصل بالمرة، الأخشاب ليست معادن.

❊

أجمل فنجان قهوة يمكنك الاستمتاع باحتسائه: تقدمه لأول مرة يد جميلة لا تتقن صناعة القهوة أصلًا.

❊

إذا الشعب يومًا أراد الحياة، فعليه أن يقف في طوابير الحضانة والمدارس والجامعات والتجنيد والتوظيف والتموين والمواصلات وإشارات المرور ورخص القيادة والمطارات والبنوك والمعاشات.

❊

كيف ـ بالله ـ يتسنى لعاشق أن يأكل من صحن الملوخية ـ معها ـ في ضوء القمر.

❊

ألم تلاحظ أن أكثر الآلات الموسيقية ترقيصًا للجسد ما كانت إيقاعاتها نابعة من آلات معدنية؟

❊

الرجل الأول الذي تهجره المرأة يصيبك بالألم، الثاني بالسخرية.

❊

هذا الفرق المذهل بين استيقاظ أبنائك من النوم ليلعبوا الكرة، واستيقاظهم ليذهبوا للمدارس، مدخل للندم على توظيف رجولتك.

الفيل

الذلول الطيب الفاشل تاريخيًّا ذو الأنياب الثمينة فنيًّا

الفيل حالة من الوداعة الضخمة الرقيقة، انسابت منذ العصور القديمة حتى وصلت إلى عصرنا المضطرب، يثير في النفس قدرًا مذهلًا من الاطمئنان حتى ولو شابت سيرته أحداث عنيفة دموية وغاضبة. ويكاد يكون الفيل هو الحيوان الوحيد الذي ظل مرتبطًا بالدنيا القديمة ـ وسط أفريقيا وشبه القارة الهندية ـ دون أن يكون له مماثل أمريكي أو أسترالي. وأثمن ما في الفيل ـ قبل الأخلاق ـ أنيابه، المصدر الوحيد للعاج، تلك الأنياب الطويلة المشرعة المهيأة للفتك والبقر والاجتياح والتدمير، لكنها تسامت وتشكلت أصابع بيانو، وكرات بلياردو ومقابض عكازات أنيقة، ثم مادة ممتازة وطيعة، لإبداع منمنمات الصور الصغيرة والأيقونات والتركيبات الدقيقة البارعة في اللوحات الثمينة. ثم شاع أكثر ليصبح أجزاء فاخرة في أريكة عرش الملوك وذوي السطوة وزخارف مذابح المعابد في

جميع الأديان، ثم مقابض الخناجر ومؤخرات البنادق والمسدسات ذات الحظوة عند أصحابها من أساطين الصيد والراغبين في الاقتناء، حيث تكاد كل الحضارات القديمة تكون قد تركت آثارًا عديدة من فنون العاج: مصر وآشور وبابل واليونان والرومان والهند والصين واليابان وقبائل اليمن.

ولعل الفيل هو الحالة التاريخية الوحيدة غير الموفقة: الطير الأبابيل قطعت عليه الطريق حفاظًا على الكعبة المشرفة أيام أبرهة الأشرم، وخطط قادة الرومان حالت دونه ومداهمة روما المستهدفة من القائد الأفريقي العظيم «هانيبال». ومن المؤكد أن ثمة مواقع تاريخية أخرى فشل فيها الفيل لم يهتم بها التاريخ، لكنه ـ حين ننزع عنه عدم كفاءته الحربية ـ نراه حيوانًا رصينًا هادئًا يستجيب لمرح الطفولة، وعبث الصبية، له قدراته الفائقة على تحمل سخف البشر وصلافتهم، دون أن ينسى حقه في الانتقام ـ تمامًا مثل الجمل ـ وإن كان الجمل لا يتحمل الهذر أصلًا.

ويقتسم الفيل كثيرًا من موروث الحكايات القديمة والحديثة المنشأة للأطفال، في الصبر والذكاء والوفاء وحسن الإدراك والثأر والانتقام وهي القيم والمبادئ التي بدأ الإنسان العصري يتناساها، سواء بسبب ضجيج العصر الذي حطم إرادة الفرد، أو لأن الفيل ذاته دخل مرحلة الانقراض لتقوم المحميات بالحفاظ على أفراده الباقية في غابات وسط أفريقيا أو جنوب آسيا، أو في حدائق الحيوان المنتشرة في كل العواصم، وبعض القصور النادرة لمهراجات الهند التي ورثت عصور الإقطاع المندثرة، وتحت خيام السيرك، حيث

يحتفظ الفيل بألعاب السيرك بقدرته الفذة على إثارة الدهشة، وتفجير إعجاب المشاهدين من شتى المستويات ومختلف الأعمار.

ومنظر الفيل - رغم اسوداده - يثير البهجة، وقد زينته الهند وجملته، وأقامت له المهرجانات، واستخدمته في الأفراح والاحتفال بالمناسبة القومية والشخصية والدينية، ثم في إنتاجها السينمائي الضخم حيث حمل لواء الإبهار في ثورته واجتياحه، وفي رصانته وامتثاله، بصفته حيوانها القومي المتغلغل في أعماق تاريخها، وهو ما فشلت فيه الأمم الأخرى - ذات الفيل، أو ذات الخرتيت، أو أي حيوان عظيم آخر.

كلمات لها معنى

ليس كارثة أن يصبح الإعلام المعاصر كالببغاء، الكارثة أن يصبح الببغاء كالإعلام المعاصر.

❋

أي جسد حي لديه قدرته على الإرسال، لكن خيبته الكبرى أَلَّا تكون لديه بعض القدرة على الالتقاط.

❋

في جذورها وصياغتها تقوم العلاقة بين الهواية والهاوية.

❋

أنا مدين بالشكر لبعض الأصدقاء الأوفياء فاقدي الحرارة في الكتابة، لأنهم يسلمونني بسرعة مذهلة للنوم.

❋

إن عظمة الأم تكمن في قدرتها ـ عند تأنيثها ـ أن تصبح أمة بأسرها.

*

هذا الإحساس العابث الذي يحيق بي كلما استعانت بي البنت التي كانت حبيبتي، كي أتدخل في حل مشاكل حفيدتها مع زوجها؟

*

النص الأدبي الجميل له حياؤه الخاص، فلا تكن فجًّا عند استقباله.

*

سوف أعالجك: اذهب بعيدًا بعيدًا، في موقع لا يعرفك فيه أحد، ابحث عن مرجيحة أو حصان خشبي، إذا فشلت أو خشيت من استعمال أحدهما، فلا تعد إلى بيتك مرة أخرى.

*

اتقِ شرَّ من أحسنت إليه، مرة أو مرتين، ثم اقتله في المرة الثالثة.

*

الرفيق قبل الطريق: النقود بالتحديد.

الماعز

نموذج للرشاقة والنشوز والصداقة

يكاد الأدب العربي ـ الشعر والقصة ـ يخلو من هذا الحيوان الأليف الرشيق: الماعز، مع أنه استوطن الحضارات الأولى، واستمتع بلحمه المشوي اللطيف الغزاة والمصلحون والسائحون وعشاق السهر طالبو «النيفة»، و«النيفة» هي الاسم المصري لنوع من «الكباب» يجهز من لحوم الجديان ـ وأشهاها ما كان مع الطحينة المتقنة ـ وعند تخليصه من الدهون فإن لحوم الماعز تضارع لحوم الغزلان والظباء. لكنها ـ هذه اللحوم ـ إن وقعت في يد لا تجيد الإعداد المناسب، فإنها تفقد كثيرًا من طعمها الشهي.

وجميع أنواع الماعز تصبح بالغة المرح والتقافز إذا ما كانت في قطيع، لكنها حين تقع في دائرة الوحدة تمسي ذليلة مسكينة، وحزينة أيضًا. وكثيرًا ما ينقطع فرد منها عن القطيع فيلجأ لقطيع آخر، لكنه يظل مستكينًا استكانة اللاجئين السياسيين، ثم ـ بعد تقييمه للموقف في ضوء القطيع الغريب ـ تتوالى مأمآته العالية المقلقة، استغاثة أو

إثبات وجود عالي الصوت ليشابه المقالات والتصريحات الأولى لمن خرج على حزب أو جماعة وانضم إلى حزب مناوئ، ثم لا يلبث أن يعود إلى استكانته.

وأشهر ماعز في التاريخ تلك التي صاحبت غاندي زعيم الهند ـ وأكثر الزعماء بروزًا في العصر الحديث ـ وكانت برفقته خلال سنوات نضاله الطويل، ولم يرد في كتب الذين تناولوا حياة غاندي شيء عن هذه العنز: هل هي واحدة، أم أنها تعددت وتغيرت حسب تغير ظروف الزعيم، أو ظروف العنزة ذاتها؟ ثم عنز «هانز كريستيان أندرسون» الروائي الدانمركي الذي وضع للناشئة عددًا مهولًا من قصص الغرائب والخرافات، حيث مارست العنز بطولة بعض منها، وعنز جحا ـ الذي اشتهر بمرافقة الحمار أكثر ـ وعنز أحمد عبد الغفار وكان قرصانًا نهريًّا يقطع الطريق على السفن في مجرى نهر النيل بين المنيا وأسيوط عام ١٩٤٦، وفشلت قوات الأمن في الوصول إليه بسبب اختفائه بين أحراش وجبال الضفة الشرقية الشرسة للنهر. وذات مرة ـ عند اجتياحه مركبًا ـ وجد بها عنزًا صغيرة تُسمى في الصعيد «ربعية» أي تجاوزت الشهور الأربعة، عندئذ قام ـ بعد سلب ما بالمركب من أشياء ثمينة وخفيفة ـ باصطحاب الربعية إلى خدره، لكنه لم يستطع أن يتركها أو يذبحها أو يبيعها، لقد أشفق عليها، وكان صوت الربعية هو الذي قاد قوات الأمن للوصول إليه. وقد كانت حكاية أحمد عبد الغفار هذه تُباع في صفحات قليلة مطبوعة بشكل بدائي، بعضها شعر وبعضها نثر ـ وكلاهما من

النوع غير الراقي. ولا أنسى بيت شعر فيها يقول ما معناه: لا بالنار ولا بالحديد استطاعت الحكومة الوصول لخصمها، بل بسبب صوت الربعية، التي كان أحمد عبد الغفار يحبها ويحميها.

غير هذه البطلات من الماعز، لا أجد أثرًا لها في كتاب الأغاني أو ألف ليلة وليلة، أو في الحكايات الموروثة عن عنترة وعلي الزيبق والأميرة ذات الهمة وحسن ونعيمة، وحتى في كتب المدارس يتم التركيز على الضأن من خراف ونعاج دون الماعز، وفي مدينة الأقصر تقف كباش الضأن ذات القرون المخيفة الملتوية على أجناب طريقين: طريق الكباش المؤدي لمعبد الأقصر، ثم بعده بثلاثة كيلومترات: طريق الكباش المؤدي لمعبد الكرنك، ودون أن تجد أثرًا للماعز، مع أن الماعز يتقافز فوق كل مسطحات الصعيد أكثر من الغنم (الضأن) بمراحل.

وترجع كثرة الماعز في كثير من البقاع ـ حتى القاحلة ـ إلى أن غذاءها لا يتوقف عند حدود الحشائش والكلأ والدريس والتبن وأوراق الشجر والحسك (الأعشاب الشوكية)، بل يتعدى ذلك إلى أي شيء هش تجده في طريقها. وفي الغردقة وسفاجا ـ على ساحل البحر الأحمر ـ ستجد قطعان الماعز تتقافز في مناطق لا أثر لأي أخضر فيها، ذلك أنها تتغذى على ورق الجرائد وبقايا العبوات ومواد التغليف والنفايات والقمامة. وتظل ـ دون أي شكوى ـ تتعابث وتتناطح في رشاقة سلسة متناغمة على إيقاع فريق باليه يتراقص في مخيلتك على أضواء عالم يخلو تمامًا من الشر.

كلمات لها معنى

الرجعية: سطوة عقلية تجعلك تتجه إلى شاطئ البحر مرتديًا ملابس تسلق الجبال.

❋

ضربوا الأعور على عينه فقال: «خسرانة خسرانة»، تسطيح أعمى لم يتوغل فور ذلك داخل الجمجمة.

❋

الجيل الواحد: يتكون من جماعة تقوم أسباب تنافرها وعداوتها على حيثيات حية ملموسة غير مفهومة.

❋

لا تأمرني بأن أفعل ثلاثة: الحب، والغوص، واقتحام النار، الرابعة أصعب: الكتابة.

❋

الإتقان: يحول بينك وبين الإمساك بأثر من كحل في عيني أنثى قامت بوضعه أمامك.

❋

ما زلت حتى اليوم طفلًا ألوذ بدفء صدر أمي، أو دفء نص أدبي جميل.

الفأر

من الجحر إلى المسك إلى الكارتون

يختزن العقل الشعبي للفأر موقفًا تاريخيًّا: فعندما رست سفينة نوح ـ بعد الطوفان الشهير ـ على قمة جبل أرارات بالأناضول، قفزت كل مخلوقات السفينة إلى البر عدا الفئران، فقد كانت قد حفرت في متون السفينة وأضلاعها وهيكلها ما لم تقم به كل الحيوانات الأخرى. غير أن أعداء الفئران ـ وأعداء الثورات العسكرية أيضًا ـ لاحظوا أن نفس الفئران ـ (ما زلنا مع سفينة نوح) كانت تقفز من السفينة إلى الماء كلما هبت الأعاصير وأحس راكبوها بالخطر، وتعود إليها فور توقف الخطر، ذلك لأن الفأر يتنسم الأخطار أكثر مما يراها، ولا تزال فئران السفن ـ التي تكون أول ساكنيها ـ هي أول القافزين منها: تعبيرًا مختصرًا عن الذين لا يقفون معك في وقت الشدة، والخونة، والناكصين العائدين من منتصف طرق المجاهدة، وناكري المعروف. لكن القط ـ أعدى أعداء الفأر ـ يشاركه في اللعبة الدبلوماسية التي يدركها الجميع: اعتبارًا من كراسات المدارس الابتدائية، وانتهاء

بالمسلسلات التلفزيونية. والفأر يعم أرجاء المعمورة قديمها وحديثها، حقولها ومصانعها ومخازنها وبيوتها، وهناك أنواع يمكنها تسلق النخيلِ، وهي أول ما يواجهه الرحالة بمجرد الاستقرار طويلًا في بقعة غير مأهولة، وأول خطر يواجه القناطر والكباري والأهوسة (جمع هويس)، ذلك أن قدرة هذه الحيوانات القارضة على إلحاق الخطر بالمباني تقلق بال مهندسي الإنشاءات، ويمكنها أن تصيب الأغصان المثمرة وسُباطات النخيل بأذى كبير. وفي المناطق الشهيرة بصناعة الأثاث ـ مثل دمياط مصر ـ أو صناعة المراكب في مرسيليا فرنسا، تجد كثيرًا من العائلات المتخصصة في إبادة الفئران بالوسائل القديمة: وضع السم في الطماطم، أو بالوسائل الحديثة: تبخير السراديب والشقوق والثنايا المظلمة بالغازات الخانقة.

كذلك يواجه أصحاب المنشآت الميكانيكية: مثل طواحين الدقيق، أو صناديق توزيع الكهرباء، متاعب مع الفئران، حيث تتوقف الآلة فجأة لتتعطل محتفظة بين تروسها أو توصيلاتها الكهربية بجثة الفاعل الدامي. وهذا يتناقض مع ما عرف عن الفأر من قدرته المدهشة على إدراك الأخطار، (ويبدو أنه يقع في المأزق فجأة)، غير أن أصحاب المكتبات والوراقين يجاهدون كثيرًا في سبيل المحافظة على المجلدات ولا تنجو مكتبة من القوارض، كما أن أصحاب اصطبلات الخيول يشكون من قدرة الفئران على إحداث ضرر في حوافر الجياد، ولا سيما تلك التي تركن للرقاد بسبب ظروف المرض أو الولادة.

وللفئران وادٍ أخضر شهير، في وسط شبه جزيرة سيناء، يبدأ من

جنوب أبو رديس على ذراع البحر الأحمر (خليج السويس) ويتجه شرقًا مائلًا للجنوب حتى يصل إلى سانت كاترين، وفيه غابات من نخيل وزيتون وخوخ. وتقف الجبال الشاهقة على حافة وحدود هذا الوادي صانعة مشهدًا نادرًا، غير أني لا أستطيع أن أجزم بوفرة الفئران فيه. وقد أنشأ «شتاينبك» ـ الروائي الأمريكي ـ عملًا خالدًا ومشهورًا هو «رجال وفئران»، وقد نُسجت أعمال لكثيرين من أدباء الدنيا على شاكلته: قوة العقل واصطراعها مع قوة الجسد، كما أن عبقري رسومات الكارتون «والت ديزني» استعار الفأر بطلًا لمعظم أعمال مؤسسته وهو «ميكي ماوس». وهناك مؤسسة أمريكية أخرى صنعت مجدها على التقاتل أو المطاردة الأبدية بين القط والفأر في «توم وجيري»، وتنتشر الفئران ـ ومعظمها مسالم وحكيم ـ في أعمال الدانمركي «أندرسون»، والفرنسي «لافونتين»، كما أن فأرًا أو فأرين تحركا في سخرية داخل قصص «مارك توين»، وأشعار «طاغور» الهندي، وعثمان جلال المصري، كما أن الشاعر الحديث جدًّا نصار عبد الله له حكاياته المستنبطة نظمًا من أخلاق الفأر. ولـ«ألبير» الفرنسي عمل أدبي جميل يقوم على الفأر دون أن نراه هو: «الطاعون»، ويطلق المنظرون السياسيون على أنواع من المباحثات المهمة غير الرسمية وغير المعلنة: مباحثات الفئران. والفأر ـ بعد ذلك ـ هو الفداء الإنساني البديل عند العلماء، ففأر التجارب يتلقى من التجارب المعملية ما يكون المقصود منه الإنسان، وحين تكتمل التجربة ـ قتلًا أو حياة ـ تبدأ دورتها الموجهة إلينا، لا يفلت من هذه المعمليات فأر أبيض ـ فأر الصحاري وفأر الشمال، أو أسود: فأر

القصور وشونة الغلال، أو بني فاتح: فأر الجبال والتلال، أو حتى الفأر النادر الذي يعيش في جنوب شرق آسيا: الفأر الأزرق، وكلها ـ هذه الفئران ـ تجد الجو المناسب لتكاثرها المروع، بعد الحروب وبين أنقاض المدن المنهارة وبين مرابط الخيل، وفي السفارات الأجنبية وفي عيون نهازي الفرص، والحمقى، وطالبي المجد دون أن يمتلكوا ما يؤهلهم للمجد.

كلمات لها معنى

كل حاكم يأتي ومعه طبيب وقائد وحارس وكاتم أسرار وحامل أختام، ومهندس لتصميم أقواس النصر.

*

القرد في عين أمه غزال، فلماذا إذن يتشبث بظهرها؟

*

المفرد: الكتابة، المثنى: العشق، الجمع: الحياة.

*

لا تتعجل فبعضهن يبدون كالصحراء، المعايشة ستكشف لك عن كنوزهن: النساء.

*

سقطت تفاحة على رأس «نيوتن» فاكتشف قوانين الحركة والجاذبية الأرضية، فما الذي سقط فوق رأس «أينشتاين» ليكتشف معادلة صنع القنبلة الذرية؟

القط [مرة أخرى]

في حركته من كونه كان معبودًا حتى أصبح علاجًا

كل هذه الحيوانات مفترسة وأليفة وأجزاء الجسد وأكوام النباتات والظواهر الجوية والموسيقى والماء، تملأ الواحة دون أن يكون فيها قط واحد، وكان لا بد أن يكون في المقدمة منذ سبتمبر ١٩٩٢، إذ لا يوجد موقع به جماعة من الناس دون أن يكون مواء القط جزءًا أصيلًا من عالمهم، ويبز القط الكلب في الألفة والتسلل إلى الفراش الشخصي الشتوي، وكان هرير القطة في صدري إشارة أمان في ليالي الريف ذات الزوابع، ويزعم المؤرخون أن القط الأليف لم يظهر أليفًا وأنيسًا للإنسان إلا في العصور الوسطى من التاريخ الفرعوني، آية ذلك أن مقابر بني حسن (المنيا) تحظى بعدد وافر من رسومات عادات وتقاليد فراعنة العصر القديم، حيث ظهرت كل الحيوانات والطيور المعروفة بألفتها على الحوائط دون القط. كان القط البري النافر (النفور) المتوحش الشرس يكمن على حافة وادي النيل الصحراوية ليهاجم أي مخلوق حي، وهذا القط (النفور)

معروف حتى الآن في الصعيد والذي لا يتورع عن الهجوم على الإنسان الذي كثيرًا ما تتردد حيوانات أخرى مفترسة في مداهمته. وفي قريتنا ـ ديروط الشريف ـ حدث ذلك مرات متباعدة كان من ضحاياها أختي التي تكبرني مباشرة، وقد ترك القط المهاجم من فوق أسوار حديقة الغابة: آثار خرابيش دموية في بطنها وفخذها مع تمزيق ملابسها، ولولا تجمع الناس الذين هرعوا إلى صراخها لكان قد فتك بها. والقط البري المفترس أكبر وأضخم من أي قط معاصر، ويكشر عن أنيابه حتى في حالة سيره العادي، رأيت ذلك في «عالم الحيوان» ـ البرنامج التلفزيوني الشهير، وربما يكون هذا المتوحش هو الذي عبده القدماء قبل عصر الرسالات السماوية، وكان يسمى «شاوس» وتعني المخلوق الكاسح، وهو ما استعاره جبابرتنا الأشاوس اليوم.

وأنواع القطط الأليفة ـ حاليًّا ـ متعددة، أشهرها الفيتنامي الطيب الذي قد يهجرك نهائيًّا ويعود إلى الشارع هائمًا إذا ما وقع عليه اعتداء منك، وهو قابل للتوجيه في النوم وقضاء الحاجة والبعد عن مواطن الدنس، رأيت واحدًا منها عند صديق لا يقرب الأكل إلا إذا كان في طبق، أي أنه لا يقرب ما قد يلقى على الأرض، كما أن القط الرومي يميل إلى المصادقة مصاحبة لحركة صاحبه ـ بعض الكلاب المدربة تفعل ذلك ـ ويشتهر القط ـ عمومًا ـ بالخيانة، ذلك لأن بعض أنواعه لا تقيم وزنًا لأصحابها حين يتشممون رائحة الغذاء (مثل القط: يأكل وينكر)، وفي جميع الحالات يظل الفأر ـ والحشرات أيضًا ـ مهَوى لذة القط، يطاردها في البيوت وعلى الجوائط وفي الحدائق

والمزارع، بل ويحاول التقافز طيرانًا لأعلى كي يلتقطها ويمسك بها في الجو. وفي بلاد كثيرة يحوز القط الرعاية من الناس حتى إنه اقتسم خرافة التوأم الراحل، وخلاصتها أن التوأمين اللذين يعيشان فترة من العمر، ثم يموت أحدهما، فإن الثاني الذي يظل حيًّا يتحول إلى قط ليلي، يسرح هائمًا في الشوارع والبيوت بحثًا عن (نصفه الآخر)، وقدم لي أحد الأقارب ابنه التوأم ـ وهو طفل ـ الذي عاش دون الشق الآخر الذي هو أخوه الراحل، وكشف لي عن رقبته ورأسه لأرى الخرابيش الواضحة الناجمة عن العراك الدائم مع القطط الأخرى، كما أن ثمة خرافة أخرى ترتبط بالزوجة العقيم التي تلد في سن متأخرة، إنهم يراعون المعاملة الطيبة الحنون ـ والمبالغ فيها ـ لما قد يكون موجودًا من قطط في المنزل ساعة الولادة، إن القط هنا حارس الأرواح. ولعل ذلك راجع إلى الأحقاب المصرية القديمة التي كان فيها هذا الحيوان معبودًا، حتى إنه كان اسمًا لوالدة أحد وزراء الملك أمنحتب الأول: نعم اسمها «قطة»، وكان ذلك وراء كثير من التماثيل الصغيرة والعديدة التي اكتشفت في معبد القطة بمدينة بوباسطة (تل بسطة الشرقية)، ولبعض هذه التماثيل جسم امرأة ورأس قطة، ويمثل بعضها قططًا آدمية ترضع قطيطات عادية، وبعضها كان في صورة الملكة منتصبة القامة ولها هيبة ووقار، وهي جالسة على عرشها متحلية بالجواهر وعلى أهبة الوثوب أو الهجوم. وكانت هذه التماثيل ـ التي يحتفظ المتحف المصري القديم ببعضها ـ من البرونز، وذات تشكيل متقن، قطعة فنية رائعة ـ كما يقول «جورج

بوزنر» وزملاؤه واضعو كتاب «معجم الحضارة المصرية القديمة»، والذي ترجمه أمين سلامة.

والقطة مشهورة بانزعاجها على ولائدها، تنقلها ـ فور الولادة من موقع لآخر، ثم يؤدي بها الاضطراب إلى التهامها، ورأيت أمي وهي تحمي القطيطات من تلك الحالة الدموية النابعة من الحب الدموي القوي العارم أصلًا، كما أن كثيرًا من القطات الوالدات قد تفتك بذكرها بعد الولادة حينما يحاول مداعبة أبنائه منها، يظل القط نائمًا قريبًا من المخبأ وعيونه متوجهة نحو أولاده دون الاقتراب أكثر. وفي الحقيقة القائمة على التجربة فإن كون هذا النوع من الحيوانات في حجرك أو تحت لحافك ـ في البرد ليلًا ـ يثير في النفس قدرًا مذهلًا من الحنو والحب والإشفاق، يصلح جزء منه ـ ولو قليل ـ للتصالح الجميل مع العالم.

كلمات لها معنى

السلالم صنعت للصعود، لا تنس أنها تؤدي مهمة الهبوط أيضًا.

❊

قيمة الزفاف الحقيقية أنه يحدث لمرة واحدة، سلوان جيد للفقراء.

❊

الجرذان لا تجيد تناول الطعام في الهواء الطلق.

❊

سيظل اللص خفيف اليد: خفيف الدم أيضًا.

❊

صعود السماء لا يحتاج منك إلى صاروخ أو مركبة فضائية، بل عقل واسع الآفاق حتى ولو كنت أسير الفراش.

❋

كلاهما يسبب الذهول: عدم الفهم، أو الفهم الأعمق.

❋

الإدارة علم، رجاء عدم إلغاء الموهبة.

❋

جمال ملامح وجه الأنثى صُنع أصلًا من تكوينات ساقيها.

❋

بيض الأسماك أثمن من بيض النعامة.

❋

البيت لا بد له من جدران، من دونها يكون من الخرائب، إني أقصد الشعر الحديث جدًّا.

الأرنب

مجمع لأدوية علاج معظم الأمراض المعروفة

ينعم الأرنب بموقع ممتاز في ثقافة الأطفال: حكايات ورسمًا وتشكيلًا من البلاستيك، وموعظة الأرنب السريع الذي تكاسل في سباق الجري ـ أو صعود التل ـ بينه وبين السلحفاة البطيئة، مما أدى إلى فوز هذه السلحفاة، حكاية معروفة، وقد استقرت من عصور في قلب الحكايات المدرسية، في العالم كله، وهو ما أدى إلى عدد معقول من الأرانب القصصية التي تحتك بالثعالب والثعابين والسباع والحمير، حكايات جحا ـ الشهيرة ـ تخلو تمامًا من الأرانب، مع أن ثمة أرانب تقافزت في حكايات كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة، وكان من المفروض على جحا ـ بصفته الأحدث ـ أن يتأثر بهما ويستعير بعض أرانب حكاياتهما.

ومثل القوارض: تلد الأرنبة أربع مرات في العام، ويتهم العالم الثالث ـ الثالث رمزًا حيث لا يوجد عالم ثان ـ بأنه عالم الأرانب بسبب التوالد المفرط، والأصح أنه عالم فئران لانخفاض نسبة الفَائدة في المواليد. وتتعدد أنواع الأرانب المنتشرة في العالم كله:

أرانب المستنقعات والأرانب قطنية الذيل في السهول الأمريكية، وأرنب أنجورا الذي يربى لإنتاج الشعر (الوبر) المستعمل في صناعة المنسوجات الثمينة ـ في أوروبا وأمريكا، أرنب بوسكات (يصل وزنه إلى خمسة كيلوجرامات) ذو العيون القرنية ولونه الأبيض الصافي، ويربى لإنتاج الفراء واللحم، وله مزارع شهيرة في جميع أنحاء العالم، وهناك أيضًا الأرنب البري ومنه أنواع في الصحاري العربية، ويعيش في مصر على حافة التقاء الصحراء بوادي النيل، أما في الصحراوات المصرية فهناك الأرنب الجبلي ـ كثير الإنتاج ومتوسط حجمه كيلوجرامان، كما أن أنواعًا أخرى محسنة أنتجتها معامل ومزارع كليات الزراعة في مصر أشهرها «أرنب جيزة أبيض» لونه أبيض وعيونه قرنفلية، وتصل أوزانه إلى أربعة كيلوجرامات. ويشارك الأرنب الغزال في طيب مذاق اللحم، وفي السرعة، كما أن مشهد الأرنب المستغرق في تحسس الأعشاب مع إحساسه بالأمان، يشد عين الرائي، غير أن العادة القادمة إلينا من الأسلاف جعلت من الأرنب هدفًا لسهام الصيادين ومخالب الصقور، كذلك فلا تزال بقايا طبقة النبلاء في أوروبا يطاردون الأرانب البرية بكلاب الصيد، وهي المتعة الباقية بعد أن تلاشت أنواع من الحيوانات كانت مفضلة لديهم عن الأرانب. وهو ما جعل الأرانب ـ أيضًا ـ موضع اهتمام المعالجين لأمراض البشر ـ الهواة بالذات، إذ إن لحم الأرنب الممروق في العنبر والقرنفل يساعد في تطهير الجوف من الحمى، وقلي لحم الأرنب مع مجروش الكسبرة والزعفران ـ والقرنفل أيضًا ـ يسلم الشخص القلق المسهَّد لنوم طيب، وفي عرف هواة العلاج الشعبي أيضًا: أن

إدمان أكل لحم الأرانب يقطع البواسير ويحول بين البرد وإصابة البدن. ووبر الأرانب يحبس الدم أينما كان ـ أي يمنع النزيف، كما أن شفة الأرنب العليا (تذكر أنها مشقوقة) تصلح علاجًا لما يصيب مثلها شفة الإنسان إذا ما ظل يلوكها فترة، ومعالجة رأس الأرنب بدهن الدب (!) يُصلح شأن الثعلبة ـ أي تساقط شعر الرأس، فإذا أضيف إليه العسل كان ناجعًا في معالجة الاستسقاء، وأنفحة الأرنب (المقصود بها جزء من المعدة به أنزيمات مؤثرة في الهضم) يضاف إليها الخل لتعالج الصرع، كما تعالج انحباس اللبن في ثدي الأم، وكذلك السموم، وفساد المعدة. أما مرارة الأرنب ـ إذا خلطت بدم الأرنب مع قليل من الزيت ـ فإنها تجلو آثار الإمساك وتصلح من أمر الغازات وتريح الأمعاء، وتتسبب في نزول الحصى، وتسقط الأجنة وتساعد على الحمل في العاقر وتفتح انغلاق الأذنين، وتعيد ما ذهب من شم. وأصارحكم بأن ما ورد عن الأرنب كثير في كتب الأقدمين، حتى إني تصورت إمكان قيام كلية للطب تختص بالمعالجات التي يقدمها الأرنب ـ بجميع تفاصيله الداخلية والخارجية ـ للأمراض، في تذكرة داود أربعة وثمانون مرضًا فقط.

كلمات لها معنى

بالصبر يلين لك الحديد، على الأقل تكون قد نسيت الموضوع كله.

*

إنها اختلافات بسيطة بينك وبين زوجتك كما ترى: معظمها في

الأكل والعادات والاهتمامات ووجهات النظر، لكنكما متفقان في الدين والجنسية وغسل الأيدي قبل الأكل وبعده.

*

حاذر أن تلتقي أكثر من رئيس تحرير في يوم واحد، كارثة.

*

كيف أيها السادة نفسر ظاهرة أن كل لغات العالم تربطها أدوات الجر؟

*

الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يستعير إنسانًا مثله ليصبح ذيلًا له.

*

الأمومة الأولى تمنح وجه الأنثى جمالًا فائقًا، يبدأ في الذبول والانهيار خلال الأمومات التالية.

*

تراجعت وحدي فقاموا بالهجوم عليَّ، وتراجع غيري بالجيوش فلم يتكلم أحد.

*

ذكاء المرء محسوب عليه، إذن فالغباء أفضل.

*

الأخلاقِ الكريمة تساعدك على الاعتقاد الوهمي بأنك ذو أخلاق كريمة، فتتعذب وحدك.

القنفذ

المختفي في ليل الصحراء، والمنتصر الدائم على الثعابين

نادرًا ما نرى القنفذ في بلادنا، غير أني لمحته خلال زيارة عابرة لمدينة مرسى مطروح أقصى الشمال الغربي لمصر، كما أن زميلًا كاتبًا ـ في منطقتنا صرخ مشيرًا إلى حيوان يقطع عرض الطريق ليلًا: «فأر.. فأر»، فضحكت ابنتي ساخرة بأن هذا قنفذ وليس فأرًا، وحينئذ ثارت في الذهن قضية مرهقة، إن أدباء عديدين يكتبون الأدب ـ القصة بالذات ـ معزولين عن الواقع، أو دون دراية بالواقع، لقد كان منزله يبعد عن الموقع الذي حدث فيه ذلك بعدة أمتار!

بعدها أحسست برغبة عارمة أن أرى القنفذ، كنت أحس أنه ـ بأشواكه ولؤمه وخبثه ـ يرتدي معطف خفراء أو يندس بين أوراق سكرتيري المديرين، أو يتحلل مزقًا وقطعًا من شهوات العدوانيين، أو يختفي ـ لغة ـ في قصائد ومقالات المبتزين، أو هو الجهاز العصبي للذين يحيقون بالوطن الألم، وقد ـ يكون ـ القنفذ نخاعًا شوكيًّا للضباع والناهشين في سيرة الأبرياء.

وفي رحلتي الأخيرة بين تكوينات الصعيد، وجدت نفسي ضيفًا على جماعة من الغجر، عاملوني ـ أول الأمر ـ بتوجس فظلوا شديدي الحذر، أقوالهم وحركاتهم منفوشة كالأشواك، غير أن الاقتراب الأكثر منهم أذاب الأشواك الحادة الصلبة ليعودوا في الشكل المطلوب تمامًا: شديدي الألفة والكرم والمرح، كان القنفذ لا يزال في عقلي، وبعد أن احتسيت الشاي في مضربهم المؤقت الذي يقيمون فيه، (أجمل شاي شربته في حياتي)، أبرزت رغبتي: أن أشهد قنفذًا. هكذا ثارت الرغبة دون مبرر ظاهر، فتهامسوا وتضاحكوا ثم جاءوا به ـ أي بالقنفذ، ويدعونه «أبو أذن» ذو رأس قصير وخطم (منطقة امتداد الأنف والفم) متوسط الطول ومدبب، والأذن بادية الكبر والاتساع وبيضاوية لها طرف مدبب، والذيل قصير قليل الشعر، وتغطي الأشواك كل الجسم في خطوط طويلة ممتدة حتى الجبهة والأذنين.

خلال اندهاشي لرؤية هذا القنفذ بدأ أصدقائي يعودون للتهامس، وكأنهم إمبراطور روماني يود إسعاد ضيفه، وجاء أحدهم بثعبان مرعب، ألقوا به على الأرض فأثار في النفس رعبًا لذيذًا وممتعًا. وفور أن وقع نظر القنفذ على الثعبان حتى ازدادت أشواكه انتفاشًا، دار القنفذ حول الثعبان عدة دورات (شاهدت من قبل مثلها بين الكلب والقط وإن اختلفت التفاصيل)، كانت المسابقة بين محيط الدائرة «القنفذ» والمركز «الثعبان» تصل إلى المتر حينئذ قفز القنفذ قفزة صارخة ليصبح قريبًا من الثعبان، وكان خطمه قد انكمش للخلف ليكون في حماية الأشواك المشرعة، ثم بدأ القنفذ يزحف على بطنه،

ومتى اقترب منه انقض عليه ـ مرة أخرى ـ في سرعة وحذق، وأمسك بالثعبان من نهاية الذيل، والتوى الثعبان بأنيابه البارزة محاولًا أن يلتهم القنفذ، لكن الأشواك تحول دون ذلك، حيث يعود القنفذ إلى الخلف بسرعة ويظل ساكنًا فترة، وما يكاد الثعبان يعيد ترتيب نفسه حتى يهاجمه القنفذ من الخلف بنفس الطريقة من جديد. هذه الطريقة التي قد تكون تجاوزت المرات العشر، حيث ـ آخر الأمر ـ يقفز القنفذ قفزة شوكية واضحة القوة، ليتشبث برقبة أو رأس الأفعى ليظل ضاغطًا حتى تتوقف حركة الثعبان تمامًا.

ويرد القنفذ ـ بالذال دون الدال ـ في المعجم الوسيط، وفي الموسوعة العربية الميسرة أيضًا، لكنه عند علماء الحيوان من أساتذة الجامعات يرد بالدال ـ ويتكرر كثيرًا حيث يبدو أن ذلك ناجم من تبادل الدال والذال موقعهما في بعض الأحيان عندنا ـ أي في اللغة العربية، وهو حيوان ثديي يأكل الحشرات، شديد النشاط ليلًا ونادرًا ما يشاهد نهارًا، كما أنه يكمن شتاءً كالثعابين والضفادع وأنواع عديدة تستوطن أوروبا وآسيا وأفريقيا. والقنفذ المصري نوعان: واحد يطلق عليه الحبش، والثاني هو الأذاني ـ والذي كان بطلًا للمعركة السابقة مع الثعبان، كما أن نوعًا ثالثًا: أبيض البطن كان منتشرًا جنوب مصر في القطاع النوبي قبل بناء السد العالي.

لكن علماء الحيوان يذكرون أنواعًا عديدة من القنافذ منها داكن الظهر، والشعري، والأوروبي، وفي جميع الحالات فإن القنفذ يميل إلى الانزواء والبعد عن مواقع الكثافة السكانية. وبعض فصائل الغجر تصَطاده ـ خلال تجوالهم الدائم والمعهود ـ ليكون جزءًا من لعبة

يثيرون بها متعة الناس تكسبًا، تمامًا مثل ألعاب الثعابين والعقارب والسلاحف (وهذا لا علاقة له بفصائل استخراج الثعابين) لكنني لم أشهد ذلك إلا حين زرت مضرب الغجر، كما أن القنفذ لا يرد في المعهود من تشبيهات ومجازات الناس في حدود علمي، إلا إنني لاحظت وكنت صبيًّا أن أمي حاصرت أخي الأصغر بالعصا، في ركن، واتهمته بأنه كالقنفذ يصيب بالأذى كل من يحتك به، مع أن أخي هذا طيب جدًّا ونلوذ به دائمًا كي لا يستمع إلى شكوى الآخرين من أذى يلحق بهم حين يقتربون منه.

كلمات لها معنى

ضروع الأبقار ليست هي الأبقار، لكن الوصول إليها يستوجب رضا الأبقار.

*

الأماكن الصخرية التي تختارها الغزلان لنومها: بالغة النعومة.

*

السلام ليس توقفًا ظاهريًّا عن الحركة، إنه اقتناع نفسي يلزم الوجدان بالهدوء.

*

حتى ذات اللبن يصبح له طعم لذيذ إذا تذوقته خارج المعامل، كانت تفحص معي تفاصيل علاقتنا.

*

النوافذ لم تصنع أصلًا للتنفس، بل للمشاهدة.

❊

أظل شديد الشوق إليها، وما أكاد أسمع ـ في التلفون ـ تميز صوتها المستيقظ تثاؤبًا وخمولًا حتى يتبخر الشوق ضيقًا.

❊

يتخلص الناس من النخالة والردة بفصلها عن الدقيق، ثم يعودون للبحث عنهما تنفيذًا لتعليمات الطبيب.

❊

الكارثة الطبيعية أن يكون في ذهنك رغبتك أن تثبت أن الإنسان حلقة في سلسلة البشرية يعلوها القرد.

الخفاش

الأسطوري المرعب المداهم للرقاب والدم والآمال والخيال

منذ وعيت على الدنيا والخفاش يتطاير ويلف ويدور في سرعة صاروخية أمام عيوني وفي ذكرياتي وفي عز نومي. وكنت ـ وأنا صغير ـ أخترق قريتي ـ ليلًا ونهارًا ـ دون وجل من كلاب أو دواب أو لصوص، لكني حين أصل إلى بيت مختار شلقامي يداهمني الاضطراب، والرعب أيضًا. كان البيت خاويًا شاهقًا دون استكمال، ما يكاد الغروب يلمس حوائطه مستأذنًا كي يحط الليل، حتى يبدأ هذا المشهد الذي يفح بالوطاويط غير المرئية، مجرد دوائر لا تكاد العين تراها حتى تتبدد، والصوت الشيطاني ينتشر في دفقات مثل الوخز. وكنت أتصور أن الأمر سينتهي بمجرد الانقطاع عن الموقع، أو حتى عن القرية ذاتها، لكن الوطواط ظل هذا الحيوان الغامض الوحيد القادر على الطيران، والذي انسحق

داخل الأعصاب كامنًا في كل مناطقنا المظلمة، والتي تهيمن على كثير من معتقداتنا الشعبية، دمه حين يخلط بمسحوق ورق السنط (شجر الحراز) المغلي، يمنح العريس شجاعته المفقودة، وحين يمزج بشعر الكلاب المحروق، ويرش منثورًا في طريق الذي سوف يتزوج حبيبتك، فلن يعود إلى هذا الطريق مرة أخرى (وماذا حين تتعدد الطرق وتتصل سطوح البيوت؟)، وحين يوضع من هذا الدم بضع نقاط على عصعص المصابين بالنقرس، فسوف تتحقق أمنيتهم في القدرة على السير (والعصعص هو آخر نقطة أسفل الحبل الشوكي). لكن أكثر الوصفات غموضًا، أو إدهاشًا، تربيط منتصف جسد الأطفال المصابين بالكساح بقماش يحوي وطواطًا كاملًا بدمه الطازج، مع مراعاة أن يتم هذا التربيط في الظلام الدامس دون أي بصيص من النور، واضح أن الشرط المتصل بالظلام الدامس يعني إقرارًا باستحالة الحصول على وطواط حقيقي!

ومع أن السينما والتلفزيون وآلات إزالة الجهل الأخرى نجحت في مطاردة كثير من أمثال هذه المعتقدات إلا إن الأمر اختلف في الخفاش، فقد أقامت للخفاش أطلالًا وخرائب وكهوفًا، وصنعت له حكايات وأفلامًا يتلبس فيها أجساد البشر، ويداهم فيها الأبرياء والمرعوبين، يمتص دمهم ويقتنص أفئدتهم، ويقتطع قلوبهم من الجوانح ليطير بها إلى مكمنه البعيد الغارق في الظلمة الشريرة. شكل من اللعنة المعاصرة اجتذبتها الفنون الحديثة من الجمجمة

المبكرة أو البدائية للبشرية، ليعود الوطواط قويًّا شرسًا متألقًا بأنواع الإخراج الفني ذي الموسيقى الضاجة التي تهز كل اطمئنان، هو التطور الذري وهو التفجير النووي وهو الخراب العصري، وهو الإنسان الضال ذو الأجنحة اللحمية والرأس الثعلبية، الذي يزلزل القيم والاقتصاد والأسهم والثقافة والسندات والتعليم والمضاربات.

ويمتاز الوطواط ـ عن غيره من الكائنات ـ بأنه رمز الشؤم والخراب، يشاركه في ذلك طيور البوم (أم قويق) في الشرق فقط، ذلك لأن البوم في الغرب يتخلى عن رمزه هذا ليصبح هناك إشارة متفائلة. لكن الخفاش وحد الرمز والمشاعر والإحساس في كافة الحضارات، ولا تكاد أمة أو جماعة بشرية إلا ورأت فيه ما يراه الجميع فيه، شر الليل، مصاص الدم، إبليس الطائر، الكابوس. وحين كنا نعمل في السد العالي بأسوان، جاء أفراد من قبيلة البشارية يستطلعون، كانوا ينامون وقد لفوا رقابهم بقماش غليظ، حماية للرقاب من مداهمة الخفاش، الرقاب فقط، حيث لا يهتم هذا الحيوان بباقي الجسد، فيما نعتقد ـ أو يعتقدون.

كلمات لها معنى

كلما طلبت من أحدهم أن يمعن في حياته وهو يتكلم عني، تلجلج ولاذ بالصمت.

*

المسألة بسيطة: ضع جنيهًا أمامك وانظر إليه، نصيبك منه أقل من نصف في المائة، من ٥٠ عامًا كان كله لك.

*

بعضنا يحمل آباءه وأمه وأجداده، فوق كتفيه حين يقترن بالعروس، من أول ليلة حتى الطلاق.

*

النص الأدبي الصادق الموهوب: قادر على أن يجذب العقل ويداعبه في الفؤاد.

*

حسن النوايا لا يصلح لعبور الطرق الطويلة.

*

ليس الوشاة والنمامون والعواذل الذين فعلوها فيكما، إنه «سيجموند فرويد».

*

يا طول تلك الحيثيات المتطاولة التي تود أن تقنعنا بصحة التفاف حبل حول رقبة.

*

الأهداف لا تحددها الرغبات، بل عيون الشباك التي تلقيها سعيًا وراءها، مثال: انظر لوجه زوجتك.

*

المهازل تعطينا فرصة ثمينة كي نستخدم أقوال الحكماء.

*

لكل صديق كلكل مثل الجمل، يضاغطك به كي يقتلك في حب حميم، الأعداء لا كلكل لهم.

*

الفن الجميل كالسعادة، يدمرهما عقل يفتقد اللماحية والذكاء السريع.

الكلب [مرة ثالثة]

الكلب حيوان أهلي من الفصيلة الكلبية ورتبة اللواحم، يربى للصيد أو الجر أو الحراسة، وهكذا قفزت فصيلة الكلاب العربية فوق أسوار القواميس والمعاجم والتعريفات العلمية دون صيد أو جر أو حراسة، فهي هائمة في الطرقات والساحات فرادى وجماعات. وكل ما تستطيع ـ غير النباح الأهوج الذليل ـ أن تتجمع حول كلبة تبصبص بذيولها دون مراعاة لمشاعر الجماهير، مع أن الكلب هو من أصدقاء الإنسان، تراه قد أخذ شكلًا متميزًا في رسومات المعابد المصرية القديمة، ولا أعرف إن كان قد عُبد كإله أيامهم مثل القط وابن آوى والقرد والثعلب وأبو قردان، وإن كنت أؤكد أنني رأيت الكلب مرفوع الأذنين مبسوط القدمين في الآثار القديمة، ذلك أن صديقًا سرق الكتاب المختص بعبادات الأقدمين من فترة طويلة، وللكلب وظائف كثيرة قد تخرج من دائرة التعريف العلمي الضيق، في التجسس وحمل الرسائل في الحرب، ومؤانسة العوانس أو اللاتي فقدَ الرجال حماسهم لهن، والألعاب المسلية في السيرك، وقيادة

ذوي البصر الكليل، أما كليب سيد ربيعة فقد كان الجرو ابن الكلب وراء مأساته التي ضاع فيها هو ونسيبه جساس بن مرة في حرب البسوس التي دامت أربعين عامًا، وكتب المدارس تعلق هذه الحرب في رقبة ناقة البسوس دون تمحيص، وأجمل تمثال لكلب ذلك الذي أبدعه محمود مختار للحارس وكلبه، وكان اللوردات ـ ومن شابههم ـ في أوروبا يقتنون نوعًا من كلاب الصيد يمكنها اقتناص ما يقع لهم من صيد على مسافة كبيرة وسط الأحراش، ونحن لا نعرف هذا النوع من الصيد أو الكلاب في بلادنا، إنما نعرف بعض الكلاب البشرية التي تقود المباحث إلى أوكار تجار المخدرات أو بيوت المفكرين والمعارضين، وأخطر الكلاب العربية النوع الأرمنتي ـ المنتمي لمدينة أرمنت جنوب قنا، ويتسع صدر دائرة المعارف البريطانية فيفسح لكلب أرمنت مساحة تجعله من الكلاب الثمينة: شرس، أشعث، وكث الشعر، إردوازي أو أزرق داكن، عرف بضراوته وعبوسه، ضخم الملامح، مستدير الوجه، قصير الخطم، حاد البصر، وما إلى ذلك من صفات نفخر بها، والكلاب الضالة صفة لمن يؤدون خدمات غير مريحة لأي نظام ثم يتخلى النظام عنهم، ومن الأقوال العصرية.. الكلاب تنبح والقافلة تسير. ولا تزال الكلاب تنبح مع أن القافلة ساخت أقدامها في الرمال، وتزخر الكتب بحكايات عن وفاء الكلاب وإخلاصها لأصحابها حتى إن عددًا كبيرًا منها قضى نحبه بجوار قبورهم أو جثثهم أو أماكن لذاتهم، ولا يحتل الكلب موقعًا أدبيًّا متميزًا إلا في ثلاث روايات، كلب في مدخل الميناء لأحد كتاب أمريكا اللاتينية لا أذكر اسمه، وكلب آل باسكرفيل للسير «آرثر كونان دويل»،

مخترع شخصية «شرلوك هولمز»، وكلب آل مستجاب التي وفقت في نشر بعض فصولها ثم لا تزال الرواية مركونة في انتظار نوع من الهمة المفقودة، أما كلب الماء فهو حيوان ثديي من فصيلة ابن عرس. وكلب السمك نوعان: واحد في البحر وهو سمك القرش وله ولع بالدم، وواحد في النيل له بوز طويل ويستخدم في صناعة الملوحة وأرشال والفسيخ، أي السمك المملح.

والكلابوة عائلة في ديروط الشريف ـ من أعمال أسيوط، لا يصلحون للزراعة أو الحراسة أو الهندسة أو القيادة أو أي أعمال معروفة، وقد تناقص عددهم حتى بات أقل من عشرة أشخاص، ومنهم تزوج عمي الأوسط وأنجب وريثه الوحيد بعد تعدد زواجه دون أن تعيش خلفته.

والكلب «هول»: كلب بوليس من نوع الوولف على درجة عالية من التدريب واقتفاء الأثر، كان له شأن كبير أيام أن كان للحكومة شأن كبير، والكلبيون مدرسة فلسفية يونانية تتبنى الغلظة والشراسة في نقد سلوك الآخرين، والفضيلة عندهم أعلى من مراتب المال والشرف والحرية، وفي اللهجة الدارجة: الكلعون اسم للكلب، أي النمرود المتنمر قليل الوفاء لصاحبه والذي لا يخلو جلده وشعره وسلوكه من وسخ، والكلوبة هي خلاصة صفات الكلب، ومنها قولي: فقدت الكلاب العنصرية كلوبتها وبدأت تقفز فوقها الذئاب وتعابثها الثعالب، أما الكلَب ـ بفتح الكاف واللام ـ فهو داء عضال يصيب الإنسان والحيوان المعقور من كلب مسعور، وأهم مظاهره (رَهاب الماء) حيث يخشى المصاب الماء ويصيبه اضطراب وهذيان

لمرآه حتى يقضي نحبه، وقد نجح عالم فرنسا باستير في استحداث علاج له. والتكالب حالة تضطرنا الحاجة إلى الإصابة بها فنقف في طوابير الخبز أو الدجاج أو المجالس الشعبية، والكلابة ـ على وزن تجارة وصناعة ـ مهنة يقوم بها بعض الزاعمين بأنهم من المعارضة، والكلبة: أنثى الكلب، ولها موقع ممتاز في قانون العقوبات والتعويض إذا ما سببت أو شتمت بها أحدًا في عتاب أو شجار، وهي تشترك في ذلك مع أنثى الأسد (اللبؤة دون الأسد نفسه) وخلاف ذلك أن تسب من تريد بالنمس أو الثعلب أو النمر أو القط أو الذئب أو الفيل أو الخرتيت فلا عقاب مؤكد لذلك، أما السب العلني بلقب الحمار أو الحمارة فهو جانح سياسيًّا أكثر منه سبًّا اجتماعيًّا، أي أنك تحاسب على المقصود بالحمار دون الحمار نفسه، ورجوعًا إلى الكلب فإن ابن سيرين المفسر الكبير للأحلام العربية ينبهك إلى أن الكلب إذا ظهر في حلمك دون أن ينبح فسوف تقع في حسد الآخرين، فإذا نبح الكلب وعقرك ـ في الحلم ـ فمعناه في الواقع أن صديقًا يخونك في العمل أو البيت، فإذا استيقظت قبل أن يعقرك فإن الله سوف ينجيك من مكيدة. فإذا نمت ثانية فستعود المكيدة إليك ولو بدون كلب، بعد ذلك تصبح الإشارة واجبة إلى صوت سيده ذلك الكلب المرسوم على الأسطوانات وبعض الكتب والإذاعات، والله أعلم.

الضفدع

قائد الأوركسترا ذو الفأل الحسن وصاحب النقّ الأدبي

دفعني خيالي الريفي أن أتصور أن وجود الضفدع مرتبط بالريف، وبالجداول، وبالماء العذب، وبالمستنقعات، واعتقدت فترة أن نقيق الضفادع جزء من الجو الريفي، غير أن الأمور تسير في غير ما تخيلت وما اعتقدت. لا يوجد موقع يخلو من ضفدع، يطل عليك من المربع التلفزيوني الملون يقرأ نشرة الأخبار، وأحيانًا تكون ضفدعة ذات دفقات صوتية معهودة، توضح الطريقة التي يمكن بها تنظيم المطبخ الحديث، ولا تستبعد أن تكون للضفادع خبرة في الاهتمام بالنقد الأدبي. إن نقاد الأدب يمارسون «النقّ» جنبًا إلى ممارسة الضفادع للنقيق، فالنق ثلثا النقد، ونعجز كثيرًا عن الفصل بينهما، والعلاقة المعاصرة بين النق والنقد عضوية جدًّا، فالضفدع ما يكاد يخرج من طور أبو ذنيبة، ويتلاشى ذيله ـ أو ذنبه، وتتسع حنجرته، حتى يمتلك لحنًا صوتيًّا محددًا، قد يكون مغايرًا لغيره من النقاد، لكنه لا يغير ولا يعدل في لحنه أبدًا، لا يبدله ولا يطوره، قد

يتوسع فيه إذا ما اتسعت المستنقعات والندوات والمؤتمرات، وقد يضيف امتدادًا أو يبتر جزءًا، لكنه يظل محافظًا على اتساعه وعمقه ومجموع ذبذباته، ولو في الحالات التي يتراجع فيها النقد أمام لحن الرغبة في التكاثر.

أجمل ما في الضفادع قدرتها على إحداث الهارموني في النقيق الجماعي متعدد الدرجات الصوتية، وهو ما يذكرك فورًا بالفيلم الشهير الذي صاغه والت ديزني: هذا الذي يقود فيه ضفدع رصين أوركسترا عازفي الضفادع الموزعة على آكام وجُزَيْرات مستنقع أخضر ظليل، مع المشاركة الصوتية من جميع حيوانات وطيور الموقع: غربان وحدآت وقطط ودواجن وسناجيب (جمع سنجاب)، ومشهد الضفدع القائد الممسك بعصا القيادة ـ مع ارتفاع وانخفاض صدره تبعًا لتطور اللحن ـ الذي تتحرك أو تنفجر الأصوات تحت إشاراته، يشابه «فان كرايان» أشهر قادة الأوركسترا، الذي رحل عن عالمنا منذ شهور.

وأخطر أعداء الضفادع: الثعابين ثم الكلاب، وفي أقطار أوروبا تقوم جمعيات حماية الحيوان والمحافظة على البيئة برعاية الضفادع من كوارث ردم المستنقعات وإنشاء الطرق وإقامة المباني في الخلاء، حتى إنها ترتب للضفادع من يحميها حتى أثناء هجرتها المنظمة وعبورها الطرق، وهذه الحماية تشمل جميع أنواع الضفادع، المعهود منها والغريب، كضفدع الشجر، والضفدع الثور، والعلجوم ـ الذي هو نوع من الضفادع ذات الجلد الجاف ـ مع أن اسمه الأصلي ضفدع الطين.

وللضفادع مزارع في أوروبا وفي بعض المناطق الأمريكية والأفريقية، لها اتصالات بالمطاعم الشهيرة حيث يستحب لحمها، غير أننا في البلاد العربية لا نستسيغ ذلك ـ على الأقل حتى الآن، مع أن بعض مزارع الضفادع أنشئت في مصر في الحقب الأخيرة لمن يرى استثمارها في معامل المدارس والمعاهد والكليات والمؤسسات العلمية، لا سيما أنه كائن يمكن الاحتفاظ به دون وجل.

والضفدع حيوان برمائي مسالم ـ وإن كان بعضه سامًّا ـ يوجد بالمياه العذبة والأحراش والأحراج، أملس الجلد أخضر اللون ـ في الغالب أو بني، وهناك الضفدع الأبقع ذو الإفرازات المهيجة أو السامة، ولا يعيش عندنا، وينبت معظم أنواعه من البيض المهجور في الطين، وتضع الأنثى البيض في باكورة الربيع ـ وقت أوج النشاط الصوتي للضفدع الذكر أيضًا، وتعيش الضفادع على الحشرات والديدان عن طريق لسانها اللزج الطويل المشقوق (القناص).

والضفادع تفرح بالمطر، تنصت أولًا إلى بداية سقوطه، وحين تطمئن إلى أن المطر ليس حيوانًا مداهمًا، يبدأ واحد من أكبر الذكور في إطلاق «الميلودي» الخاص به، وفي العادة يكون أجش منخفض النبرات، ويتجاوب معه ضفدع آخر، وعادة ما يكون من مكان بعيد، أو في أقصى أبعاد البركة أو المستنقع، ثم تبدأ الأصوات الأخرى في العزف قوية متداخلة. أكاد أزعم أن بعضها ينتظر فرجة اللحن كي يبدع فيه، وبعد أقل من دقيقتين: تكون الأوركسترا قد استكملت النَوتة ـ والهارموني أيضًا.

وللضفدع تراث «إنساني» قديم، دمه يستخدم في قاع كوب الحجامة كي يختلط بدم رأس المحجوم ويسهل إسالته وسحبه تحت الضغط القوي الذي يحدثه الكوب الفارغ من الهواء، كما أن الضفادع المذبوحة حين يكون القمر بدرًا تفيد المرأة العقيم، لو خطت عليها عددًا لا أعرفه من الخطوات، وكتابة العمل وربطه في صدر ضفدع نشط يقلب حظ الشخص المقصود وقد يودي به، والضفدع الأنثى لو أتيحت لها فرصة التسلل إلى بيت الحبيبة فسوف تعمل على تليينها وإثارة عطفها على المحبوب. والبعض يزعم أن ذبح ضفدعة أو ضفدع تحت حنجرة متلعثم أو ذي تهتهة فإن لسانه المربوط أو المضطرب ينفك، أما أخطر ما يمكن للضفدعة أن تفعله، فإنها إن قفزت من مستقرها المائي قفزات أوصلتها إلى بيت ما ـ فاعلم بأن الخير سوف يملأ هذا البيت. فإذا ما قطع طريقها قبل أن تصل إلى عتبة البيت، فسوف يتعرض أهله إلى ما لا نستطيع تصوره من أخطار الحريق أو الريح أو سقوط الحوائط أو الولادة المبكرة أو خسران القضايا. ويُحكى أن ضفدعة سمينة تخطت طريقًا واسعًا ووصلت إلى عتبة بيت، وما كادت تقفز لتدخل حتى فوجئت بهدهد يدخل قبلها، وكلاهما رمز للفأل الحسن، فقيل إن صاحبة البيت لم تتحمل المشهد العظيم فوقعت من طولها، وهي رواية مقصود بها السخرية بأفكار العامة، لأن الهدهد ليس في سذاجة الضفدعة، ولا يمكن أبدًا أن يدخل بيتًا تقف فيه امرأة، وهو أمر يصعب تجريبه الآن بعد أن تكعبت المساكن وأصبحت شققًا، ليصبح الفأل الحسن ـ في الضفادع ـ مستحيلًا.

كلمات لها معنى

هذه السحب: ترهق نفسها كي تتكون وتتلون وتخنق الشمس وتناور الريح، ثم تتبخر دون أن تمطر قطرة واحدة.

*

فعلًا: دون تحليلات أو فلسفات أو لف ودوران: خلقت الأنثى للحب.

*

ماذا عن هذا الذي قالها ومضى: السكوت علامة الرضا؟

*

أنظمة وأنواع الحكم المختلفة يهمها أن تسعد مواطنًا ـ كان سعيدًا بالفعل.

*

لا تغلقوها، هذه الثقوب التي تمزق الأثواب، إنها تريح كثيرًا من الأجساد المخنوقة.

الثعبان

اللاذع، الناهش، الناشر، المنساب
بين التاريخ والأسطورة والجغرافيا

كنت قد خصصت هذا الجزء للكتابة عن الأصدقاء، لكني وجدت نفسي مندفعًا إلى الثعابين، تلك التي لم تفارق ذاكرتي منذ أن كنت كيانًا صغيرًا يتلوى على الأرض، ولعل الثعبان - في أقصى علاقته بي - هو الكامن وراء فرع شجرة وأنا على الفرع الآخر أقاوم الريح، ولا ينقذني منه سوى الاستيقاظ من النوم فزعًا والاستيعاذ بالله. وهو منتشر في جميع أنحاء العالم قديمه وحديثه، حتى ١٠ داوننج ستريت - مقر الوزارة البريطانية - في لندن لم ينج من ثعبان جاءت أخباره في الصحف من أعوام، والحية ذات الأجراس لها وضع في القصص والبراري الأمريكية، كما يقوم الثعبان بدوره المؤثر في الأديان والأساطير والخرافات وقصص ألف ليلة وليلة والحكايات الآسيوية. وأستطيع مطمئنًا أن أختصر الحياة المبكرة للإنسان في النار والماء والثعبان، ولا تزال هذه القدرة الخارقة

لدى الحواة للسيطرة على الثعابين غامضة، قد يفسرها البعض بالتحايل أو خفة اليد أو استثارة الوهم عند العامة، لكن ما لمسناه جميعًا ـ ولا سيما أبناء القرى والبراري والصحراوات ـ يظل قائمًا ضد هذا التفسير الهروبي المعتل. ولذا فقد ظل الثعبان حالة تتلوى في الجغرافيا والتاريخ، وأكثرها رونقًا هذه النهاية الموفقة والدامية للملكة كليوباترا، وهو ذو الرأس المشرئب بعيونه الفيروزية التي تتألق شراسة في مداخل كنوز قدماء المصريين، وفوق هامات كثير من تماثيلهم، وفي أقوال القدماء، والحلي اللولبية في معاصم النساء، وفي الطريقة التي تتلوى بها أفكار التنظيمات السرية، وأماكن توالد الجرذان، وقريبًا من الطبيخ البايت وأعشاش الحمام، وبين يدي النبي موسى ملتهمًا ثعابين حواة الفرعون، وشرائح البطيخ الناضج، ومواقع القنص والصيد وفي المخازن والشون (جمع شونة) ومؤسسات جمع وتوظيف الأموال، وفي دورات المياه الآسنة ـ بالذات في القرى والمناطق القديمة ـ وتحت أجنحة الترع وشواطئ البرك والجماجم المتحجرة، ومؤسسات النشر (ولا سيما النوع الثعباني المسمَّى بالناشر)، وتحت أزيار الماء في الأيام الحارة، وبين شدقي الخباصين والنمامين ومبدعي الشكاوى الكيدية، وبين طيات رؤوس نقاد الأدب ـ حتى الموهوبين ـ وفي مساطيح البلح (أي مسطحات البلح). وهو إشارة للصيدليات ـ على أن يكون ملتفًّا حول كأس، وفي عوالم التلفزيون الحيوانية، وفي مخيلة القواد الحمقى الفاشلين، عسكريين أو مدنيين، إذ إن الكثيرين منهم يعشقون اللبن والطبيخ والجرذان المشوية، وثمة نوع

من الثعابين يدعى الطريشة ـ أي الطرشاء الصماء التي لا تسمع ـ قصير له جسد معقوف، يندفع مقذوفًا في وجه المخلوق ـ إنسانًا أو حيوانًا ـ فيودي به، وجنود حرس الحدود الذين يستخدمون الجمال يتحاشون المناطق التي قد يكون فيها، ولا علاج للدغته، له تأثير حاسم، وجماعات البشاريين في جنوب صحراوات مصر يلجأون ـ في هذه الحالة ـ لبتر العضو الملدوغ. ويشير الجاحظ وكذلك الدميري إلى أن قوة الثعبان الهصور العاصر لا مثيل لها، وفي سياق مبالغاتهما الخرافية حكيا عن نوع يمكنه تكتيف بقرة وطرحها أرضًا ثم السعي إلى ضرعها، لكنني رأيت تصويرًا سينمائيًّا لثعبان ضخم ابتلع حملًا، وربما يكون الثعبان الواقعي وراء كائن التنين المذهل الذي يفح نارًا في الأساطير ولا سيما الشرق آسيوية قديمًا، وتراه على واجهة بعض معابد فئاتهم، غير أن المدنية الحديثة أطاحت بكل الأساطير وأحالت الثعبان إلى كيان يتلوى في حدائق الحيوانات، وفي أحذية وحقائب النساء، وحتى قلبه ـ الذي كان يتغذى به الأبطال ليكتسبوا الجسارة المناسبة ـ ضاع وانقرض مع انقراض الأبطال ذوي الجسارة والأصدقاء الأوفياء.

كلمات لها معنى

أردأ ما في المدينة أنها ضنت علينا بلحم الجديان ووبر الجمال ولبن الماعز وصبغ الأيدي والأقدام بالحناء.

*

لقد وصلت التجربة العاطفية إلى نهايتها، فبدلًا من أن أكتب إليها، بدأت أكتب عنها.

*

أخيرًا هجرت زوجتي تخريط الملوخية وتقشير الثوم والكلام عن نفاد النقود، كانت آية في الحسن وهي تتكلم عن الزلزال.

*

هذا الوقت المتوتر الذي تقضيه في شهادة مزورة أمام القاضي أو عند إبداء رأي لصاحب قصة هابطة.

*

لاحظ مثلي أن لافتات الشعارات لا ظل لها.

*

أخطر ما قام به التلفزيون أنه أقفل باب الحكاية الجميلة عند جداتنا.

*

كلاهما مدمر: التوجس الشديد، والغفلة.

*

ألعن من تصفية الحسابات، أعداء لا حساب لهم.

السلحفاة

الهادئة الرصينة ذات البلادة وطول البال والغائصة في حلم الكسالى واللامنجبين

السلحفاة حيوان زاحف، بطيء، منه البري ومنه البحري، مدرعة بصفائح عظمية قرنية عظيمة وغليظة، تختصر العالم البيروقراطي كله، فتكاد تصبح موظفًا يبحث في الرمل عن يوم ميلادك. ويقول الدميري ـ عالم الحيوان العربي القديم ـ إنها تتغذى على الحيات والثعابين، وبذلك يكون أول من اكتشف قانون البلادة البطيئة الغليظة حينما تلتهم السرعة والمرونة والانسياب والذكاء. ولذا فنادرًا ما ترى أثر السلحفاة في آثار السابقين: من جزيرة الرخ الخاصة بالسندباد شرقًا، حتى الجزيرة الغامضة الخاصة بـ«روبنسون كروزو» غربًا. ربما هي محققة ـ تمجيدًا للمثابرة وللتأني والبطء والإمعان، وتسفيهًا للحمق والرعونة وعدم الإدراك ـ في قصة الأرنب السريع المهمل والذي خسر السباق مع السلحفاة البطيئة الرابحة. ومع ذلك يظل للسلحفاة وقعها في النفوس بصفتها

ذات تشكيل خاص يعطيك إحساسًا غامرًا وقويًّا بمغالبة الزمن، وهو ما أدى بالراغبين في تجاوز الحلقات المعروفة من العمر: أن يتغذوا بلحمها، وبالباحثين عن وسائل الخصوبة الدائمة: أن يمتصوا دمها، وبالحالمين بمواجهة الأهوال: أن يحملوا أسلحة ذات مقابض من صدفتها العظيمة. وقد توقف هذا عند حدود السكاكين والمدى وبعض غدارات القراصنة حيث لا تحتاج المدافع والصواريخ والقنابل إلى مقابض. وفي الخرافة نجد أن أثمن التمائم والرقى والأحجبة وأكثرها تأثيرًا ما كتب بدم الترسة ـ وهو الاسم الشائع للنوع البحري من السلاحف. ويرى العلماء المحدثون أن السلحفاة قادرة على تحمل الغبار الذري واحتوائه في جسدها مدة أطول من أي كائن آخر، ولعل تكويناتها الغامضة وراء عمرها المديد الذي يفوق عمر الأحياء المعروفة. وهناك سلحفاة في حديقة الحيوان بالجيزة في مصر منذ افتتاح الخديو إسماعيل لها وتحيا حياة هانئة حتى الآن حيث تجاوز عمرها المائة والعشرين عامًا.

ومع أن أهل السواحل لا ينزعجون منها، بل وكثير منهم يقتنونها في بيوتهم ـ وبالذات الصغير منها ـ إلا إن أهل القرى والوديان يرتاعون لمشهدها لندرة مشاهدتهم لها، وتداهمهم في الحلم فيتشاءمون ويخشون موت الذرية، كتفسير معكوس لما بين الحلم والواقع (كتفسيرهم لرؤية الميت بإشارة لطول عمر الحالم)، أو يرون فيها مكائد الأعداء، ونسيج المؤامرة، والخيانة الزوجية. وكل هذا راجع للموروث المعروف من انقلاب السلحفاة على

صدفتها ـ أو درقتها ـ وتعرضها ـ حينئذ ـ للموت المؤكد، ولذا فإن داود الأنطاكي يصفها علاجًا لمن وقع في كارثة الشك، أو «الأمور الضائقات»!

والسلاحف في طريقها للانقراض لكثرة الصيد وعمران السواحل، ومع ذلك ـ حفاظًا على مآثرها وصفاتها دون جسدها ـ تراها وقد تفشت وانتشرت في ملامح المحبطين الفاشلين من الضباط، والمعزولين من السياسيين، والمنتظرين طويلًا رحيل المناوئين والأعداء، والمحبوسين وراء الوظائف الكتابية في أرشيف المصالح الحكومية، والمصابين بالجذام قبل أن تتساقط أعضاؤهم، والمسرفين في استخدام أدوية الكورتيزون، كما أن غباء السلحفاة وكسلها العقلي يتسلل في كتابات ذوي المناصب الثقافية والصحفية غير الموهوبين، وفي حاملي علوم التراث دون تطويع أو تشذيب أو صياغة تساير روح العصر، وفي الذين ينعمون بخيرات زوجاتهم دون عمل، وتجار مستحضرات البدانة، والمستسلمين يأسًا، والخانعين ذلًا، والمنتفخين غرورًا ـ وغباء، واللائذين لصدفة المنافقين ودرقة المنتفعين.

كلمات لها معنى

الفريك لا يحب الشريك، ومع ذلك ينام الفريك حشوًا داخل الحمام، حيث لا يقبل أحد أن يتناوله بمفرده ـ كالأرز مثلًا.

*

الأصدقاء نوع من المخلوقات ينام مبكرًا وقبل أن نحتاجهم بنصف ساعة في أغلب الأحوال.

*

سيظل للحمَّام ودورة المياه شأن عظيم في حياة المشهورين، بصفتهما الملجأ الدائم لهم هروبًا من المعجبين، ومع ذلك لم نجد أثرًا لهما في مذكراتهم.

*

لن يصلح الفاكس العصري (الذي نجح في نقل الرسائل حتى أوامر الصرف) في نقل الرسائل الغرامية، سيفقدها أجمل وأروع ما فيها: الحياء والسرية.

*

فكرة عبقرية: أن تفشل في الاقتران بمن أحببت، إذ كيف تتاح لك فرصة الإغراق في الذكريات المنتشية وسط ضجيج أنجالك من امرأة أخرى؟

*

الأدباء الذين اقترنوا بزوجات صغيرات جديدات وهم في الحلقة السادسة من العمر جديرون بالاحتفاء والتمجيد دون الغمز واللمز، فعلوا الذي لا يزال أملًا غامضًا ومستحيلًا داخل نفوسنا.

*

الذين يصنعون الخيوط والحبال كثيرًا ما يتعثرون فيها.

*

الصداقة كالفاكهة... النضج يؤدي بها للفساد أو الالتهام.

التمساح

الشرس القوي رمز الشجاعة فوق الأبواب وعند طرزان، والأناقة في القفاز والحقيبة، والبركة عند الولائد والمتعة

ظللت فترة طويلة أعتقد أن التمساح بدأ حياته في مجاري الأنهار منذ ظهور طرزان على شاشة السينما فقط، وكان طرزان ـ أيامها ـ يكتسح الغابة الأفريقية متقافزًا من شجرة إلى شجرة، تاركًا التمساح ـ الذي يطارد هذا المغامر ـ يتقلب مرارة ويأسًا في وحل المستنقعات القديمة، فاتحًا فمه ـ الذي يشكل نصف جسده الطويل ذي الحراشيف الشرسة. كان التمساح عاجزًا ـ في الوحل ـ عن مطاردة طرزان في عنان الأشجار، وكان ذلك مريحًا وممتصًّا للقلق والخوف.

غير أن الأمور بعد ذلك ـ سارت في غير ما أعتقد، فقد اتضح أن التمساح حيوان مصري في الأصل ـ حتى إن اسمه الهيروغليفي كان تقريبًا كما هو الآن: «مساح»، كما أنه كان له نصيب في عبادة الأقدمين أيام تقسيمات المقاطعات بين الحيوانات، وأودى التنسيق

بالتمساح معبودًا لمنطقة الفيوم ـ حول بحيرة قارون، ويبدو أنها كانت من الماء العذب، لأن المجرى القديم للنيل كان يصب فيها، وربما كانت هذه البحيرة ـ كما تقول الجغرافيا القديمة ـ جزءًا من البحر المتوسط المالح، فيظل للتمساح مساحة محدودة من الماء العذب عند فم المصب ـ الذي هو بحر يوسف الآن والذي يبدأ رحلته من مدينة ديروط على مسافة ثلاثمائة كيلومتر جنوب الفيوم، وواضح أن الأمر استمر حتى بعد العصر اليوناني في مصر، الذي احتفظ باسم التمساح ـ «كروكودايل» ـ في اللغات الأوروبية كما هو الآن.

ويبدو أن التمساح المعبود كان يعمل في مجال الشجاعة، أو الحسد، فقد اختفى في العصور المتأخرة من مجاري نهر النيل المصري وفروعه، لكن الظاهرة اللافتة أنه ظل باقيًا فوق أبواب مصر الشعبية، مخترقًا مختلف العصور والأنظمة ليكون محنطًا على مدخل الدار، أي أنه يدخل مجال الفولكلور من باب التبرك ومنع الحسد توازيًا مع الدخول للدار بالقدم اليمنى، كما أنه لا يزال حتى الآن جزءًا من أدعيات شعبية تنتصر به على الشياطين التي قد تحيق الأذى بالولائد أو الأجنة، (ارجع يا إبليس ارجع يا إبليس، ده المشروخ ورا التليس)، وترجمتها من العامية المصرية سهلة، فبعد صدور التحذير في شكل أمر متكرر، يتم التفسير بأن المشروخ، لأن فم التمساح يمتد حتى منتصف جسده فأصبح علمًا عليه، مختفٍ وراء جوال الغلال، والذي لا يزال حتى اليوم (التليس) وقدره ثماني كيلات، أي ثلثا أردب، فإذا كانت الشجاعة تكمن في معنى التمساح

الفولكلوري لدى الناس البسطاء، فإنهم أيضًا يبحثون عن هذا العنصر أيضًا ـ البسطاء وغيرهم ـ في التواصل بالبركة واليُمن في الغلال، التي يحتويها التليس الذي يكمن خلفه التمساح، وهو ما أدى في نهاية القرن إلى انتشار اعتقاد كاسح بأن للتمساح ـ القوي المبارك ـ سحره الخاص في التزود بالثقة ليلة الزفاف، أو عندما تنهك القوى تحت ضغط مرور السنين، وهو ما يفسره انتشار بيع علب «إحليل التمساح» في الخرطوم ـ عاصمة السودان حيث لا تزال التماسيح هناك ـ وفي أسوان أولى أسواق السودان في مصر، والتي منها ينتشر في المحلات الشعبية القاهرية بأثمان عالية.

وقد دخل التمساح الآن في قوانين تحريم الصيد التي تتبناها كثير من الدول الأفريقية، خوفًا من انقراضه، مع أن حراشف جلده جامدة قوية، وله صفائح عظمية عند بطنه، إضافة إلى الفكين القويين والأرجل القصيرة والذيل الشرس المفلطح رأسيًا، لتجعل التمساح النيلي من أخطر الحيوانات المائية. أما التمساح الأمريكي فهو مشابه للتمساح الأفريقي، وإن كان يقل طوله عنه قليلاً: الأفريقي يصل إلى خمسة أمتار، أما الأمريكي فيصل إلى ٤٣٥ سم، وهو ينتشر من ولاية كارولينا الشمالية إلى فلوريدا. لكن اكتساح العمران وعمليات الصيد لمناطق الغابات والبراري، جعل نوع التمساح في القارتين يستند بظهره على «تليس» القوانين التي تحرم إبادته أو صيده، لا سيما أن القرون الحديثة جاءت بعادة انتشرت سريعًا في جميع أنحاء العالم: القفاز ـ والخاص بالمبارزين والمشعوذين ـ وحقائب يد السيدات وأحذيتهن، من جلد التمساح، تغليبًا على جلود التماسيح في القرون

الوسطى التي كانت تفرش في مداخل حجرات الاستقبال إشارة إلى شجاعة رب البيت في الصيد، تمامًا كما كانوا يفرشون جلود الأسود والنمور والفهود في نفس الأماكن لنفس الهدف.

وبذلك تكون آخر التماسيح قد استقرت في عالمنا اليوم، أبطالًا لأفلام الكارتون، وجلودًا للحقائب، وبقايا حية في قطاع صغير من الأنهار ومستنقعاتها، وثلاثة أو أربعة من نداءات الأمومة حماية لولائدها، وفي البرك الصغيرة الخانقة في حدائق حيوانات عواصم العالم، إضافة إلى مشاهد نادرة ـ الآن ـ لبطل يتقافز سينمائيًّا في الغابات خوفًا من هذا القاتل العنيد.

كلمات لها معنى

التفاوض: عملية تنسيق بين قوتين تسعيان للاستمرار طويلًا فوق رقبة قوة ثالثة.

*

من كثرة التواء أعناقنا نحو الغرب: أدبًا وصناعة وتهذيبًا، كادت رؤوسنا تنفصل عن أعناقنا.

*

اللهم احمني من أعدائي، أصدقائي مشغولون بالتلفزيون.

*

الذي ربط الحب بالورد، ذهب وأقام بيتًا من جريد النخيل.

*

كنت أشرح أن تكريم السيد الرئيس كان معنويًّا، ظلت عيون أمي، زوجتي، مصوبة نحو جيبي، تبتسمان في شك وتخاذل.

❊

لماذا لا تصلح الأرانب للسيرك أو لحراسة الأسوار؟ لأنها تصلح للأكل.

❊

الأوطان كالأمهات، يمكنك الإقامة بعيدًا عنها مع قليل من أمنيات السلامة والستر لهما، والشوق أيضًا.

❊

الكلاب التي تنبح كثيرًا، قد يفوتها النباح حين مداهمة اللصوص حدائقها.

❊

في حالات كثيرة أحس أن الرقاب التي تنحني إجلالًا للبشر، تمهد نفسها للقطع.

الغراب

رمز الحذر والتوجس والتشاؤم والليل الحالك

أول ما عرفناه فور هبوطنا إلى الأرض بعد تجربتنا المؤلمة مع إبليس والثعبان والتفاحة في الجنة، ولا يزال الدرس الذي ألقاه على قابيل (كي يحفر حفرة يدفن فيها أخاه القتيل) ماثلًا شاخصًا في الأهرام والقبور والشواهد والأقبية والسراديب والنواح على رأس الراحل. له ذكاء سمسار (وسيط) وحذر جاسوس ومسوح (ملابس) فيلسوف وإشارات قائد أوركسترا، وهو أول طائر يتدثر بدرجات اللونين الأسود والرمادي كأنه منتزع من لوحات الفنان المصري حسن سليمان. ويضفي عليه العرج القديم سيماء «تيمورلنك» أو «إهاب» بطل «موبي ديك» (للروائي الأمريكي «هرمان ميلفيل») أو إبراهيم عبد القادر المازني. يحب النخيل والشجر ويكره الصحاري والصمت ونباح الكلاب، ويتقد بالحماس والمرح إذا ما أمن إلى جماعة أو وكر أو عش مهجور، وحين يحوم في الجو تتلبسه حالة ناقد معاصر لمح كتاكيت النصوص الأدبية، ينقض عليها، ويقتنص

أضعفها، ويظل يومه مستمتعًا بتمزيقه وتظل قأقأته تملأ الجو نحيبًا وانتحابًا ونصرًا. والعرب القدامى يزعمون أن اسمه (الغراب) يرتبط ارتباطًا مباشرًا ـ ومأساويًا ـ بالغربة والاغتراب، ثم بالشؤم والتشاؤم والتوجس من المجهول. وفي كثير من قصائد الهجر يقف على ناصيتها بصفته غراب البين، وتراهم لا يثقون به ولا يرتاحون لمشيته العرجاء (ومن يكن الغراب له دليلًا، يمر به على جيف الكلاب) ويضربون به المثل في المستحيل أو التحدي حينما يقولون: «لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب».

وتتجمع الغربان حول مغامل الكتاكيت ومطابخ المعسكرات وتجمعات الأحزاب ومرابط البقر وسرادقات التأييد وفي دار الأدباء ونادي القصة بوسط القاهرة. وكان الروائي الشاعر الأمريكي «إدجار آلان بو» مغرمًا به، وبمشيته العرجاء وبألوانه الحالكة وبالرموز التي يوحي بها. ويقال إنه أول طائر لمح اليابسة من فوق صاري سفينة سيدنا نوح عند بداية انخفاض منسوب الطوفان، وكانت قأقأته أول بشير عندما حط على أول أرض، ومع ذلك لم تحتسب له هذه البشارة، وظل بصوته الخشن ونظرته الحذرة يثير في النفوس القلق وعدم الاطمئنان. وربما لهذا السبب نجد ولعًا لدى الجماعات البدائية بالتهام صغاره، وكباره في بعض الأحيان، وقد أطلق الناس عليه صفة الأعور مع أنه صافي العين حاد البصر. ويرجع الجاحظ هذه التسمية (الأعور) تأكيدًا لتشاؤمهم وتطيرهم منه، ويروون أن إصابته بالعرج جاءت نتيجة لتقليده مشية القطاة، وضربوا به المثل فيمن يقلد غيره دون ضابط أو إدراك، وربما يرجع كل الذي شاب علاقة الغراب بالناس إلى موقف الفراعنة

المصريين منه، فليس هناك أثر لرسم له فوق حوائط المعابد والقبور، رغم كثرة ما رسموا عليها من طيور، ابتداء من أبو قردان والنسور والصقور حتى البط والإوز وصغار الدواجن.

كلمات لها معنى

في بداية حياتي فقدت العين اليمنى: جهلًا، وهأنذا أفقد العين اليسرى: ثقافة، القدمان سليمتان.

*

من أجمل ما قاله المرحوم عبد الحليم عبد الله:
«الخؤولة أمومة مذكرة».

*

للعالم جدًّا حمق لا يقل في ضراوته عن حمق الجاهل جدًّا.

*

الغيوم التي تحميني من سعير الشمس قد تحجب عني ضياء القمر أيضًا.

*

لم يزعجني أن مولودي الأول سلب من زوجتي بعض حنانها، بل خفة حركتها أيضًا.

*

علينا الآن أن نعترف: كل نساء العالم جميلات، عدا زوجاتنا.

*

رفض موظف التحصيل أن يقبل مني أوراق مقبرة المرحوم الدكتور طه حسين إلا إذا كان الاسم ثلاثيًّا، وقد أضفت للاسم: عبد العزيز، ويمكن لآل طه حسين عبد العزيز أن يستولوا على المقبرة حيث إني لا أعرف اسم جد عميد الأدب العربي حتى الآن.

❊

كنت أفهم لماذا يزرع الناس نبات الصبار بجوار قبورهم، وأصبحت أكثر فهمًا حينما بدأوا يزرعونه في مساكنهم.

❊

لو كانت دور السينما والمسرح ظهرت أيام جميل بثينة، وقيس ليلى، لتغيرت أمور كثيرة في نصوصِ الأدب.

❊

من باب التعصب لصنف الرجال، فإن أذهاننا تتجه لناحية الطبيخ فقط، حينما يقولون إنهم يحبون الطبخ.

❊

حتى الأرض تطرب من وقع خطوات عاشق جديد.

❊

سعادتي لا توصف، فقد قضيت يومًا كاملًا في المنزل دون أن تكلمني زوجتي في الفلوس والعيال، ستعود غدًا من بيت أمها.

❊

طلبت من بائع القماش أن يقيسه بالشبر دون المتر، حماية لي من انتقادات والدتي.

الديك

من ديك الدواجن إلى ديك النهار وديك الجن

الديك ذكر الدجاج، ثم انسحب لفظ الديك على أي ذكر يهيمن على جماعة، والجمع ديوك، وديكة، وأدياك، وتصغيره: دويك، وكنيته: أبو حسان وأبو حماد وأبو سليمان وأبو عقبة وأبو مدلج وأبو المنذر وأبو نبهان وأبو يقظان وأبو برائل، والبرائل ما يرتفع من ريش الديك في عنقه وينفشه للقتال، أو للزهو والاستعراض، أو للصياح، أو حين يداهم الأنثى، ولعل كنية «أبو برائل» هي التي وراء مصطلح «ديك البرابر» في اللسان الشعبي منحرفًا عن اللفظ الأصلي، تمامًا مثل صياغتنا الشعبية للإشارة إلى ذاك أو ذلك النهار بمصطلح ديك النهار (في حكاية تخلو من أي ديك)، وهذا لا يمنع من أن يكون «ديك البرابر» قادمًا من تعبير «ديك البرابي»، إذ إن «البرابي» (جمع بربا أو بربة) هي الظاهر الواضح المرتفع من بقايا المعابد القديمة المهجورة، والتي كان يسعى ديك الجماعات الفقيرة التي أقامَت أكواخها في ظلها إلى الوصول لأعلى نقطة في هذه الأطلال

كي يطلق صياحه الذي يصل إلى كل الآفاق، كما أن صديقًا أشار إلى أن الدجاجة ـ في ريف دلتا مصر ـ تدعى: بربرة، وهو معنى ثالث لديك البرابر لا يتعاكس مع سابقيه.

ومن شأن الديك ـ أي ديك كان روميًّا أو هنديًّا أو فيوميًّا أو بلديًّا ـ ألا يحنو على ولده، ولا يمنح كتاكيته اهتمامًا، الدجاجة تفعل ذلك وتدفع ما تراه خطرًا على كتاكيتها. والديك أيضًا لا يأنس ولا يألف زوجة واحدة، ليس ثمة دجاجة واحدة من كل السرب يمكنها أن تحظى بموقع خاص في قلب الديك، إنه لا يؤثر واحدة على أخرى، وهو عدل نادر وصعب، ربما لأن الدجاجات عادة فيها من التماثل ما لا يتحقق في إناث الآخرين الذين يصعب عليهم أن يقيموا مثل هذا العدل. والدميري ـ عالم الحيوان القديم ـ يقول عنه: «الديك أبله الطبيعة، إذا سقط من حائط لم تكن له هداية ترشده إلى أهله».

والديك ـ سواء أكان للدواجن أو للبيت أو للعائلة أو للقبيلة، أو حتى للأمة كلها ـ يمتلك قدرًا مذهلًا من الزهو، والكبرياء، والإحساس بالوقت، والرغبة العارمة في إيقاظ الآخرين، يسبب إقلاقًا في الفجر الكاذب قبل أن يصيح ممهدًا للفجر الحقيقي بساعتين أو أكثر، كما أنه يمثل توافقًا مع الزمن وصل إلى حد أن أحد الديوك قرر أن يحرم الناس من النهار فتوقف عن الصياح، لقد دخل في زعمه أن النهار يبدأ به، معتدًّا بشكله الذي يمثل تحديًا لكل تكوينات الفنون التشكيلية لما في ريشاته ـ ابتداء من الرقبة مرورًا بالجسد والجناحين حتى الذيل ـ من تداخل في الألوان وانسجام بين تناقضاتها، مع غرابتها وقدرتها على الإدهاش لما فيها من تفرد متألق.

وأضخم الديوك: النوع الرومي ثم الهندي، يلف ويدور في خيلاء نافشًا الجناحين، مغدقًا انتفاخه على الرقبة المشدودة زهوًا للوراء، وكأنه قد تخرج توًّا من كلية الشرطة، أو نجح في الاستحواذ على قلب عبلة بنت مالك، أو حصل على حكم من المحكمة الدستورية، أو نال جائزة الدولة في الأدب، أو اكتشف أسباب الغباء الشامل في العصر الحديث، أو أنجب ذكرًا في عائلة لا تنجب سوى الإناث، أو كأنه ديك الجن الذي يأتي من جبال شياطين البربر غرب أفريقيا ليتلبس أجساد عاشقات الزار في صعيد مصر، وهو غير ديك الجن الشاعر الماجن اللاهي الذي كان أستاذًا لأبي تمام، وكذلك أيضًا هو غير ديك الجن في الحكاية الشعبية الذي واجه الغول بأن تجمد في موقفه حتى باض، فاعتقد الغول أن هذا الديك مجرد دجاجة ليست في قائمة أعدائه، وهي المرة الوحيدة التي باض فيها ديك مؤكد الذكورة.

ومما دخل في زمرة الديوك دون أن يكون ديكًا حقيقيًّا، ديك الغابة، وهو من طيور القنص الليلية، ريشه بين بني وأسود، كبير العينين طويل المنقار، يفد إلى مصر شتاء من شمال أوروبا، وله شبيه أمريكي أكبر منه، كثير الصياح ومقلق.

ويمثل الديك نصف الديكتاتور وترى ذلك في عناده وغبائه ونرجسيته، غير أن عين الديك أكثر يقظة، وأكثر إدراكًا، ويستحب لحم جميع أنواعه في تشكيلاتها الفاخرة لتتوسط موائد الولائم. ويلعب الديك دورًا مهمًّا في هدية العروسين في ليلتهما المتألقة بزوَج الحمام، فالحمام يظل رمزًا للاشتهاء والرغبة، أما الديك فهو

رمز للخصوبة واليقظة والكيد للأعداء الذين يكونون قد ناموا قبل ذلك بساعات.

كلمات لها معنى

الباب الذي يأتي منه الريح، لا تغلقه جيدًا كي تستريح، فسوف تحتاج إلى قليل من النسيم.

❊

بالمصادفة البحتة جاءت الفضيلة على شكل مؤنث والنبل على هيئة مذكر.

❊

ومن ذكاء الزهور أنها تسعى إلى ربيع نشط كي تنتهي نهاية متألقة.

❊

لا أعرف حتى الآن لماذا نرسم ملائكة الحب على شكل صبيان!

❊

ثم لم تلبث السحب أن استدرجت الشمس وظلت تضاغطها حتى انفجر الغروب دمًا.

❊

لا تقترب كثيرًا من اللوحات كي تراها جيدًا، والحقائق أيضًا.

الحمام

ذو الرقبَة الموسيقية والهديل والطاقة والألفة والهيام

لو كانت أمنا حواء امتلكت زوجين من الحمام، زغللت بهما أحاسيس ابنها قابيل، لفكر كثيرًا قبل أن يودي بحياة أخيه هابيل، فمنذ هذه الأحقاب وأمهاتنا يُغَذِّين رغبات طفولتنا بزوجين من الحمام حتى ننام؛ ولا تتحقق هذه الأغنية الليلية، في حدود مضمونها الأخاذ الذي لا ندركه جيدًا في أيامنا المبكرة إلا ليلة الهناء، حيث تتألق المسافة بين العريس والعروس بزوجين من زغاليل الحمام، فالحمام البيتي لا يؤكل أبدًا، بل تؤكل أفراخه عند استشرافها الطيران، فإذا ما طارت تليف لحمها وضمر وفقد لذته، ويُقال إنه يفسد الأمعاء أيضًا. ولا يوجد في كتب علوم الحيوان والطير والبيطرة شيء ذو بال عما نكنه نحن للحمام من حب مقترن بالطاقة والسخونة، مع أنه انتشر في الأعوام الأخيرة، وقد طار وديعًا حاملًا غصن الزيتون رمزًا للسلام، أو تخفيًا تحت أجنحته اللطيفة لإلحاق أكبر كمين للسلام. والذي يطَّلع على كتاب ابن حزم الأندلسي (طوق الحمامة) سوف يكتسب

خبرات هائلة في عموم أنواع تجارب الغرام التي تختصر لك المسافة المرهقة للوصول إلى فشل مشرف، وهذا التنوع في كتاب ابن حزم هو الذي جعل من طوق الحمامة اسمًا على كل أنواع الألوان الدقيقة المتداخلة في الملابس والنباتات وكلمات السياسيين، والمتناغمة في قوس قزح وقصائد الشعر الجيد، وانعكاسات وانكسارات الضوء في البلُّورات وكلمات المدح وعيون العشاق وطبق الحساء الفاخر بعيدًا عن البيت. ولعل أكبر خدمة تاريخية نحفظها للحمام قيامه ببناء عش على فوهة الكهف لتكمل مع نسيج العنكبوت تأمينًا كاملًا لهجرة رسول الله النبي محمد صلى الله عليه وسلم وصديقه أبو بكر قطعًا لطريق كفار مكة وتضليلًا لهم ليعودوا أدراجهم.

أما الحمام البري ـ أي الذي يعيش في الحقول والصحراوات، وهو في الغالب الذي يُستأنس في الأبراج دون البيوت ـ فهو يُؤكل كله، صغر أو كبر، وهو غير اليمام ـ أكبر قليلًا ومتعدد الألوان ـ الذي يظل لونه على درجات البني فقط ـ ويؤكل كله أيضًا، غير أن الكتب تهتم بالحمام الزاجل وقدرته الفائقة ـ والمعجزة أيضًا ـ في الطيران لمسافات طويلة مع الاهتداء إلى مكان معيشته. وقد استغلت الجيوش وجماعات العشاق والجواسيس والبصاصون هذه الميزة في كل اتصالاتها، حتى بعد سيادة المنجزات العلمية المرعبة، لكن الإنسان لم يقف طويلًا أمام هديل الحمام، هذا الانسياب الصوتي الخفيض المفعم بالشجن، هل لأن ذكر الحمام وفيٌّ لحمامته؟ أو لأن أنثاه لافت بغيره، كما هو وارد في مواويل الغرام والخيانة والهيام؟ والاستماع العميق لهديل الحمام ـ وهو مختلف في الدرجة والنوع

عن هديل اليمام أو الحمام البري ـ يملأ الجوانح بالحزن الطروب الأليف الغامض. إن الموسيقى اللونية في رقبة الحمامة والصوتية في هديلها تحاصر الوجدان وتدفعه إلى الإحساس الدافق بالحياة، ولذا فإن الدول رسمت على راياتها وأعلامها صقورًا وسباعًا وسيوفًا ونسورًا وأهلة (جمع هلال) ومربعات ومثلثات مقلوبة وأشجارًا ومطارق ومناجل، دون أن يحتل الحمام علمًا دوليًّا واحدًا، ربما لأن هذه الدول في مرحلة الخشونة الفظة السابقة على فهم جاد لمعنى رمز الحمام، مع أن الشعراء ـ والعرب بالذات ـ ناحوا وصدحوا وهاموا كثيرًا مع الورقاء (في الفصحى)، والقمري (في العامية)، وسجلوا بكاءهم في كثير من القصائد التي جرت على حناجر أشهر المغنين، كما يجري الزغلول من بين يدي أنثى وهي تهم بالتشبث به تمهيدًا لنحره بأصابعها المضمخة بحناء الفرح المقبل.

كلمات لها معنى

حتى في السؤال عن درجة حرارة اليوم، يمكن للزوجة أن «تُخَنْصِر» شيئًا، قالت وهي تناولني الجاكيت: «٢٠»، بعدها بقليل قال الراديو: «١٩».

*

حتى النحافة الشديدة يمكن أن تصبح شيئًا رائعًا، انظر لراقصات الباليه.

*

عليك أن تختصر هذا الوقت المرهق الذي تتظاهر فيه باللذة وأنت تشم الفطر الذي نما فوق خبز العلاقات القديمة.

*

لحظة ساحرة مليئة بالشجن والقلق والعذوبة، حينما تفتح بابك وأنت متأكد أن الطارق هو محبوبك المنتظر ـ وغير المتوقع ـ من سنوات طويلة، لقطة عبقرية عند الزميل «تولستوي» في «الزواج الأبدي».

*

إنه يتعامل مع أخلاقه الفاضلة كاللوحات الثمينة، لا يجوز أن يضعها على الأرض ولو لمسحها من الغبار، دون أن يدري أن بيته يخلو من أي لوحات.

*

الذي يفشل في تفصيص كوز الذرة، صغيرًا، لن يدهشنا فشله في التعرف على كونشرتو الفيولينا ٦١ لـ«بيتهوفن» كبيرًا، مع أنه كان مجيدًا لحل واجباته المدرسية.

البط

ذو الصوت المبحوح على شواطئ البحيرات، والتمائم، وحفلات الزار

لا أستطيع أن أتصور وطنًا دون بط، هذا الطائر المائي الساذج الذي يمشي نفس مشية الجيش النازي المغرور، كما أني لم أكن أتصور أنه يمكن أن تكون ثمة بركة ـ أو قناة ـ ريفية تخلو من سرب بط، يفح الذكر منه في عنجهية ليدرأ ما يراه عدوانًا على هدوء الجماعة. وصوته المبحوح هو الذي جعل مناطق كثيرة في الصعيد المصري تطلق عليه (بِحٌّ) بكسر الباء وتشديد الحاء، ومنه تأتي الأنثى «بحَّة»، ويتركون اسم الجنس «بط» ليسحب على الإوز ـ أو الوز ـ في نفس الوقت، وهو اختلاط الأسماء لا تنتبه إليه كتب المدارس. ومنذ سنوات أخذني الشوق لإوز معتقل «المحاريق» بواحة الخارجة (الوادي الجديد)، والذي جاءت سيرته كثيرًا في كتب محمود السعدني وزملائه من المعتقلين المشهورين في عصر عبدَ الناصر. كان أنور السادات قد أعلن ـ فور أن تولى الحكم ـ هدم

المعتقلات، وجاءت الصورة الإعلامية وقد أمسك بمعول يحطم به واجهة أحد المعتقلات. وبعد اغتيال السادات قمت بزيارة مواقع «تاريخية» من هذا النوع، وكان معتقل المحاريق ـ في عزلته ـ أشبه بناسك متوحد مع الوجود، كان خاويًا لا أثر للضجيج المحاصر فيه، وحوله كان ثمة جدول ماء منطلقًا من إحدى العيون وقد غُصَّ بالمئات من البط، ما كاد يراني حتى انطلق الفحيح ذو الصوت المبحوح، وآلاف من بيضه قد ملأت شواطئ الجدول عشوائيًّا، كان المنظر فريدًا، ولا سيما حينما خرجت أسراب من ذكور «البحِّ» من الماء تحاول مهاجمتي. وانطلقت ـ حينئذ ـ أسراب الغربان الكامنة في الشجر، مرة أخرى: تشارك البط في الاحتجاج، كان المنظر فريدًا. ويحتل البط السمين موقعًا مميزًا في طعام ليلة الهناء، فرح العرسان، بديلًا لزوج الحمام الشهير، كما أن شريحة من صيادي الطيور تخصصت فيه وتعرف وسائلها لتسويقه لعشاق لحمه. وتعتبر بحيرة قارون (الفيوم) ووادي الريان المجاور من أخصب أماكن اصطياد أخف أنواعه وزنًا: الشرشير، وهو نوع من البط الطائر المهاجر الذي يفد إلى مصر شتاء، إضافة إلى البط أحمر الرأس، و«السَّكوتر»، و«الإيدر»، و«الكانفار باك»، وكلها طيور المياه البحرية ـ المالحة ـ عدا الشرشير الذي لا يتوقف عند نوع الماء، والذي نشاهده مع الخضارى، وبط الغابة، والبط الأسود، في مستنقعات المياه العذبة، وأنواع أخرى عديدة يضاف إليها بط بكين المستأنس مع بط المنازل الشهير. وكانت حلقات الزار

المصرية تعتمد على ذبح البط الأسود المتضخم نوعًا تحت قدمي صاحبة حلقة الزار، يطلبه عفريت سوداني ويستمتع به كلما كان الذكر ذا فحيح مقلق، كما أن كثيرين من أثرياء مصر - في عصور غابرة - كانوا يقيمون موائدهم لأصدقائهم عامرة بالبط والحمام في الهواء الطلق. ويعتقد أهل الريف بالذات أن للبط أهميته القصوى في تجديد القوى، ولا سيما إذا ما حفل بالبهارات الحامية، وبالتأكيد فإن للبط فاعليته المعروفة في علاج الأنيميا - شعبيًّا وعلميًّا، وترى لوحات ورسومات متعددة لإناث تحمل من السلال، وبالأيدي، أزواجًا من البط عائدة بها من الأسواق: في مقابر بني حسن بالمنيا، وعلى جدران مقابر وادي الملكات بالأقصر، كما أن إشارة رسم البطة تتكرر كثيرًا في اللغة الهيروغليفية المنقوشة على الجدران كحرف من حروف نطقها. وكان صناع التمائم والأحجبة يرسمونها مع الديك البلدي في حالة شجار علاجًا لمن تأخروا في النطق من الأطفال. وإذا كان لذكر البط أسلوبه في مهاجمة من يقترب من سربه بإطلاق فحيح ممزوج بصراخ مبحوح، فإن الإناث تظل متجمعة بعيدًا في سلبية واضحة. ويقال إن الثعلب - لذلك - لا يستطيع مهاجمة ذكر البط، ويقفز فوقه مبتغيًا الإناث، ومع شراسة الذكر يظل أيضًا هو المأمول ليأكله الناس، لضخامة حجمه أولًا، ولقلة الدهون نوعًا في تكويناته الداخلية، كما أن مصطلح «الزَّفر» الذي نسمعه يتردد في تمثيليات الإذاعة والسينما والتلفزيون يقصد به ذكر البط فقط، مع أننا - في عصورنا المتأخرة - لا نفرق في «الزَّفر» بينَ ذكر وأنثى.

وتظل البطة البرية ـ رائعة «هنريك إبسن» النرويجي ـ من أجمل الأعمال المسرحية التي تعاملت مع البط، وقصص الشمال الأوروبي الشعبية عمومًا فيها كثير من ذلك، كما أن «والت ديزني» الأمريكي صمم «دونالد دك» الطيبة المشاغبة في رسومه الكرتونية العديدة التي شملت «ميكي ماوس» أيضًا. وغير ذلك يظل البط أسير البرك والمستنقعات والجداول والبحيرات، وبطون الناس.

كلمات لها معنى

لا تخف، فإن الأمر لا يعدو نوعًا من الصبيانية العابثة التي يطلقها جموح الربيع.

*

كل واحد منهما يركب دراجته وينطلقان حتى يصلا إلى كوخ منعزل: «سارتر» يجلس ليعمل في كتابه «الوجود والعدم»، و«سيمون دي بوفوار» تجلس بعيدًا ترقب الأفق.

*

جاء ابني ليزف إليَّ البشرى لأنه أصبح أبًا، ظللت أمعن في البشرى السعيدة بامتعاض.

*

ما يكاد حيوان يلوذ بأسرة حتى يبدأ في تعلم المداهنة.

*

ظل يتمنى أن يحظى بزوجة ذات مؤهل عالٍ ومن عائلة ثرية،

ولما تحققت الأمنية وتزوجها، بدأ يشكو، نسي أن يتمنى أن تكون امرأة جميلة.

*

كثيرًا ما ينسحب الليل عني مصطحبًا أسباب السعادة، ثم يعود آخر النهار من دونها.

الطاووس

ذو الزهو والخيلاء والألوان والعرش الإيراني الشهير

الكتابة عن الطاووس محفوفة بالمزالق، أولها: أنني أضفت للواو ـ واوًا حتى يتم إشباع الضم، والعرب ـ عادة ـ لا تفعل ذلك، وثانيها: أن كثيرًا من القوانين الوضعية السائدة تتحرش بمن يكون في سطوره غمز ولمز، وثالثها: أنني قضيت ليلة كاملة أشارك علماء ـ محدودي الدخل ـ في حديث مدهش عن أغلى طبق طعام في العالم، وكان كبد الطاووس يتوسط شرائح الكلام. وفوجئت بعالم الحيوان الدميري يذكر: «ويحرم أكل لحم الطاووس لخبثه»، أيمكن أن يكون للكبد ما ليس للحم؟ لكن دائرة للمعارف تذكر: «وفي العصور الوسطى كان يقدم على المائدة محلى بريشه الجميل...»، كيف؟

ولعل كلمة «طاووس» تدفع للذهن الذكر دون الأنثى، لأن للذكر ذيلًا تنتصب ريشاته في شكل مروحة، لونها أخضر وذهبي وعليها بقع في شكل دوائر تشبه العيون، وتغزو الألوان الزاهية بقية ريش

أجنحته وجسده، ثم تختصر كلها في تاجه الصغير الجميل. في حين أن الأنثى ـ على غير ما نعرفه في عموم الطير ـ لونها غير زاهٍ ولا تنتفش أو تستطيل ريشات ذيلها، والطاووس يمارس أقصى حالات زهوه بريشه المنتفش سعيًا للأنثى، ما زلت أكتب فقط عن الطاووس. وموطن الطاووس جنوب شرق آسيا، وفي رؤوس الضباط الجدد، وحول موائد مباحثات الاستسلام، وفي غلاة الفنانين ذوي الملابس الزاهية: التشكيليين قبل الممثلين، وفي حركة القرصان الأكبر حينما يبغي التنزه ـ أو التريض ـ على الموانئ المسالمة، وفي خطوات أصحاب الثروات المفاجئة، وفي ردود أفعال الجاهل حينما يصبح مقصدًا لصداقة ذوي الثقافة، وفي خطوات رئيس فريق رياضي انتصر ـ على غير عادته ـ مرتين متتاليتين، وفي تأود كاتب غير موهوب أعلن رئيس الدولة إعجابه به، وفي زهو فلاح انطلقت بندقيته مصادفة فقتلت غولًا مروعًا، وفي حمار العمدة ذي البردعة الزاهية والرأس المشدود بلجام الكبرياء.

وأنثى الطاووس تضع ما يقرب من عشر بيضات في العام، ترعاها وتنام عليها دون مساعدة من الذكر، وفي العادة لا يفقس من البيض سوى اثنتين، ربما لأن الذكر يداهمها بزهوه وخيلائه دون اهتمام بالنتائج. ويقال إن بالطاووس طاقة من عناصر الزهو والخيلاء ما لو وزعت على عدد صغير من الناس لقاموا بانقلاب أفريقي متوسط الحجم، وهي مبالغة يحد منها أن التجربة أثبتت أن الأمر قد يحتاج إلى مزيج من الطاووس والببغاء مع إضافة أمريكا الجنوبية لمجَال الانقلابات. ولعل ذلك وراء هذا المشهد الذي ذكره مرتادو

الغابات من أن النسر يرقب الطاووس حتى يبدأ في ممارسة نفش ريش زهوه وخيلائه، فينقض عليه بمنشره (أي بمنقاره الوحشي) ـ ومن رقبته بصفتها أكثر المواضع ملاءمة لحركة منقار النسر، حيث يظل النسر طويلًا في الجو مستمتعًا بالتحويم الدائري، وهذا الكائن الزاهي المزهو المرعوب يتألق مشعًا بالغباء وهو معلق في النسر ـ ضحية ملونة ـ بين السماء والأرض.

وصوت الطاووس زقزقة واهنة، تكاد تكون آهة أعرج موجوع ضعيف، أجمل منها وأكثر حرارة أصوات العصافير، لكن أحدًا لا يتوقف عند صوته الواهن أو جسده الضعيف. فالطاووس من المخلوقات المتفردة التي وجدت لها عرشًا حاكمًا في إيران لتصبح رمزه ومعناه، حتى لو تهاوى كما تتهاوى وتهاوت عروش التنين والنجوم والهلالات (الأهلة أصح) والثعابين والمطارق والمناجل والصقور والنسور، حيث فتح التاريخ أبوابه لها دون بقية الحيوانات والطيور، ربما لأن الطاووس طائر غير شرير، متعته القصوى تتوقف عند زهوه وخيلائه، وتكاد كل طيور الغابة تستمتع بمشاكسته أو مطاردته، ابتداء من الغراب والحدأة وانتهاء بالبومة والبجعة. ومثل المتكبرين المتغطرسين: يرى الطاووس الحقائق دون أن يدركها أو يقيم لها وزنًا، حيث يصبح ضحية للآخرين بمجرد أن يجد مساحة مستوية مضيئة من الأرض، ليمارس فيها متعته الكبرى، والتي تجلب أنظار كل الأعداء إليه، هل رأيت طاووسًا يمارس خيلاءه ورغبته الاستعراضية فوق فروع الشجر؟

ومع ذلك سيظل هذا الكائن المتفرد مهوى قلوب الشعراء

والأطفال والملوك والنقاشين والعاشقات والمغرمين بالشعر العمودي دقيق النظم والانتظام.

كلمات لها معنى

الصدقة ليست من الصداقة أو الصدق، إنها من الاحتياج والفقر.

❊

لا تنس أن الأموال الوفيرة ـ كبقية الأوراق ـ يمكنها أن تطمرك.

❊

حتى أكثر المغنيات إمتاعًا: لها أسنان.

❊

كثير من العيون السليمة الواسعة: تفشل في استقبال النظرات الحميمة الواضحة.

❊

ليس صحيحًا أن العواصف تسحق الزهور، بل الأشجار الضخمة المنهارة عليها.

❊

لا يجوز للفقير أن يطلق على بيته الصغير الجميل: الشاليه.

❊

انتبه: فقد يسحبك صديق مخلص إلى دائرة الاكتئاب، العدو لا يفعل ذلك.

❊

ستظل السماء قاصرة عن أن تمنحك الإحساس بجمال اللون الأخضر، الأرض فقط.

❊

ذكاء المرء محسوب عليه، والأخطر: أن يكون محسوبًا عليه وعلى الوطن أيضًا.

❊

قلبي مع من لم ينجب، لكثرة الحاقدين عليه.

❊

شماعة تعلق عليها المشاكل، وعندما تواجه الشماعة بالملابس نطلق عليها: «المشجب»!

الهدهد

رسالة المحبة والألفة والإحساس بالوحدة

في العشرين عامًا الأولى من حياتي نجحت في صيد أبو قردان، وأبو فصادة، وفشلت فشلًا ذريعًا في صيد هدهد، مع أن الطيور الثلاثة يجمعها قانون مصري واحد شهير يمنع صيدها (بصفتها الملقبة بأصدقاء الفلاح لقيامها بتطهير المزروعات من الديدان)، وكنت أتلصص وراء الهدهد ممعنًا فيه وهو يلتقط فتات الأرض: حجم صغير ـ لكنه ليس ضئيلًا، جناحان جميلان واسعان مزركشان بدرجات من اللون البني الرصين الواثق، مع خطوط ونقاط بيضاء على الأطراف، منقار طويل أنيق يلازمه تقوس ممزوج بكبرياء، ذيل رشيق يختصر لون الأجنحة بنوع من التداخل اللطيف، ثم: تاج صغير أنيق نادرًا ما تجد مثله على هامات المخلوقات، ومع صغره ـ هذا التاج ـ فإنه واسع واضح بريشاته المتناغمة مع لون الجناحين والذيل، متحرك يمكن نشره حتى يصبح شراعًا لزورق يتمايل، ويمكن طيه ليصَبح ريشة واحدة على رأس هندي أحمر.

ولعل حكاية هذا الهدهد الجميل مع النبي سليمان ـ وسيطًا في موضوع الجميلة بلقيس ملكة سبأ، هي الأساس في كل المعاني التي يطرحها هذا الطائر في الذاكرة الشعبية. إذ إنه يرد في التراث باسم «الشبب»، وبالتأكيد ـ دون رجوع للقواميس ـ فإن الشبب جاء من التشبيب المعروف: التغزل بالأنثى مع وصف حسنها، ويُكنى الهدهد ـ لذلك ـ بأبو الأخبار، وأبو الربيع، وفي جسده النحيل تكمن قدرات علاجية، سنرصد بعضها دون الاهتمام بمدى صحتها، «فإن هُرِي جسد الهدهد بالشبت (نبات معروف) وصْنع منه الشراب: أزال المغص وآلام القولون، ومرارته ودمه مزيج لطلاء البهاق (ما ورد في «تذكرة» داود الأنطاكي) وأيضًا: فإن أضيف إليه العسل كان له تأثير على السفعة (دودة البطن وأعتقد أنها الشريطية)، أما الريش واللسان (!) إذا حُملا مع شخص أورثاه الجاه والقبول (!)، في حين أن لحيته السفلى ـ المقابلة للتاج ـ مع عظم جناحه الأيسر المثلث تعقد الألسن، وتورث المحبة، ويمكن أن تستعيط دماغه (أي تجعله كالسعوط يستنشق) وأكل لحمه يخفف عن المبتلى مصابه، وتعليقه مذبوحًا على الباب يدرأ السحر والنظر وأم الصبيان (ولا أعرف ما هي أم الصبيان ـ لعلها المرأة ذات العدد الوافر من الصبيان ـ ترجمة هابطة المعنى)، كما أن حمل عيون الهدهد يقوي الحفظ ويذهب النسيان ويطرد الجذام، وجناحه يبرئ القروح ويدفع الحسد ويوقف ما حصل، وابتلاع قلبه ساعة ذبحه يقوي الحافظة جدًّا، وإذا لُفَّت أظفاره وريشه في حرير أصفر ودفن تحت فراش المتباغضين حصل الائتلاف. وشرط ما ذُكر أن يحدث والقمر في برج السنبلة (العذراء)، فإذا أراد

صاحب الحاجة في العلاج أن يكون تأثيره أقوى: فعليه أن ينتظر إلى كوكب الزهرة من تثليث، فهو أشد وأقطع»، إنها خلاصة ما ورد في «تذكرة أولي الألباب» لداود الأنطاكي. ولا يكفي أن أرش على باقي المساحة علامات التعجب والاندهاش والاستفسار لكي نستوعب، معنى ذلك أن هدهدًا واحدًا يمكنه أن يحل محل مجمَّع طبي، مضافًا إليه ما لا يصلح المجمع الطبي لعلاجه مثل النوايا الحمراء التي ـ عادة ـ ما تشبُّ في الغرام وتمزجه بالرغبات الكاسحة.

ونادرًا ما ترى الهدهد في أسراب كمعظم الطيور، وحيدًا ـ تراه ـ أو مرافقًا لهدهدة، كأنه مثقف أدمن التعالي بعد نشر قصيدته الوحيدة في مكان براق، ثم تراه ينظر حوله بحذر كالغراب، غير أن الهدهد يتمتع بدم خفيف يصل إلى حد إثارة الابتسام في الوجوه الجامدة. ويمكنه ـ إذا أحس بالأمان أكثر ـ أن يقوم بحركات لطيفة ذات مرونة ومرح، الهدهد بالذات يبني عشه في الأغصان القوية للأشجار ـ دون أطرافها، ويكثر ـ كالغربان ـ بالقرب من معامل تفريخ الدواجن، وعلى أشجار الحقول، أي في الأماكن التي قد تتوافر فيها الديدان، وفي حالات أخرى قد يبني عشه في ثقوب الصخور القريبة من الوديان.

وقد بدأ صنف الهدهد في التناقص نتيجة لانتشار المبيدات الحشرية في الحقول، وانتفاء الهدهد من المنظر الطبيعي للريف سوف يحيق بالمنظر قصورًا وعيوبًا تضاف إلى ما اجتاح الريف العصري من قصور وعيوب أخرى سوف تجعل الهدهد نوعًا منقرضًا نصفه لأوَلادنا من الذاكرة ـ إن بقيت لنا ذاكرة.

قادرة على إشاعة السعادة ـ حتى وهي تتجه نحوي في غضب كاسح، لا أقصد زوجتي.

❊

مهمتنا في الحياة أن نقوم يوميًّا بتحطيم الكارثة الكبرى إلى كويرثات صغيرة محتملة قابلة لمواجهتها.

❊

الشرير: شخص يتفرج على غزال الحديقة وفي ذهنه أسياخ على نار.

❊

فعلًا: اليد الواحدة لا تصفق، إنها تطعن فقط.

❊

واضح جدًّا هبوط المسرح الآن: قدَّم شر البلية فلم يضحك أحد.

❊

حتى الصداقة تحتاج إلى موهبة كي تحافظ عليها.

❊

لو أمعنت طويلًا في تابوت مقبرة، داهمك إحساس بعدم القدرة على المغادرة، يحدث ذلك في البيوت أيضًا.

❊

حتى الجبال ـ إن أنست إليها وتآلفت معها ـ تبيح لك الوسيلة التي تصل بها إلى عروق ذهبها.

الببغاء

إنه «البغبغان» ذو الألوان الجميلة، معقوف المنقار، فاضح الأسرار

همس في أذني صديق لا أرتاح إليه طالبًا مني ألا أكتب عن الببغاء، أمعنت في عينيه فرفض أن يزيد، وفي الموسوعة العربية الميسرة لم أجد سوى أربعة سطور، مع أنها أفردت مساحة واسعة للطاووس. وفي كتاب الحيوان لكمال الدين الدميري انهمك في تسجيل شعر هابط يهنئ فيه صديق صديقًا لاقتنائه ببغاء دون اهتمام بمعلومات ذات شأن عن الببغاء ذاته. ولقد كان الدميري كريمًا في وصف الحمام وأنواعه وفوائده، واتصلت بصديق يعمل في مجال ثقافي ويقتني ببغاء، طلبت منه معلومات عنه، فقال إنه يأكل السكر، وماذا عن تقليده لأصوات البشر؟ فأجابني بأن هذا يحدث بالتلقين، سألته: كيف؟ فاعتذر عن عدم الإطالة في الكلام بسبب ارتباطات عاجلة.

كان الملوك ـ وذوو الشأن العالي ـ يقتنون الببغاء في قصورهم

خلال الأحقاب القديمة، وفي القرون الوسطى كثرت الببغاوات وتوسعت اهتمامات الناس بها بسبب حركة الاكتشافات الجغرافية، وما ترتب عليها من اختراق الغابات الحارة، وامتلأت الأسواق بالببغاوات جنبًا إلى جنب ازدهار تجارة العبيد، وحينما ترى الببغاء على أشجار الغابة، بمنقاره الغليظ المقوس، وألوانه الزاهية المتألقة وصوته الصارخ البدائي، فسوف تنتابك اهتزازات الدهشة، إنه يثير في النفس إحساسًا غامرًا بالوجود كله. ولعل الببغاء هو الذي صنع تلك القلاقل والاضطرابات على ظهر سفينة سيدنا نوح بسبب عدم انضباطه وضجيجه وتطفله العارم على الآخرين، ويُقال إن وراء اقتناء القادرين للببغاء سرًّا يتعلق بما يحدث من جلبة وأصوات تفشي ما حدث في بيته خلال فترة غيابه، غير أن الأكثر إقناعًا ـ وبالتأكيد ـ فإن اقتناء الببغاء في البيت يمنح صاحبه متعة كبرى: في تغذيته، ومناورته، ومداعبته، وتلقينه، إن من يردد ما نقوله من أقوالنا وأقاويلنا يستحق الاعتزاز به كما نعرف، لا سيما أنه الوحيد الذي يعيش حتى يصل عمره إلى مائة عام، ربما يكون النسر قادرًا على ذلك أيضًا.

ومن الواضح أن الإنسان منا يسعد كثيرًا حينما يجد في نوع من المخلوقات صفة أو عادة آدمية، أي هذا السلوك الذي يدهشه في القرد وفي الكلب وفي القط، وفي الببغاء، حتى إن علاجًا قديمًا للتهتهة واللعثمة واضطراب النطق أو تأخره، يقضي بتناول لسان الببغاء المهروس بالثوم والمستكة ـ على ريق الصباح، لا شيء

يمكن أن يصبح علاجًا لعيوب وأمراض البشر إلا ما يوازيه من صفات وملكات الحيوانات. غير أن «جيمس فريزر» في «الغصن الذهبي» ينبه إلى احتشاد حكايات قبائل البوشمن الأفريقية البدائية بالخرتيت والطاووس والقرود والسباع والببغاوات، كما أن طير الببغاء يدخل مضمون أغنية تتوسل بها القبيلة للشجرة المباركة أن يفك الله عقدة لسانهم، وأن يمنحهم الزاهي والقشيب مما يسترون به أجسادهم، إنها الألوان الصارخة التي يتمتع بها الببغاء، كما أن أغنية أخرى ـ مثل أغنيات المهد ـ تنبه فيها الأم وليدها بألا ينزعج، فالصوت المتوحش القادم من السماء هو لببغاء طيب، والذي نحب أن نراه بأنواعه المختلفة والتي أشهرها الكندر والدرة.

وينسب للببغاء مذهب الببغاوية، والذي يفسر تماسك الأنظمة كلما ارتفعت فيها نسبة هذا المذهب، فالببغاوية تنشط في نقل أشكال المؤسسات أو المصطلحات الثقافية دون إمعان. أي أنها ـ في جانب موازٍ ـ تعني نقل الكلام بصفته أصواتًا دون الوقوف عند معناه، وفلسفته، أي تجنيب العقل جهد حمل المعاني إخلاء للمسؤولية، وهو ما يُسمى بالحياد المهني أو العقلي أو العصري المنتشر في المؤسسات العسكرية والإعلامية، والمدارس أيضًا، وفي كثير من شؤون الأديان يحملها المنتمون إليها دون تحليل، وهو ما ينهى عنه الدين الإسلامي الحنيف.

والعامة لا تنطق كلمة «الببغاء» بل تقول: البغبغان، وهي لفظة أكثرَ مناسبة من الببغاء للمعنى ولتكوين البغبغان في ترديد المقاطع

والبغبغة بها دون إدراك لأي معنى، تمامًا مثل كثير من المطربين، وناقلي الأخبار، وكبار الموظفين، وبطانة الحكام، والمستثقفين.

وعندما تتاح لك فرصة اقتناء بغبغان سوف تحس أنك شخص مميز، لا يهمك ما سوف يقوله البغبغان عنك للآخرين.

كلمات لها معنى

ليس الصعود هو الذي يحتاج إلى سلالم آمنة، إنه الهبوط يا صديقي.

*

كلما ابتعد المخ عن الأمعاء ازداد الجسد شموخًا.

*

لم يعد القلب يدق في ألفة حميمية، لقد أصبح الفؤاد فندقًا من كثرة العابرين.

*

لها بصمتها: الإصبع والشفاه والقدم والصوت، الأخطر من كل ذلك: بصمة العيون.

*

مناجم الذهب تبدو للجاهل كهوفًا خربة.

*

لا يخيفك أن يكون الهدف بعيدًا، المعضلة أن يكون متحركًا أو مراوغًا.

*

هذه خدمة أساعدك بها، انظر للطريقة التي يتناول بها ضيفك كتابًا أو مجلة، بعدها يسهل الدخول معه في أي كلام.

*

كثير من شواهد الأحياء أقل رونقًا من شواهد القبور.

طريق البجع

من السماء إلى بحيرات الموسيقى

ظللت الدهور الأولى من عمري ـ التي تتجاوز عشر سنوات ـ أتقافز بين الحقول (المروج أفضل) كي أرى سبعًا أو فيلًا أو غزالًا أو بجعة. كانت كتب المدارس الأولية ـ آنذاك ـ ترسمها في أشكال جميلة تحت أول حرف فيها، وقد أدى ذلك أن داهمني ـ تحت فراش الشتاء القارس ـ أسد مروع ألقى بي مرتاعًا في اليقظة، وكادت خيالاتي تتجمد خشية الوقوع بين براثن ما لا أستطيع دفعه. لكن البجع احتل موقعًا متميزًا في خيالي حينما اتضح لي أن ثمة دربًا يخترق غابات النخيل والحقول يبدأ بعد بيتنا ـ المنفي بعيدًا عن القرية ـ ويتجه إلى الجنوب حيث المدينة المضاءة بأنوار الكهرباء، ويطلقون عليه طريق البجع، لا بد أن البجع عاش في منطقتنا، وبدأت الاستفسارات البدائية ـ الصبيانية ـ تخرج من خيالي سعيًا وراء البجع الخاص بنا، والمنطقة مليئة بأنواع من طيور الحدأة والغراب والهدهد والبومة وأبو فصادة والصقر

والعصفور وأبو قردان دون أن يكون لها طريق باسمها، وأبي ـ الفلاح ـ الذي كان يحفظ حكايات أو مغامرات أبو زيد الهلالي سلامة ودياب بن غانم وعنترة بن شداد ضللني بإجابات تبدو مقنعة (وليست مشبعة) بأن البجع هو الذي كان في الأصل صديقًا للفلاح، ثم لم يلبث أن هجر المكان تاركًا جماعات أبو قردان بصفتها أبناء البجع وورثتها. لكن الأمر بدأ يزداد وضوحًا غامضًا حينما عرفت أن البجع ظل يعيش في منطقتنا أبيض ذا كبرياء وأناقة، ثم اختلط بالغربان لتظهر بجعات ذات بقع سوداء تشير إلى السلوك الدنس الذي لا يصح أن يشوب حقولنا الطاهرة ـ دعك مما عرفته بعد ذلك عن طهارة هذه الحقول الرائعة، فلم تلبث الرياح العاصفة أن داهمت النخيل والنجيل وأسراب البجع لتضع النهاية المأمولة لهذه المأساة.

غير أني لاحظت عدم غياب البجعة عن استعمالاتنا الكلامية، فالذي يرتدي جلبابًا جديدًا، ويسير متهاديًا ضخم المنقار ـ مع أهمية انضغاط دماغه إلى الخلف: يوصف بالبجعة، والذي يقف طويلًا ـ وفي سكون ـ وهو يرمق الذين حوله دون تحريك رأسه أو عيونه، ثم يندفع فجأة لينادي بصوت مقلق، فإنما هو بجعة. وثمة تجربة شخصية أيام أن كانت ابنتي صغيرة لا يتجاوز عمرها ثماني سنوات، إذ إنها كانت تتفرج على البجعة الساكنة الصامتة من بين أسلاك موقعها في حديقة الحيوان بالجيزة، وظل كلاهما ـ ابنتي والبجعة ـ يمعنان كل في الآخر، وفجأة اندفع المنقار الضخم للبجعة ـ صاروخًا ـ لينقر عين ابنتي. الحمد لله أن الطبيب الذي لجأنا إليه في تلك الظهيرة الدموية

المرعبة، اكتشف أن سن منقار هذه البجعة هتك أسفل رمش العين بمسافة قصيرة. عرفنا ـ بعد ذلك ـ أن البجعة تظل ترقب ما يكون دقيق الحركة ثم لا تلبث أن تهاجمه: نُني عين ابنتي (أي مركز نظرها) كان الهدف الأصلي.

وفي بلادنا ـ مصر ـ بدأت أنواع البجع تندثر، صيدًا أو هلاكًا بالمبيدات الحشرية المتسربة من استعمالات لا علاقة لها بمحاربة البجع. وفي منطقة الفيوم، رأيت بجعات معدودات تقف قريبًا من مستنقع ماء واسع في هذا المكان البري الرائع: وادي الريان، ولعلها المرة الوحيدة التي رأيت فيها البجع بعيدًا عن حديقة الحيوانات، ولعل المحميات الطبيعية التي انتشرت في بقاع كثيرة تحقق الأمل كي تعود البجعة طائرًا شعبيًّا، والتي لها حضور واضح في أذهان أهلنا، ولا سيما أن هذا النوع من الطيور يعيش في جماعات كبيرة قد تتجاوز الأسراب العادية، إنه عائلي اجتماعي تجذبه المناطق الدافئة، مع أن الذي خلده كان الموسيقار الكبير «تشايكوفسكي»، الروسي ـ أي من المناطق الشمالية الباردة، في عمله الشهير «بحيرة البجع»، ويُعد أكثر الأعمال شعبية سواء في إعداده باليه له رونقه على خشبة كل مسارح العالم، أو فيما توالد منه أعمالًا في رسوم الكارتون، أعظمها ما قامت به مؤسسة «والت ديزني»، الموسيقى ذاتها ـ دون رسوم أو تشكيل راقص ـ من أرقى أنواع الفنون في العالم، متعة فائقة للذهن الذي يود أن يتابع كل هذا النغم الجميل. ويعتبر علماء الطيور أن البجع قريب لغراب البحر والأطليش، لا تقف كثيرًا أمام هذه الجملة التي قد تجبرك على الخروج على

ما يرد من تعريف علمي، يكفي أن نعرف أن البجع كبير الجرم، ضخم المنقار ومعقوف في نصفه العلوي، وللسفلي كيس يختزن فيه الأسماك، وفي بلادنا ثلاثة أنواع: الأبيض، والرمادي، والبلقاني، وطول جناحه يصل إلى ثلاثة أرباع المتر، وبأمريكا أنواع عدة: الأبيض الكبير، والبني الشرقي، وبجع كاليفورنيا الذي يطلقون عليه جمل الماء. هذا بالنص ما جاء في موسوعتنا العربية مع أني بحثت عن البجع في حياة أهلنا الأقدمين، فما عثرت عليه، ربما يكون قد اختفى داخل اسم آخر حالت قدراتنا ـ المحدودة ـ دون الوصول إليه. ومع أن المصريين القدماء ـ كمثال ـ رسموا أنفسهم على جدران المقابر والهياكل مع عدد وافر من البط والإوز والجديان (ذكور الماعز) والثيران والقطط والصقور والغربان، إلا إن البجع لم يظهر فيما رأيت، وفيما بحثت، مع أننا ـ في طفولتنا وصبانا ـ رأينا البجع مرسومًا ـ حتى ـ على أغطية زجاجات الحبر ومحفورًا على أبدان الأقلام: هل تذكر «البليكان»؟

دعك من اكتشافي ـ بعد ذلك ـ أن كل ذلك وارد من أوروبا ـ خارج المناطق الدافئة، لكن الأمر ظل سادرًا حين تدلل أمي أختي الصغرى التي تحبو فتقول: إن كنت فاكرة نفسك بطة: تاكلك قطة (أي سوف تأكلك القطة)، وإن كنت شايفة نفسك بجعة: القطي ودعة، أي التقطي واحدة من الودع المنتشر على الشواطئ والذي يتفاءل به القرويون (ومنه جاء ضرب الودع)، حيث تصبح أمي خير من أشار إلى البجع، دون أن تعرف ما قام به «تشايكوفسكي»، أو أي منافس آخر.

جمود أو تعصب: لا السماء زرقاء، ولا البحار أيضًا.. أخشى أن يمتد ذلك الوهم إلى خضرة الحقول وهمسات المخلصين، أقصد صفرة الرمال.

*

كل الطرق تؤدي إلى روما ـ بإذن من واشنطن.

*

أجمل ما في العالم تلك المنطقة التي لم يتطرق إليها أحد، ولا أحد منَّا يعرفها.

*

لا تنظر إلى تشكيل وجه الثعلب ـ بحثًا عن المكر، انظر إلى سلامة ذيله.

*

كل الشواطئ تعاني من المخلوقات البرية.

*

الذاكرة تعمل لحساب صاحبها، عدا ذاكرة المؤرخ الحقيقي.

*

حتى زرِّ الجرس الموضوع على جانب الباب الخارجي، لم يستطع أن يلغي من أصابع الأنثى هذا السحر الرقيق الذي يصاحب تلمسها الإذن بالدخول: كانت أكثر سحرًا في عصور الخبط الأنيق على الباب ذاته.

*

تتكون ساعة الحزن من خمسين عامًا على أدق الفروض.

أبو قردان

صديقنا الجميل الذي يقود أوركسترا ضوء الغروب

تصورت ـ بناء على أفكار قروية ـ أن طائر أبو قردان هو الأبيض الهادئ الطيب، والذي يرفع عينه يرمق الأشياء والعابرين دون أن يفرط في مراقبة دود الأرض، وهو المرسوم في الكتب المدرسية بصفته صديقًا للفلاح المصري لاشتراكه مع الهدهد وأبو فصادة في تنقية الأرض الزراعية من الديدان والحشرات، لهذا السبب أيضًا صدر القانون المصري الذي يجرم صيد هذه الطيور. لكن هذه الأفكار القروية لم تلبث أن تطايرت وتشتتت بعد التجول ثلاثة أيام حول بحيرة قارون الشهيرة على أطراف محافظة الفيوم، إذ إن عددًا من الطيور الخائضة يشارك أبو قردان ـ القروي ـ كثيرًا من الصفات الظاهرة: طول العنق والساقين والجناحين، وتقتات على الأسماك والضفادع والحشرات. منها الأبيض الناصع ـ وهو المنتشر في الحقول ويواجه الفناء والاندثار بسبب استخدام المبيدات الزراعية، ثم الذي في بياضه ميل إلى الرمادي وله اسم شاعري هو

«مالك الحزين»، وقد عرفت أن منه أنواعًا سوداء، ربما هي تلك التي يطلق عليها غراب الليل، ثم البلشون الشهير في أشعار أهل النوبة. وعلميًّا فإن جميع هذه الطيور تخضع لفصيلة البلشون، كان واضحًا أن بعض أنواع الطيور المتعددة حول بحيرة قارون جاءت مهاجرة في بدايات المواسم، أو هربت من عمق وادي النيل خشية الفناء، وأن البحيرة تحميها وتصنع لها المأوى. وكان أبو قردان قد تألق في عيون المرافقين بعد اكتشافهم اهتمامي ـ المؤقت ـ به، فداهمتنا رغبة صبيانية في مشاكسته. كانت أضواء غروب الشمس المتسللة من سحب الخريف قد صنعت من أبو قردان ـ طويل الساقين والرقبة ـ تشكيلًا موسيقيًّا يحول دون المعابثة، إنه المايسترو في أوج الاندماج، أو الفيلسوف المستغرق في التأمل، أسراب العصافير الطفولية المتشاكسة حطت حول جماعة أبو قردان في ضجيج مرح لتزيد اللوحة حيوية.

ومع أن الكتب تقول إن نوع الطائر أبيس الذي قدسه المصريون القدماء مختلف عن أبو قردان، فإن المراقب لصورتيهما لا يستطيع الاطمئنان لذلك، فكلاهما يخضع للقب «أبو منجل» المنتشر في القرى، حتى لو كان أبو منجل ـ أو أبيس ـ يحمي الدولة من غزو الحيات المجنحة في العقائد المصرية المندثرة، إلا إن أبو قردان سيظل رمزًا للهدوء والسلام (أكثر من الحمامة التي تستخدم رمزًا للسلام الآن)، كما أنه ذكي، إذ نادرًا ما نجح أحد في صيده. وعندما يطمئن إلى الفلاح المنهمك في ري زراعاته، فإن أبو قردان يقترب أكثر، وتظل البقع البيضاء التي يمثلها موزعة على المساحات

الخضراء، مشهدًا شديد الجاذبية، فإذا أحست بخطر ارتفعت في الهواء حتى لا يتعرض لها شيء، وتظل تعلو حتى تكاد تختفي، يقود سربها المتداخل في تموجات: واحد فقط من أبو قردان، وهو الذي يأذن لها بأن تحط. وفي المساء ـ أي قبل أن يحل الظلام ـ تظل أسرابه تتماوج في الآفاق في استعراض ممتع، بعدها تتسلل إلى أعشاشها، والتي تنتشر ـ عادة ـ في أعالي أشجار الكافور. ولعل ذلك ما دفع أهل المدن إلى الغضب حينما صعب عليهم المرور حول حديقة حيوانات الجيزة ولا سيما في الصباح المبكر أو أوائل الليل، كانت إفرازات هذه الطيور الهاجعة فوق الأشجار المحيطة بالحديقة: تلوث ملابس الجماعات المتجهة لعملها أو عائدة منه، وقد قامت الإدارة بإزالة عدد من تلك الأشجار قبل أن تثور جماعة حماة البيئة، وكان ذلك يهدد جماعة أبو قردان على وجه التحديد. لاحظ أن سقوط هذه الإفرازات فوق ملابسنا نحن القرويين يعني أن نتوقع كساء قريبًا.

فأبو قردان ـ صديق الفلاح المصري ـ يعتبر رمزًا للتفاؤل في الصباح، ورماد ريشه يوضع في تميمة يحملها تحت الإبط من يكون مصابًا بالصرع أو بالهياج الذي يعرضه للخطر. وكانت عظام أبو قردان تسحق لتصبح بهارًا ـ أو ملحًا ـ يرش على مأكولات فاقدي التوازن ـ أي هؤلاء الذين يصعب عليهم الوقوف دون اهتزاز، ولعل لقبه هذا ـ أبو قردان ـ يرجع إلى اتزانه وعقلانيته التي تفوق ذكاء القرد (وللمثنى المبالغة الخاصة)، كما أن الريشات الواقفات في ظهر بعض أنواعه، تستخدم في حشو القطن الخاص

بالوسائد والمخدات، أملًا في وفاق العرسان، ونجاح جهودهما في الإنجاب.

وأبو قردان يخشى الرمال والضجيج والدخان والضباب، كما أنه يحاذر الروث وأكوام السباخ، ولا يقترب من المياه ذات التيار في الترع والجداول، وهو ما يجعله مستكينًا ومستريحًا لمساحات الأرض المروية دون قلق. ليس هو فقط، بل كثيرون منا أيضًا، إلا أنه يفوقنا في أمر بالغ الرقة والنعومة والحب، لن تراه أبدًا متناحرًا أو متشاجرًا مع أي فرد آخر من جنسه، أو من أي أجناس أخرى، ثم يصل إلى روعته في الانتظار المبكر لطلوع الشمس، ثم التشكيل المنمق لأسرابه انتظارًا لغروبها آخر النهار حيث ـ بعد ذلك ـ يصعد في تشكيلات متعددة ليتماوج اقترابًا وبعدًا في الآفاق المفتوحة.

كلمات لها معنى

أجمل ما يربطنا بمرحلة الشباب: قدرتنا الفائقة على أن نتكلم عنها، صدقًا أو افتراء.

*

الصفاء حالة عابرة، إن تشبثنا بها، تبدأ فتفرز نوعًا من البلادة.

*

البلاد التي نزورها لن تكون هي البلاد إن عشنا فيها.

*

هذا الذكاء المبكر: البعض يقول لزوجته ـ بمجرد الإنجاب: «يا أمي».

*

لا أعرف ماذا كان سيحدث لي لو أني عشت أعوام عمري الأولى في بيت كبيوت المدن: يخلو من الطيور.

*

مع ما في الجبر من رحمة حين يتعلق بالخواطر أو العظام، ومن قدرة عقلية حين يكون علمًا رياضيًّا، إلا إن أمر الجبر يختلف إذا ما تعلق بنظم الحكم.

البومة

التي لا تزال صفة في اللعن، ورمزًا للشؤم ـ في الشرق، والحكمة في الغرب

من بين ما فعلته المدن الحديثة أنها طردت البومة (أم قويق) من أجوائها، فنادرًا ما نسمع هذا الصوت النائح، محتويًا على أنغام فاجعة لأرملة أو ثكلى لا تزال ترغب في الانتحاب أو النواح، صوت يتدرج في تصاعد خشن بالغ الإقلاق، لكن البومة ـ ذاتِها ـ ظلت صفة لاعنة متشبثة بكلامنا في التخاطب الغاضب أو المحتج أو المتشاجر حتى لو لم نكن قد رأيناها رأي العين من قبل. ولا يوجد مخلوق ارتبط بالتشاؤم في منطقتنا مثل أم قويق، والتشاؤم أدى إلى اللعان ـ أو الملاعنة ـ أي الوصف الجارح ـ أو السب الهادئ في المزارع والأحراش، وفي القطارات والفنادق الفاخرة، وفي اليخوت ـ المراكب الفخمة الصغيرة ـ أو في الطائرات، «عامل زي البومة» ـ أو مثل أم قويق ـ تخرج من الأفواه ساخنة أو رصينة أو مرحة أو بالغة التعدي السافر، كي نبدي رأيًا لا يحتمله منطق الآراء إزاء السائق أو الساقي أو حامل الحقائب أو كاتب المقال

أو رئيس وزراء أو زوجة مملة أو صديق فاقد الهمة أو البصيرة. وعندما كنت أعمل بمكتب أحد المحامين جاءنا من يود أن يرفع دعوى تطليق ضد زوجته، كان الرجل قبطيًّا مصريًّا، تحتاج دعوى الطلاق عندهم إلى إجراءات عديدة ومعقدة، بسبب خلو عقيدتهم من الفصل بين الزوجين إلا لأسباب بالغة التحقق. وكانت الزوجة قد رفعت جنحة جنائية ـ عن طريق النائب العام ـ لعقاب زوجها على عدة شتائم في أوقات مختلفة، وصفها فيها بأنها مثل أم قويق، وفي حديثه أشار الرجل مرارًا إلى الدمامة والقبح اللذين تتصف بهما زوجته، وخلال تحريك دعواه بالطلاق فوجئنا بمدى جمال هذه المرأة، حتى إن القاضي ـ في أولى الجلسات ـ راعه أن يشتمها زوجها بلفظ البومة أو أم قويق، وخلال المناقشة كان القاضي شديد الاهتمام بالكشف عن أسرار خاصة بينهما قد تكون هي السبب السري غير المعلن وراء الأمر كله، حكم القاضي بالطلاق في الجلسة الثانية مباشرة تاركًا القضية لمن يود الاستئناف أو الطعن، بعد ذلك بشهور قليلة عرفنا أن هذه البومة ـ الجميلة ـ الفاتنة تزوجت من كاتب سر المحكمة.

والبومة معروفة في جميع أنحاء العالم، وعندنا ـ في منطقتنا ـ ترتبط بالشر والشؤم، أما في البلاد الأخرى ـ في أوروبا مثلًا ـ فيرمز إليها بالحكمة دون أي صفات شريرة أخرى، وهي من أشهر الطيور الليلية، جارحة، أقدامها كبيرة ذات مخالب حادة قوية، ومنقارها معقوف، وعيونها قادرة على التكيف لتصبح قادرة على الإبصار في الظلام، تقضي النهار نائمة في كوات جذوع الأشجار أو بين كثيف الأغصان، كذلك فإنها تفضل الكهوف لو أنها قريبة من الجبال، وهي

متعددة الأنواع، وأشهرها هذا الذي نستغل وجهه المشابه لرسم القلب في الفن التشكيلي ـ الرسم والنحت ـ وهي قادرة على الثبات دون حركة، فترة طويلة كي تفتك بالقوارض ـ الفئران ـ والثعابين ـ والحشرات، وبعضها له ريش فوق رأسها كالقرنين.

ومن أشهر القصائد الموروثة في الأدب الإنجليزي قصيدة كتبها المسمى «نيكولاس» من ناحية «جيلد فورد» حوالي عام ١٢٠٠ ميلادية، وهي مناظرة أو محادثة ـ تكاد تكون مدرسية ـ بين البومة والعندليب، يحاول كل منهما أن يتفوق على الآخر في ذكر محاسنه الظاهرة والخافية، ويعتبرون القصيدة من أبدع الشعر الإنجليزي الذي يرمز إلى الجدل بين مدرسة الشعر التعليمي، والمدرسة الجديدة التي تنادي بالحب والعشق وتمجيد الحياة.

وأخطر أنواع البوم في حياتي هي تلك التي كانت تطلق صوتها المخيف في السحر، في هذا الوقت الصامت عندنا في الريف القديم، من فوق واحدة من النخلات السبع التي كانت في ساحة بيتنا خارج القرية، وكنت أرتعب كلما ازداد الصوت نواحًا حتى إنني أمعن ـ في ظلام الليل ـ بين فواصل خص البوص الذي كان السقف الوحيد لنا، وعندما كانت أمي تنتبه إلى وجلي كانت تطارد في الباحة وتحت النخيل ما تود أن أفهم أنها خلصتني منها، ثم كانت تلك البومة التي كانت تنتحب فوق مبنى معمل بيض لتفريخ الكتاكيت. وكان الليل الشتوي القارس يستشرف الفجر حين تختلط الأصوات المنزعجة فجأة، صوت أم قويق الذي ينهش اقتناصًا فئران البيض الفاسد. في كتاب العديد ـ أو التعديد ـ أي القصائد الشعبية للنواح فوق رأس الميت، أو وداعًا

له، تأتي أم قويق في كثير من مقاطعها: «قالوا لي إيه اللي صحاكِ، وإيه اللي شال المرار وياكِ، أنا قلت وش القويقة كان مستتني، نجمة الصبح انكسرت على البنِّي، عرفت إن اللي حاصل هيتردم وياكِ» و«العدوة» تخاطب امرأة ثكلى أو أرملة، وتخبرها بأن الذي أيقظها مبكرًا، وشاركها الموقف المرير، هو وجه البومة الذي ظل منتظرًا حتى انكسرت نجمة الصباح ـ رمز التفاؤل الشعبي ـ تحطمت فوق البنِّي ـ وهي واحدة من البناني التي يركن إليها الحمام وأفراخه ويعيش فيها. وتشير الناحبة إلى أن كل رموز التفاؤل والخير ـ نجمة الصباح والحمام وبيته ـ سوف يردم عليها مشهد وجه أم قويق المفعم شؤمًا.

ورهبان الأديرة يصابون بالضيق والتوتر، مما يدفعهم للخروج عما اتصفوا به من تفادي العدوان والأذى، وليتخلصوا مما قد يمر عليهم من مثل هذه الطيور التي قد تقيم أعلى ساريات قباب الأديرة ـ أكثر مما يجب، فإنهم يستعينون بمن لهم دراية في مطاردتها أو حتى قتلها، كي يخلوا تمامًا إلى العبادة الليلية، التي تضطرب تحت وقع هذا الصوت الشرس الذي يتسلل إلى الأعماق البشرية فيقلقها ـ مهما اتصفت بالهدوء والسكينة والإيمان.

كلمات لها معنى

جميل أن تكون يدك إلى أعلى. الهجوم أو الاستسلام ـ أيضًا ـ يحتاجان إلى ذلك.

*

سعيًا إلى الأغنام، تفاجأ الذئاب بأنها أيقظت الكلاب أيضًا.

❋

حتى السريالية ـ التي رفضت الرسم الطبيعي وخرجت عليه، تتحقق بسهولة في مياه اخترقت ظلال النباتات، وتركت القمر يتمزق في تنميلات المويجات الدقيقة بين الفواصل والفتحات.

❋

مشهد لا ينسى: بطن قدم حافية لفاتنة وحيدة، تتلمس بوادر التقاء الماء بالرمل.

❋

أمعنت كثيرًا في عيونك الجميلة، ابتعدي قليلًا كي أعود إلى بيتي.

❋

كثير من الذين يتصفون بالأمانة: لم يختبروا بعد..

❋

لماذا تغضب حين تستهلك الصداقة عمرها الافتراضي؟

الحوت

عملاق المحيطات الغائص في الحكايات القديمة والحديثة

فتنت فترة ـ في وقت مبكر ـ بمار جرجس ـ أو غيره من قديسي النصارى ـ الذي واجه التنين ذا النيران المشتعلة المتأججة من فكه المرعب، كان يركب حصانًا أبيض وقد التوى بجسده للخلف ليخترق رمحه جسد التنين، فأكاد أحس بأوار اللهب يشع من اللوحة، غير أن الفتنة ـ فتنتي ـ تراجعت، وبسرعة مذهلة لتتركز حول حكاية سيدنا يونس، الذي فر من قومه إلى مركب مشحون، ثم لم يلبث أن سقط منه في البحر فالتقمه الحوت، ولأنه صبر على بلائه فنجاه الله ليظل بطن الحوت له ملاذًا ومقامًا، ثم نبذه على شاطئ بالعراء وهو سقيم، ليعود فيكمل رسالته، كانت حكاية يونس والحوت أكثر «درامية» وشدًّا لأنظار أبناء الفقراء المسالمين، إلا إن الأمر سار فيما هو أخطر، فقد فشلت في تصور شكل الحوت، المكان الذي نشأت فيه على بضع ترعات وجداول على نهر النيل، يمكنه أن يقدم لي سمكة

طولها متر، أو ذراع، على أحسن الفروض، والكتب التي بأيدينا ترص على صفحات العلوم أنواع السمك القروي النيلي الذي يصلح أن ينام في صينية تصلح بدورها للدخول إلى بلاطة الفرن، دون زيادة، ولا يظهر أثر كبير للحوت في الحكايات الشعبية كما تظهر فيها العفاريت والغيلان.

بعد كل ذلك بسنوات داهمني هذا الروائي الأمريكي الفذ «ملفيل»، في روايته المتفردة: «موبي ديك»، كان «إهاب» بطل الرواية بحارًا متخصصًا في قيادة سفن صيد الحيتان في المنطقة الشمالية من الدنيا ـ وهي التي تقع بين جرينلاند وأطراف كندا والولايات المتحدة الأمريكية ـ وكان هذا القبطان أعرج بسبب مداهمة حوت لسفينته ثم مهاجمة الحوت له شخصيًّا مما أودى بساقه، ومن يومها وأصحاب السفن لا يرتاحون لهذا القبطان بسبب تراخيه عن صيد الحيتان مقابل البحث عن الحوت الشرير الذي دمر حياته، ولذا فقد كان يخرج في رحلات الصيد إلى آفاق المحيطات على السفن المتعبة التي لا تساوى ثمنًا كبيرًا (التي مضى عمرها الافتراضي)، وخلال ذلك كان الروائي «ملفيل» يفتح فصولًا مستقلة ليصف صيد الحيتان، وإخراج الزيت، وفصل الغدد التي بها العنبر الشهير، لقد كانت الرواية دائرة معارف عن الحوت، حتى كدت أنجح في تصوره، هذا التصور الذي استكملته ـ بعد ذلك ـ من السينما (عن نفس الرواية)، ثم أفلام «والت ديزني» ـ الطبيعية أو الكارتون، فأحسست حينئذ بمدى ضخامة الحوت، الذي يعد أضخم المخلوقات في العصر القائم ـ بحرية أو جوية أو برية.

ولذا فإن الحوت يتمتع باهتمام عند عالم الحيوان العربي: الدميري،

وفي مجال الإدراك الشعبي حين رمز لكل قادر على التضخم المادي بالحوت، وانتشرت صيغة الجمع ـ حيتان ـ على فصيلة من لا ضمير لهم من ذوي الثراء والجشع في العالم الثالث (ظهرت هذه الصفة في عصر الرئيس أنور السادات في مصر)، ثم انزاحت ـ هذه الصفة ـ إلى ذوي الجشع والجهل، لكن اللفظ ـ الحوت ـ لم يسحب أثره المروع في خانة التصور الشعبي بصفته يرمز للمجهول الغادر، نرى ذلك بوضوح في صياغة أحجبة العداء والغدر بالأعداء والتي يربطها «الحجَّاب» في رقبة قرموط سمك كبير ويعيده للماء، لماذا قرموط السمك: لأنه قادر على الاستمرار حيًّا بعد صيده بساعات تصلح لأداء ربط الحجاب، ولأن شكله الانزلاقي يجعلنا نتصور أنه سوف يلتقي الحوت آخر النهار.

ولا أعرف علاقة القدماء الموغلين في فجر التاريخ ـ كالفراعنة ـ بالحوت، إلا إن كثيرين يرجعون رحلة السندباد ـ سواء التي فيها يطير به طائر الرخ أو التي فيها يقع مرهقًا على جزيرة، يكتشف أنها حيوان متحرك ـ والرحلة الحديثة الإنجليزية لـ«روبنسون كروزو» للروائي «دانيال ديفو»، والرحلة الأسبق التي دونها «وليم داميير»، كلها تعود لرحلات الفراعنة في المحيطات ـ الهندي بالذات.

كلمات لها معنى

بعد حظر أكل الخبز والملح عن المصابين بارتفاع ضغط الدم: تفشت الخيانة بين الناس.

*

لا يزال لقب الزعيم يرتبط جذريًّا بالزعم.

❊

الطلق الكاذب: نوع من الهواء الماكر يداعب امرأة موهومة بالحمل.

❊

عند انتفاخهما أكثر مما يجب يتمزقان: البالونة، والأخلاق الكريمة.

❊

فور تدريب الجواد على الجر: تضطرب به وسائل التراقص الجميل.

❊

الدنيا على كف عفريت، لا تفرح، هناك كف أخرى.

❊

كانت أمواج البحر تزحف حتى تصل إلى قدميها، لتقبلها، وتتراجع.

❊

الأفكار المختلفة كالجثث: تتعفن في المياه النظيفة.

❊

لا تزال قوة الصداقة كامنة في أطرافها التي تسير بها على الأرض.

النمل

هذه الدويبة الدؤوب المنظمة الشجاعة، ومملكتها الواسعة

كان المخرج السينمائي «سيسيل ديميل» مفتونًا بالمشاهد البانورامية المتسعة التي يبدو فيها البشر يسعون كالنمل، ولا سيما خلال الحالات الدينية التي يهيمن على الناس فيها التبتل والامتثال في اتجاه واحد. ولم تكن صورة النمل الكثيف الدؤوب تفارقني خلال العمل في مشروع السد العالي جنوب مصر. كانت الساحة رحبة شاسعة مفعمة بالدقائق المتحركة، وعندما كنا نوغل في الصحراء بحثًا عن موقع مناسب ليصبح محجرًا لاستخراج رمل ذي مواصفات خاصة كان النمل أول ما يظهر فور الاستقرار. وكان النوبيون والأسوانيون الذين يشاركوننا العمل يتفاءلون بظهور النمل، إن ذلك يعني أن المكان صالح، مع أن ذلك يعني ـ من ناحية أخرى ـ أن «الطريشة» تقبع في مكان غامض، وهي نوع من الثعابين الخطيرة التي تظل مدفونة تحت سطح التربة، ثم تقفز رأسيًّا إلى حيث تصيب

العابر في وجهه إصابة تودي به. ولعل هذا النوع من الثعابين هو أخطر ما كان يواجهنا في الصحراء المصرية الغربية، والإبل ترتعب وتفر هاربة حين تلمحها، ويقال إنها تشم رائحتها قبل أن تراها. وفي الحالات التي تتعرض «الطريشة» للموت فإن النمل يتجمع حول جسدها في دأب وصفوف منتظمة يسترشد بها من لهم الدراية بتطهير الموقع من الثعابين والعقارب. إلا إن الأمر يتطور بعد ذلك، فبقدر ما يمنحنا هذا الكائن تفاؤلًا لسلامة المكان ـ أو هكذا نتصور ـ فإن النمل لا يلبث أن يتكاثر دون أن يترك شيئًا يستعصي عليه من ملابس أو أغذية أو مشروبات أو حبوب، وأي مادة قد تكون فيها رطوبة أو عناصر السليلوز، حيث يكون النمل ـ حينذاك ـ سببًا مباشرًا للهجرة من الموقع، ولا سيما أن لبعض أنواعه ولعًا بالخشب، وهو الأمر المشهور بفواجعه في العالم كله: قرية كاملة في الأرجنتين، وبيوت الفيوم (في مصر)، ثم تلك القرية في السودان التي انهارت على ساكنيها. إن النمل ينخر الخشب في دأب وإصرار، وكلما كان الموقع مظلمًا أصبح أكثر تلاؤمًا للتخريب. وقد رأيت قاعة جلسات مجمع اللغة العربية المتألقة والمصنوعة كلها من الخشب الفاخر الذي تم إعداده وتجهيزه على طراز الأرابيسك العربي الدقيق، الجدران والمقاعِد والسقف، كل القاعة، والتي من باب الحرص على نظافتها وصيانتها تم إغلاقها، وبعد شهر تحولت إلى ركام أخشاب، والذي قام بذلك التخريب هو النمل الأبيض (الأرضة)، والذي يعتبره علماء الحشرات نوعًا مستقلًّا لا صلة له بالنمل المعروف، وفي الصعيد المصري يعيش نوع من النمل الأسود الكبير نطلق عليه

«أبو العقيص»، له قدرة فائقة على محاصرة عيدان القصب واستحلاب المخزون فيها من عصير السكر، وأعتقد أنه النوع الذي يرسمه كثيرون على أكتافهم وأذرعهم بطريقة الوشم. كما أن البعض يزعم أن حكاية سيدنا سليمان مع النمل كانت مع «أبو العقيص» هذا، والتي كان النمل فيها يخشى سيدنا سليمان بعكازته الشهيرة، وكانت أول اختبار يجرب فيه النبي سليمان نعمة الله عليه لأنه يعرف لغة الإنس والجن والحيوانات. ولعل ما ورد في كتب المستكشفين والرحالة عن النمل يفوق ما نعرفه عنه، في النظام والعمل والقدرة الفائقة على إنجاز الخطة السرية أو البرنامج الذي أودعه الله له في عقله أو كيانه أو قلبه، ودعك من المعلومات المدرسية عن نظام مملكة النمل بما فيها من الملكة والعمال والذكور. وانظر إلى ما ورد في فيلم سينمائي ضخم قام بتمثيله الأمريكي «هيوستون» «الغابة»، والذي دحر فيه أهلها وسكانها في منطقة الأمازون بأمريكا الجنوبية، وبدأ يقيم مستعمرة من خشبها وسط أشجارها، فإذ به يكتشف أن الأرض تخرج من جوفها جيوشًا من النمل المداهم الذي أحال المستعمرة إلى خراب، وهو ما استفاد به «والت ديزني» في أحد مشاهد فيلم «الأميرة والأقزام السبعة». ويذكر «لورنس» في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» شيئًا عن أطلال قرية في جنوب شبه الجزيرة العربية ويشير إلى احتمال أن يكون النمل وراء تخريبها. كما أن كثيرًا من القصص العربية القصيرة واجهت ما يحدثه النمل في نصوص لعبد الله الطوخي وجبرا إبراهيم جبرا، ويشغى الشعر الحديث ـ والحداثي ـ بالنمل الخاص به يسعى وسط نثار النثر، لكن الذاكرة لا تستطيع الإمساك

بالفتافيت (أو الفتات أصح)، حتى لو كانت ممالك النمل الشعرية هي البديل المجازي لإمبراطوريات البشر.

كلمات لها معنى

الفرق بين دوار البحر ودوار الحب: أن الأول يتيح لك فرصة الوقوع على ظهرك.

❊

حتى الماء يشعر بالحرج حين تقترب منه الدهون.

❊

لم يعد الأمر يتوقف عند أغنياء وفقراء، بل عند من يدرك ومن لا يستطيع الإدراك.

❊

كل هذه الخضرة الممتدة تحمل في تموجاتها بندقية تترقب، إنه الجحيم الجديد.

❊

النقاد غاضبون على الشعر الحداثي، مع أنه يثير المرح.

❊

تطيل الأنثى العصرية أظفارها، كي لا تنتبه إلى أنيابها.

❊

وفور أن شددتها نحوي، بدأ الكولسترول يتراقص مزمجرًا في الشرايين.

العنكبوت

ذلك القادر على حجب العقل وإثارة الجرب والدمار في كل جميل

مع أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: «طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه في البيت يورث الفقر»، إلا إن جمعًا من أهلنا في الصعيد المصري يتحاشى قتل العنكبوت، وهم يرونه فأل خير، وعندما يظهر العنكبوت الأحمر ـ الملقب بالإنجليزي ـ في الحقول يشعرون بالراحة، ربما لأنه إشارة إلى إنتاج جيد للمحصول. لكن الأمر اختلف بعد ذلك، جاءت أجيال جديدة لتداهم العناكب في البيوت والمزارع، مع تعليمات واضحة من الهيئات المهتمة بذلك، وتعليمات أخرى على علب المبيدات، ذلك أن الإمعان في مشهد عنكبوت داخل بيت ـ أو قصر أو حقل ـ يترك في النفس أثرًا غير مريح بالمرة، وأول ما كنا نواجهه ـ حينما كنا نعمل في الصحراء الغربية أيام إنشاء السد العالي ـ هو الملاحظة المهمة لثلاث دويبات أو حشرات: النمل والذباب والعنكبوت، إنها تفسد المعسكر وتسبب

مشاكل للملابس والمأكولات، وكثيرًا ما تكون وراء اضطراب النوم. غير أن العنكبوت يمكن أن يشدك إليه، ويثير دهشتك وعجبك، مهما كنت مستعدى ضده. وفي فندق متواضع في بلدة متواضعة، أغرقت نفسي في النوم تحت وطأة الإجهاد، كان الليل قد انتصف أو أكثر، جاءني صوت يشبه الصوت الصادر من تكسير العظم بأسنان صغيرة، طقطقة واضحة لكنها تغيب حتى يحط الصمت، فأحسست بخوف، حاولت أن أترجم الصوت: لص؟ صقر أو غراب؟ عفريت؟ امرأة«؟» ثعبان؟ وما كادت صورة الثعبان تزحف في جمجمتي حتى دفعني الارتعاش إلى تحسس زر النور، وما كاد النور يشمل الحجرة حتى شملها وشملني الهدوء مع قليل من الشجاعة، وبدأت أبحث في إمعان عن مصدر هذا الصوت المقلق، وأخيرًا، وهناك في ركن السقف البعيد كان يقف، كأنه شرطي مرور في ميدان تتلاقى حول جسده ـ الأحمر ـ نهايات الشوارع، عنكبوت، أكبر عنكبوت رأيته في حياتي يتنفس الهواء وصدره يعلو وينخفض بوضوح، وكان مكونًا من كتلتين، الأمامية يعلوها عدد كبير من الأعين الدقيقة العاكسة للضوء، ومن السطح السفلي تخرج عدة زوائد، بعضها متشبث بالنسيج وبعضها يتلمس النسيج، ومن مؤخرة الكتلة الأخرى ـ الخلفية ـ التي هي شديدة الاحمرار ـ تبرز زوائد أخرى كثيرة. تقول الموسوعة إن زوائد الكتلة الخلفية هي المغازل ـ أي مراكز تكوين مادة الحرير التي يصنع منها النسيج والشراك (أي المصائد) والخيوط وأكياس البيض وبطانة الخداع اللزجة.

دعك من الكيفية التي تخلصت بها من المشهد كله، ذلك أن

العنكبوت ليس فقط في البيوت والمزارع، هو في المكاتب وراء نظارة سميكة لموظف بيروقراطي أكثر كاريكاتورية من رسوم الكاريكاتير، وفي جمجمة مؤرخ لا يرى من شؤون العالم غير ما ترسب في قاعها، وفي عيون أم مغمضة كراهية لأبناء زوجها، وتحت الشارات المعدنية المتألقة لضابط توقفت معلوماته عند تكتيكات «كلاوفيتز»، المتخصص في تحليل حروب «نابليون»، وفي خياشيم أديب لا يتشمم منذ نصف قرن سوى قصص محمود تيمور، وفي حنجرة مغنٍّ وقع في مجاملة استحسان له، فاستمتع بمداهمة عبد الوهاب مع أهمية إبراز كارثة النقل ـ لا التأثر ـ من الغرب وتجد جميع العناكب متعة لا حدود لها في آفاق وعقول المتعصبين والمغرورين، والجماجم المهجورة، والأحواش المظلمة، والأطلال، وشونة التبن، وبقايا الأشياء، ومخازن الرواكد، وأشعار المناسبات، والصداقات القديمة، وبعد أقل من سنة في الزواج الأول وأقل من شهرين في الزواج الثاني، وفي مداخل دورات المياه، وتحت إبط السلالم، وفي ممرات الكهوف، وفواصل الروايات الفجة الساذجة، وتحت أسطح اللوائح وفرمانات المنع والتحريم والتفريق، وتكثر العناكب أيضًا في مستنقعات الملل، ودروب الفوضى، والمكتبات الصفراء والشعر المنكوش وضجيج الطرب الحديث.

كما أن نوعًا من العناكب يطلق عليه الحُلُم (بضم الحاء واللام) من فصيلة القراد دقيقة الحجم واسعة الانتشار، واسمه عند العامة «الفاش»، وتسبب الجرب للإنسان والجمال والحيوان والدجاج

والأرانب والحمام، وبعضها يتغذى على عصارة النباتات ويسبب أضرارًا جسيمة لمحصولات الحقول والبساتين، أي للقطن والذرة الشامية والورد والموالح والزيتون والمانجو والطماطم.

كما يتفشى الفاش العصري في العلاقات الأسرية، والإحساس بالانتماء للأوطان، ويؤدي للهروب من الماضي الشخصي والتاريخي، ويدفع من يصاب به إلى الهرش المقلق، وهو الذي ترى نتاجه في كثير من الإبداعات المهوشة: قصيدة وقصة، وفي فهم بعض الأمور المستقرة، والاعتقاد المزمن لفرد ما بأنه أهم مخلوق في العالم.

كلمات لها معنى

ظل وجهها الجميل متألقًا، كان قلبها يضخ نورًا.

*

كانت ذراعها العارية تلف العجين بقوة في الماجور، ووجهها الملتهب يمعن في نار الفرن، لم تلبث العقرب التي تدب نحو قدميها أن تراجعت، وعادت.

*

عليَّ أن أعيد ترتيب وتنظيف جوانحي، حتى لا تستقر في رواكدها الحشرات.

*

كان شريرًا، عبر ذات مرة في حديقة فانزوت الزهور ارتعابًا.

*

مقابل كل ترنيمة حب تصدر من الفؤاد ـ مليون أصبع تدوس على الزناد.

*

الصبغة التي تلغي لون الشيب من رؤوس المشاهير، لا تستطيع أن توقف شلال السخرية بهم.

*

الثقافة كالحرير تحتاج إلى بطانة من الجهل المناسب.

*

تقضي السماء طوال النهار تستعد لاستقبال النجوم.

العقرب

اختصار للشر ورمز للزمن والمداهمة والخيانة

تحتاز العقرب مساحة في ذكرياتي تعادل ما يهيمن عليه برج عقرب الفلك في السماء، ولا يزال المنظر المذعور لأختي الكبرى وهي تحملني ـ صغيرًا ـ فوق كتفها لتخترق بي الأحراش وصولًا للمستشفى، يقلق منامي ويشيع اضطرابًا في نفسي. لقد كانت بيئتي المبكرة، الحارة الرطبة الدافئة، أصلح البيئات لنمو الورد والشر والعقارب والتوجس والرغبة العارمة في التراحم والتواصل مع الآخرين (حتى القضاء عليهم)، وفي حين يريق العامة بعض صفات النبل على الثعبان، فإنهم يجردون العقرب منها: الخيانة ترفع زبانها الخلفي، وكلابتيها الأماميتين كي تداهم ـ في نعومة ـ الكائن الآمن ولو كان وليدًا، ومع ذلك فسيظل السر غامضًا: تلك القدرة الساحرة التي يمتلكها الحواة، حينما يرتلون ويدعون ويمدون أيديهم في الفراغات، لتخرج العقارب الشريرة ذليلة هادئة من الشقوق. وقد رأيت أحدهم في أسوان وقد استخرج طابورًا من العقارب في مشهد

يذكرك فورًا باستسلام القائد الإسرائيلي «عساف ياجوري» للقوات المصرية في حرب ١٩٧٣. وتتفاعل العقارب في البلاغة الشعبية وصفًا لمن لا يراعي ولا يرحم، وفي نعت الأقارب، وفي الجسارة الدنيئة، وفي التسلل للفراش الجديد للعرائس - أي في إفساد ليلة الهناء الأولى بمجرد ظهورها دون اللدغ، ولعل قدرة العقرب على إثارة الذعر لا توازيها قدرة أخرى. وواقعة قاطع الطريق الصعيدي - في الأربعينيات - الذي فشل الجميع - وكلهم مسلحون - في الإيقاع به خير مثال، فبعد أن اختفى وجدوه في مغارة مرعوب الوجه مفزوعًا وقد قضى نحبه وبجواره عقرب مقتولة بكف اليد لا يزيد طولها على سنتيمترين، وهو لا يزال متشبثًا ببندقيته. ويقول الدميري في كتابه عن الحيوان: «ومن لطيف أمر العقرب أنها - مع صغرها - تقتل الفيل والبعير بلسعها، وفي منطقة نصيبين - بالشام - عقارب قتالة، وكان بعض الملوك والفاتحين يأتي بها ويجعلها في كيزان ثم يرمي بها في المجانيق، حينئذ يحدث الاستسلام»!

وتلمح شكل العقارب بين ملامح الذكي الضعيف (ولا تحتقر كيد الضعيف فربما تموت الأفاعي من سموم العقارب)، وعلى وجه أول ضابط يحرس قائدًا انقلابيًّا، وفي الأنف المعقوف لـ«شيلوك» بطل مسرحية «تاجر البندقية» لـ«شيكسبير»، وفي التشكيل المتنمر لحواجب أنثى أوقعت برب أسرة آمنة، وفي حركة دبابة مهاجمة حيث يتوافق إيقاع حركتها تمامًا مع العقرب، وفي الترصد الناعم للقدر المحتوم حينما يحتويكما فراش واحد، وفي الغموض المتسع للصَحراء مترامية الأطراف - في ثنايا رمالها تجد حتفك - تحت قدمك

مباشرة، وفي النكد الذي ترعاه الحماة لتعيش فيه عروس ابنها الصغيرة معدومة التجربة، وفي حمى زبان مشرط طبيب يقتلع كلية مريض سرًّا لحساب مريض آخر، وفي سن قلم يدبج سم الباطل، وفي وخز حقنة ضلال تدمر الجهاز العصبي الإنساني، وفي إمعان عين الحسود وهي ترمقك، تود أن تنتزعك وأسرتك من الدنيا، وفي تقوس إصبع ضاغط على زناد الكراهية، وفي قوسين يضعهما حول اسمك صاحب سطوة كي يلحق بك أذى، وفي رسوم العقارب ـ بالحبر القديم ـ داخل تميمة أو تعويذة أو حجاب تقطع عليك طريق الإنجاب.

والعقرب اختزال شرير لمعنى الزمن، إذ ما تكاد تشرع زبانها وكلابتيها متجهة إلى ضحيتها حتى تنهار المعادلات والمتوازيات واستواء اللحظة، وفور الوخز يندفع الألم، وما بين زمن الوخز والوصول إلى أي علاج ـ حتى ولو كان امتصاصًا بدائيًّا للسم من موقع الوخز ـ يتولد الإحساس العميق بالزمن، هل لذلك استعارت الساعة كلابات العقارب لتصبح الإشارة الواضحة لحركة عقاربها؟

ولدغة العقرب ـ في يقين الناس ـ تبرئ من قروح الصدر (هل هو الربو؟) والسعال وفساد القصبة الهوائية، وإن حرقت فتت رمادها الحصى من الكلى وأسقط البواسير. ويذكر داود الأنطاكي عددًا وافرًا من أمراض يعالجها سم العقرب وذنب العقرب وكلابة العقرب، منها الجرب والحكة والبرص والبهاق والكلف والنمش، وهذا يفسر أن الصيادلة رفعوا لهم شعارًا: «الثعبان الملتوي حول الكأس» بديلًا عن العقرب، والتي تكاد تختزل في تكوينها أدوية صيدلية بأكملها، مما يهدد مستقبل الصيادلة بالخطر.

الشاعرية أن تستقبل شمس الصباح بإحساس أنها أشرقت بسبب ابتسامتك، الغباء: أن تصدق ذلك.

*

الأخلاق الكريمة كالأحجار الكريمة، عليك أن تنزعها في الوقت المناسب وتخفيها، حتى لا تتسبب في تدميرك.

*

الأعضاء الأساسية التي يمر منها الحب إلى القلب: المعدة، اللسان، العيون... الجيب المنتفخ أخطرها.

*

لكي نفهم ما يحدث علينا أن نعتبره عقابًا عن ذنوب لا نذكرها، وفيما بعد سوف تتوالى الأمور المتعلقة بما قد لا نذكره أيضًا.

*

الغرام رحلة طويلة مرهقة، بعضنا يتوقف فيها عند المساحة السطحية بين الفم والعيون ثم يكتب مذكراته.

*

الأبراج السكنية المبالغ في علوها، لا ترفعنا كثيرًا عن الأرض، ولا تقربنا أبدًا من السماء.

*

ألم تلاحظ معي، أن نقاد الأدب لا يصلحون للغرام؟!

الدودة

هذه الحركة اللولبية التي تتألق في الحرير، والأشواك، والكبد، والخوف، والأدب

انشغلت فترة بالتمهيد للكتابة عن الشرنقة، كنت شديد الانجذاب إليها بصفتها طورًا من أطوار الحشرة التي كثيرًا ما كان للدود موقعه في تطورها، إلا إن الدود حاصرني ودمر شرنقتي من جميع الجهات، أحسست بأنني وقعت في مأزق «المش» العتيق الذي عانينا المرار في طفولتنا كي نأكله دون اهتمام بحركة الدود اللولبية الذي تنعكس على جلده أضواء المصباح الكليل القديم، وأصبح كل شيء حولي يماثل أم أربعة وأربعين:

هذه الدودة الشرسة التي تخترق التربة في المزروعات الجميلة، وقد رفعت قرنيها علامة للشر، حيث يقال إن لدغتها تؤدي مباشرة إلى القبر، وكانت حركتها الدودية فوق سيقانها الأربع والأربعين وراء إدراكي لشراسة الدبابات العسكرية ذات الجنازير والعجلات المتعددة، وعندما وصفني ـ بعد ذلك بأحقاب ـ واحد من كبار

المثقفين بأنني دودة كتب، ثرت عليه بحدة لأفصح له عن جهلي المطبق، فلم أعرف أن الثقافة الأوروبية تطلق على الذي ينكب على القراءة متوحدًا مع الكتب بأنه دودة كتب، وهذا ما جعل للمكتبات ـ العامة والخاصة ـ اهتمامًا عند المختصين كي ينظفوها بوسائل وطرائق أخرى غير تلك التي نستخدمها نحن في مكتباتنا عادة، إنهم يحاربون الدودة الرفيعة التي تخرم أوراق الأسفار والمجلدات.

وتكاد الدودة تهيمن على الاهتمام أكثر من الأطوار الأخرى للحشرات من بيضة إلى يرقة (التي هي بداية الدودة) ثم العذراء في الشرنقة أو من دونها لتبدأ الفراشة، ذلك أن الدودة في حالتها العامة ـ أي عدا حالات استثنائية ـ تمثل الشر المتعدد والمتنوع، وعندما كان هذا الشر يتحرك في فصل الربيع بين أوراق شجيرات القطن الغضة، كانت قريتنا ـ ديروط الشريف ـ تصوغ حياتها لحساب مكافحتها، العيال ـ ذكورًا وإناثًا ـ يوقظهم الخولي (ريس الأنفار) مبكرًا، ربما قبل الفجر كي يتجمعوا متوجهين إلى حقول القطن وكانوا يزعمون أن الوقت المبكر مناسب لجمع يرقات دود القطن والأوراق المصابة به، وأن الضوء الواهن للشمس يدفع الدود كي يعتلي الأوراق فيصبح من السهل رؤيته، كما أن دق الطبول لإحداث ضجيج مفزع لأنواع من الدود في الأرض المحروثة يثير في النفس العودة إلى العالم الفطري الذي استخدم الطبول فيما لا نستخدمه الآن.

وعندما نذكر الديدان نتوقف عند دودة القطن شرًّا، وخيرًا دودة القز ـ الحرير، والتي تتغذى على أوراق التوت، وكانت أنشطتنا المدرسية في ذاك الوقت تتضمن شيئًا من الاهتمام بها ـ مع الانتباه

للنشاط الياباني والصيني في هذا المضمار الذي أنتج قماشًا كان شهيرًا باسم «السكروته» مع أن كل أنحاء حياتنا يغزوها الدود، الحياة في أخطر عناصرها: التربة والخضرة والإنسان، دودة الاسكارس، والأكسيورس، والانكلستوما، والبلهارسيا في الجسد الإنساني (على قدر معلوماتي)، ثم ديدان خاصة بالبطاطا، والبلح، والعنب، والذرة، والتفاح، وديدان أخرى للبرقوق والخوخ والمشمش واللوز، غير أن أخطر دودة سببت لي رعبًا ـ وأنا صغير ـ ولا تزال تداهمني في نومي، وظهرت ذات مرة في قصصي، هي دودة السنط، أو كلب السنط كما نصطلح على اسمها القروي، كانت ـ في موسم البرد والجوع ـ تداهم أوراق شجرة السنط (وهي شجرة شريرة أيضًا ذات أشواك مرعبة وظلال قليلة، وتنمو بكثرة في بلادنا دون اهتمام بمحاولاتنا الدائبة لاقتلاعها) وشكل الدودة ذات القرنين أثناء سعيها الدؤوب بين إفرازات الصمغ اللزج على البشرة المتغضنة: يثير في النفس إحساسًا شائكًا بمعنى الشر، أراه ـ حاليًّا ـ في حركة نوع من الموظفين يسعون للوقيعة في مكاتب الرؤساء، وفي هذا التسلل المقيت لنوع من الكُتَّاب يرتزق على حساب جراح الوطن، وفي ذلك الشر الكامن في جوف زميل يأتي من أقاصي الأرض كي يطمئن عليك في ظروف اعتلال فلا ينطق إلا ما يزيد الاعتلال فيصبح ابتلاء، غير أن الأمر في الدود قد يصل الكبد والبنكرياس ـ ربنا يحفظنا، في حين أن الشر الإنساني يداهم الفؤاد مباشرة، أترك المخ جانبًا الآن فقد تركنا اختراقه وإفساده للدودة السياسية المنتشرة في أنحاء العالم، والعربي بالذات.

وحركة الدودة اللولبية يمكن أن تفيد في الإبداع الأدبي ـ وليس

السلوك، فهناك هذه الحركة الناعمة في فن الرواية التي تستدرجك في نعومة كي تجد نفسك ـ آخر الأمر ـ ملدوغًا بمفاهيم تحترم ما ظل سادرًا في تكوينك العقلي، وهو ما يمكن أن تراه في كتاب «الكلمات» لـ«جان بول سارتر»، وقصص «تشاينبك»، كما أن «الغريب» لـ«ألبير كامي» تستدرجك لتسري في سراديب مفاهيمك كلها، ولا أعرف إن كان فن الباليه الموسيقي قد استفاد من حركة الدودة، بعد أن استفاد من البط، والديوك، والثعالب، والضفادع، وهو ما يجعلنا نعيد النظر في الديدان كي نكتشف أن المرعب منها يخضع لقوانين الشر التي اكتشفناها نحن، دون أن يدرك الدود ذلك بالمرة.

كلمات لها معنى

لماذا لا نتوقف عن البكاء على اللبن المسكوب ما دام يصلنا مسحوقًا قابلًا للجمع من فوق الأرض؟

*

من باب القسوة على الصداقة أن ننظر إليها بصفتها قمرًا مضيئًا يطلع علينا في إشراق، ولا نمنحها حق الغروب ـ آخر الأمر ـ أو آخر الليل.

*

الذكريات مثل الكتاكيت، تصوصو بصوت عالٍ حينما تجد القوت، أو يداهمها الخوف.

*

كثير من الصحف لا تملك عيونًا ترى بها، بل أصابع تتسلل إلى الجيوب.

❊

هذه الصخور التي تبرز في قمم الجبال، لا يفوقها روعة إلا الصخور التي تبدو ساكنة تحت اهتزاز تيار الماء الصافي.

❊

يجذبنا اللون الأخضر دون اهتمام بأن أخطر العقارب ما يتصف بهذا اللون بالذات.

الغول

التقيت الغول مبكرًا، كانت أمي تلجأ إليه كي يؤذيني ـ بالتحديد: كي يأكلني ـ كلما أحدثت شغبًا أو أحدثت لها قلقًا. وكانت ليلة عاصفة ذات سحب ورعود عندما انشق بطن السماء في جلبة مشتعلة حتى كاد وهج نارها يلامس وجهي، بعدها نزل الغول الأسود الضخم، واخترق سقف البيت ليقف فوق رأسي، أكبر قليلًا من الغوريلا، وأكثر وهجًا من التنين، وانحنى نحوي حتى أصابتني قشعريرة الموت، ثم أمرني ألا أضايق أمي. صرخت مرة أو مرتين، فنهضت أمي من مخدعها لتنقذني، وكلما قلت في ارتجاف: الغول، هشته بيدها في صراخ منزعج، فطار إلى الجو مخترقًا سقف البوص ثم رفعتني أمي من الفراش فوق صدرها ممتصة انزعاجي. رأيت الغول بعد ذلك في أوار الفرن أثناء ضجيج الخبيز، ووراء شجرة الجميز حينما كانت أختي تحملني في الفجر لمستشفى المدينة البعيدة علاجًا لعيني الرامدة، وفي جب ساقية قديمة قُتل فيها أحد أقاربنا ذوي البأس، ثمَ بين غابات حقول الأذرة يطارد اللصوص والنجوم والثعالب

والقمر والشياطين وأبو رجل مسلوخة والذين يدوسون على نعمة الخبز بأقدامهم. كان بيتنا على حافة بركة واسعة وسط الغيطان، وكنت أقضي وقتًا ألعب أمام الباب، ولقد هالني آخر نهار شتوي أن أشاهده خارجًا من المستنقع ماردًا أسود، وقد ارتكز على العكازة ذات الشعبتين التي يستعملها أبو رجل مسلوخة والذين يعانون من معوقات السيقان، وكانت السماء قد اشتعلت نارًا مروعة حينما ناديت على أمي، وعلى أبي، وعلى أي واحد عابر أو قريب دون جدوى، بعدها اختفى الغول تاركًا بقايا نيران على حافة غسق السماء، وفي اليوم التالي جاء طبيب الوحدة المجمعة وكشف الغطاء عني، ثم ظل يبحث في جسدي وتمتم: «حمى الملاريا».

وقد زارني الغول مرات وأنا في الفراش، وبرغم جهامته كان طيبًا وأبدى لي أسفه لأنه لم يكن يقصد ذلك، وأنه بريء، وابتسم، وبعدها اختفى طويلًا، لكني ظللت أيامًا أنتظره، وأرسمه وسط الكراسات وعلى هوامش كتاب الحساب ثم فسخت التمائم والتعويذات التي وضعتها أمي تحت إبطي مكتوبة بالحبر الزفر، وفوجئت بالغول مرسومًا عليها كما ترسم رموز الدول على الأوراق النقدية.

ظللت مبهورًا بالغول، أحس أنه قابل لمصادقة المطيعين القادرين على أداء الصلاة وحل الواجب المدرسي، وكنت شديد الثقة أنه يسعى وراء مهام ليس من السهل حصرها، مثل إفساد ليلة الفرح على العروس والعريس، إشعال النار في أكوام المزروعات الجافة المهيأة للدراس أو جميع كيزانها، انقلاب الإناء المزمجر بلحم يوم السوق فوق الكانون. غير أني كنت أعلم بأنه يحاذر

الاقتراب من أسرة تتناول عشاءها، أو من موقع موجود به المصحف الشريف، لكني - وفي كل الحالات - أصبحت شيطانًا صغيرًا شقيًّا مكللًا بالترتيب الأول المتقدم دائمًا في جميع امتحانات المدرسة. ومع الأيام كانت رغبتي العارمة في لقاء الغول قد خفت بعد إرهاق الحصص المتوالية للحساب والعلوم والإنجليزي، والإملاء والمحادثة. غير أني لمحته مرارًا - بشكل واضح في عيني زكي أفندي مدرس اللغة الإنجليزية، كان دائم الارتداء للملابس السوداء، قاسيًا لا يعرف في الدنيا سوى إجادة التلميذ استيعاب المقرر من الدروس، وما زالت خيزرانته تخترق آجام عظام ظلام سنوات العمر (حتى الآن). ورأيت الغول - أيضًا - مرتديًا ملابس مدرس العلوم الذي كان نادر الكلام، لكنه يجلس متثائبًا بجسده الضخم، تاركًا أمر التلاميذ حرًّا، يرسب من يرسب وينجح من ينجح. وكان الرسوب يداهم ثلاثة أرباع تلاميذ الفصل، ورأيته - الغول - يداهم ولدًا سنة ١٩٤٩ كان قد نجح في اختراع ماكينة غناء بالإمكانات المحلية، ويوم عرضها على مدير التعليم في احتفال مهيب تساقطت الماكينة قطعًا دون أن تعمل. ورأيت الغول يحمل جسدًا محترقًا لشاب ذي صوت جميل قيل إنه كان طرفًا في حكاية غرام مع فتاة قروية ذات شأن، ورأيته ينام في حقل البرسيم وقد شجت رأسه هراوة، وقد ظل الغول يتنفس يومها حتى آخر النهار ثم أخذ الجثمان وغاب في الأفق.

غير أن الأمور اتسعت بعد ذلك في علاقتي بالغول، لم أعد أجده فيَ ملامح المدرسين والقتلى والمنهوشة أجسادهم، ذلك أن الراديو

كان يفح طوال النهار بأصوات مزمجرة للغيلان، ثم ظهرت السينما وداهمنا من شاشتها أنواع من الغيلان المروعة القافزة المتقافزة، بعدها كان التلفزيون الذي أضفى على غيلان شاشته ـ مع الموسيقى المناسبة ـ بعدًا خرافيًّا تنوء تحته كل تصورات الأمم البدائية.

ولا يزال الغول يختلق التصويرات الجديدة المناسبة، في الكواكب والأقمار الصناعية والتجارب الذرية، بعدها ينساب شفافًا مروعًا في مياه الأنهار وأمواج البحار، وبين وقت وآخر، يصعد إلى عنان السماء فيثير التهكم والسخرية ورسامي الكاريكاتير.

وإن كان ذلك لا يمنعه من زيارتي ـ بين وقت وآخر ـ ليعيدني طفلًا مطاردًا بين سحب السماء وغيوم الآفاق.

حيث لا تزال أمي تلجأ إليه حتى الآن.

كلمات لها معنى

المسألة ببساطة أن عدد تماثيل السباع فاق عدد السباع ذاتها.

❊

هذا عالم جميل يلهب خيالك بالرؤى حين تنظر للغيوم، دَعْك من قدميك المغروزتين في الوحل.

❊

عندما يتأكد الزوجان أنهما أصبحا في غاية التعاسة، يبتسمان مستسلمين.

❊

انتبه: فالعيون التي تسح بالدموع الرحيمة، قد تكون تالفة.

*

الشرير: واحد لديه طاقة أن يتحمل من لا يحب يومًا كاملًا،
المجرم: ما يزيد على ذلك.

*

المناديل الصناعية لا تصلح لتضميد الجروح الدموية
أو الدموع الحقيقية.

العفر والعفريت

فوجئت عند ولوجي عالم العفاريت ـ بأن المعجم الوسيط الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة في عدة طبعات متوالية ـ توقف عند التعريف بالعفريت بأنه: الخبيث، والنافذ في الأمر مع دهاء، دون أن يربطه بالجان أو أي نوع من الجن. مع أن القرآن الكريم أعلنها بوضوح في سورة النمل: «قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ»، وبالتالي فإن رعبي الممتد إلى بدايات الطفولة ـ حينما كان الذين يشرفون على تربيتي يستعينون بالعفريت كي لا أتجاوز حدود الزحف على الأرض خروجًا من البيت ـ يصبح ذا معنى ومغزى في التراث الإنساني كله. فالعفريت نوع من الجن وليس مجرد صفة للخبث محدودة المعنى، حتى لو استخدمناها نحن البشر صفة بعد ذلك كأن تقول عن صديق ـ أو خصم ـ ذي تفكير شرير: إنه شيطان، إلا إن العفريت ـ كعادته ـ ارتد بي إلى تلك الأيام التي كان يداهم ظلام ليلتي الممطرة تحت الخص ـ أي السقف القروي المصنوع من البوص والحطب ـ بساقه المسلوخة كي يرعبني مهما احتميت بصدر أمي،

ومع استبعاد «أبو رجل مسلوخة» حاليًّا لضرورة العودة إلى منطقة لغوية أكثر رحابة وأمانًا، فإنني أود أن أعيد لفظ العفريت إلى نوع من المد أو الامتداد في فن الكلام جعلنا نهز عالم الجبر القسري إلى الجبروت: أي القهر الشرس، والملك إلى الملكوت الواسع ذي البراح الشامل لكل تكوينات الكون في الأرض والسموات. وعالم رجل الدين الموروث قبل ظهور الإسلام ـ أي الكاهن ـ إلى الكهنوت، ولا ننسى أن الصبر المركز يصبح الصبروت في لغتنا غير المكتوبة، حيث لا أثر للصبروت في كتب اللغة وإن كان قد ورد في دفاتر سجل حصر أفراد المواليد.

ولعل العفريت قبل أن أقع معه في مشاكل عدة تكاد تكون قد شملت أحقاب عمري كله ـ قد جاء أصلًا من العفر: أي التراب ذي الكثافة الغبارية، وعفره عفرًا ـ أي مرغه في الأرض، ومن هذا المرغ أو التمريغ جاءت صفة الحمار المولع بهذا النشاط خلافًا لمعظم الحيوانات ليصبح ابن المراغة ـ تذكر ما حدث من هجاء بين جرير والفرزدق، (مع استبعاد مدينة المراغة بالصعيد المصري: أرجوك). لكن العفر يمكن أن يصبح نوعًا من المقاومة التي لا يميل المثقفون إلى استعمالها اعتقادًا بأنها لغة العوام، حيث لا تجد أثرًا في أي نص أدبي للمعافرة التي نستخدمها دائمًا في تصرفاتنا اليومية: أي المحاولة الدؤوب في تصميم وعناد، لكنك حين تعفر الزرع فإنك ترويه للمرة الأولى.

كما أن العفر يعني أيضًا من لم تطاوعه قدماه في السير، فإذا ما أصاب اللفظ ظبيًا فإنه يكون قد خالط بياضه حمرة داكنة فصار لونه كالعفر، لاحظ أنك لو كسرت عين العفر فسوف يكون ذكر

الخنزير، لكنك إن ضممت العين، فإنك تعني: الغليظ الشجاع الشرير، ثم لا يلبث العفر ذو العين المضمومة ـ أن يخترق الزمن، ليصبح البعد وطول العهد، بل وقلة الزيارة، يقال لمن جاء زائرًا بعد غياب طويل: ما تأتينا إلا عن عُفر. ثم لا يلبث العفر أن يخترق في تكاسل مواضع البيع والشراء ليعني السوق الكاسدة، أما العفراء ـ رعاك الله ـ فهي صفة للأرض البيضاء البكر التي لم توطأ، كما أنها تطلق على الليلة الثالثة عشرة من ليالي الشهر العربي كمقدمة لانتصاف الشهر وما يعنيه عندنا ـ نحن المسلمين ـ من إحساس بالطهر والنقاء.

وتحصل الشعرات النابتات في وسط الرأس من الإنسان على لفظ العفراة (بكسر أو فتح العين)، فإذا ما تدخل الأسد بشعر القفا في مؤخرة عنقه فسوف يحس بكبرياء العفراة التي لا يلبث الديك ـ من الدواجن ـ أو أي ذكر آخر أن يجد له نصيبًا فيها إن ظهرت في عنقه الشعيرات المشار إليها. وقد تذكرت ذلك حينما لاحظت أن بعض أفراد من الجماعات البشرية المتنقلة ـ كالغجر والنور والحلب ـ يميلون إلى الاحتفاظ بخصلات شعر ذات شراسة في مؤخرة العنق، لا تظهر من تحت غطاء الرأس إلا أثناء التصارع الودود ـ لأني لم أشهد التصارع الدموي مع البشر والأسود.. رأيتها في الديوك فقط!

أما العفار فهو تلقيح النخل وإصلاحه، ولا أعرف إن كان ذلك ينسحب أيضًا على أنواع أخرى من الأشجار، ولا سيما أن ثمة شجيرات نحيلة يطلق عليها: العفار، فإذا ما رغبنا في قليل من

الإمعان فسوف نجد راعي الغنم ـ والحيوانات الأخرى كالأبقار دون الجاموس ـ يقوم بتعفيرها: أي يخلط سود الغنم والإبل بالبيض منها، فإذا ما أصاب العفر أو التعفير امرأة فإنها تكون قد مسحت ثديها بالتراب تنفيرًا لطفلها وصولًا للفطام، وإن قمت ـ أنت ـ بممارسة العفر أو التعفير للحم فإنك تقصد تجفيفه على الرمل في الشمس، والعصر الحديث لا يحب أن يمارس ذلك بعد قيام الآلات بالتعفير المناسب لكل أنواع اللحوم في الأكياس والعلب ـ وفي الثلاجات أيضًا.

وقبل أن أعافر في محاولات جادة كي أخرج من كل هذا العفار اللغوي ـ الجميل ـ حتى أستريح وأريح، فإنني أود أن أشير ـ مخلصًا ـ إلى أن ثمة لفظًا جاء في اللغة يعني: النافذ في الأمر مع دهاء مكير، إنه العفرِّين، رجاء تشديد الراء، حيث إن العفريت لا يميل إلى هذه التعقيدات وصولًا للشر، تاركًا نون العفرين للشيطان.

كلمات لها معنى

الكلاب الضالة تظل تخفي ذيولها بين أفخاذها جبنًا، وإبراز أنيابها شجاعة وشراسة.

*

أخطر ما يمكن أن يتعرض له أديب من أخطار: أن يرتحل داخل الكتب والمراجع فقط، الأرض تتسع وتنظر إليه في سخرية.

*

قانون «أينشتاين» المروع: الطاقة تساوي الكتلة في مربع سرعة الضوء الصادر من عيون أنثى فاتنة.

*

الحوائط ولدت علم الهندسة الذي أنجب علم الجبر، فلما استخدمت السياسة الجبر ألقت بنا وراء الحوائط والجدران.

*

عندما يشرق القمر: تبتسم الجبال والصخور.

الشيطان

اللهم احمني من نفسي ـ ومن النفوس الأخرى ـ خلال اختراق أحراش هذه السطور، ثم أثناء قراءتها أيضًا، فأنا لا أقصد أن أكشف عما يدور في مجالات خطوط شيطان ـ هذا العصر القائم بالذات ـ وطاقات قدراتها الضاغطة الناعمة الشرسة الملتهبة الواضحة الغامضة، إنما أود أن أتراقص في الآفاق الواسعة حتى أرهق ثم ألوذ بالنوم: طيبًا هادئًا.. بريئًا، محاولًا ألا أتذكر أن شر البلية ما يضحك، إنه نوع من السلوان الذي ألجأ إليه بين شر.. وآخر، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وفي كل مرة أتثاءب حتى لا أمعن في أمور قد تقودني إلى دوائر الضيق والاختناق، فأظل مبتسمًا تلك الابتسامة التي نسعى إليها ونحن نتسلل هروبًا من الملل، أو الديون، أو ممارسة الوشاية والنميمة، أو الإمعان في عيون أنثى جميلة تظل ابتسامتها أكثر رقة.. وخطرًا، حتى إن ذكاءنا العصري يظل يفتح كل خطوط دوائر التواصل المحتملة، دون الانتباه الكافي كي ننجو من تلك اللحظات الواخزة ـ بالغة المتعة ـ والتي بسببها نزل جدنا العظيم ـ آدم ـ مع قرينته جدتنا الجميلة ـ حواء ـ من

الجنة، فظل إبليس الغاوي المشكك، المثير للارتياب، والذي ينفث في دفء الرغبة: عدم الاطمئنان، يهوم في صدري وجمجمتي، وكلما واجهته في ذكاء عنيف أبى واستكبر، ويظل يضحك مثيرًا تلك الأمنيات الشرسة الملتهبة المقلقة، فيلفحني لهيب يحرك الحكايات والأقاصيص والمعارك والمواعظ، ليكتشف شهريار أن القصاص من زوجاته الخائنات مع عبيده يلزمه بأن يتزوج ظهيرة كل يوم عروسًا جميلة، ينهي حياتها.. مساء كل يوم أيضًا، وينام قرير العينين تحت سطوة متعة الانتقام، ثم تأتي شهرزاد، تلك الروائية الأديبة المبدعة الحكاءة الهادئة، لتظل في ابتسامة الأنثى التي نسعى إليها جميعًا ـ تحكي تلك الحكايات والأقاصيص والمغامرات والمسلسلات ذات الحلقات الليلية المتوالية، حتى يدرك شهرزاد الصباح فتتوقف عن الكلام المباح، حيث يكون شهريار قد وصل إلى مرحلة التثاؤب تمهيدًا للدخول في عالم النوم ذي الأحلام الممتعة. وبعد أن تمسح شهرزاد على وجهه في حنان يتدفق بالموسيقى الهادئة العذبة، تتركه نائمًا، وتتوقف الحكايات كلها عند هذه اللحظات الإنسانية الفنية الدافئة، ونظل نحن القراء أو المشاهدون أو المستمعون في كل العصور، ننتظر استكمال الحكاية في الليلة التالية. ويكون الشيطان قد استغرق في النوم أيضًا، دون أن يدرك شهريار، أو شهرزاد، أو الشيطان، ما يجول في خاطر واحد مثلي، أكثر شيطانية من كل أنواع الشياطين، حين يكون الجواب الخاص بهذا القرار الموسيقي سؤالًا لم يسأله أحد سواي: أين كانت تذهب شهرزاد بعد أن يستغرق شهريار في النوم، رجاء عدم الإجابة!

ولذا، فإن الشيطان استطاع بأنواع من الحيل والمناورات والأساليب الرقيقة الحالمة أن يتسلل أو يداهم أو يصادق الآمال والأمنيات الخاصة بي أو بكم، حيث تنجح عائلتي المتعددة الأفراد والبيوت في إخراج البنات من حقوق الميراث الشرعي بمنحهن مبالغ مالية هزيلة مقابل تنازلهن عن استحقاقاتهن ـ حتى لا يدخلن في دوائر إرهاق المطالبة، في الوقت الذي يقوم فيه «أينشتاين» ـ ذلك الرياضي العتيد ـ بالكشف عن الطاقة التي تنتج عن الكتلة المضروبة في مربع سرعة الضوء ليهتز أهلي ـ أقصد العالم الإنساني كله ـ أمام مشهد تدمير هيروشيما ونجازاكي، ويظل تاجر البندقية الشيكسبيري ـ «شيلوك» ـ بسطوته الشريرة متراقصًا هامسًا بمعاهدته الشاعرية التي استولى بها على كل أجزاء روح بطل المسرحية، والواردة من تراث مسرحي وأدبي في العالم كله. قام فيها الشيطان بأداء أدوار أغرقتنا بالمتعة: قائد جيش من الأبالسة، أو وحش قبيح جدًّا، أو مهذب هامس يبث الفتنة والفوضى، نشاطه ـ بالدرجة الأولى ـ نحن البشر الذين نساعده حتى نواجه كوارث النهايات، وسلاحه الإغراء بالثراء وتحقيق رغبات الجسد والنفس، يتقافز في كل الجماعات البشرية لينتجوا الشوك والشر والغرور ـ في كتاب «الجحيم» من الكوميديا الإلهية لـ«دانتي»، وفي «الساحر العجيب» للإسباني القديم «دي لا باركا»، وفي «الفردوس المفقود» لـ«جون ميلتون»، وأحيانًا يتخلى الشيطان ـ بعض الوقت ـ عن شراسته فيظل يبكي آلامه في الدكتور «فاوست»، ليتعدد بعد ذلك داخل إمكاناته وقدراته الشريرة لنراه في مشاهد

رقيقة تؤدي إلى جهنم في الأدوار التي قام بها ممثلون عرب مشاهير: فريد شوقي ومحمود المليجي ونجمة إبراهيم، مع توزيع بعض أدوار الشر الهزيل ـ أو الخفيف ـ على مسرح يوسف وهبي أو مسرحيات نعمان عاشور وسعد الدين وهبة، ليتناثر الشر في الأداء الفني الحالي إلى نوع من المكر الذي لا يثير الانتباه إلى الشيطان الكامن وراءه، مما أدى بالشيطان إلى أن يسعى ـ لاستهلاك قدراته الشريرة ـ في اختراق جوانح أصحاب القدرات القيادية الاحتفالية ليقوموا باختراق البلاد الصديقة المجاورة. دعك الآن من النموذج المروع، والذي أدى بنا ـ في السنوات المتوالية الأخيرة ـ إلى أن نفزع من النوم، ومن اليقظة، ومن الصداقة، حتى إن الشيطان العصري أجهد إجهادًا أدى به إلى أن يبحث عن مكان آخر ليستريح فيه، لاحظ أني كلما مررت بجوار مصرف ـ بنك ـ أو فتحت صفحة حوادث جريدة، أو استمعت إلى أغنية ذات موسيقى صارخة، أبدأ أنا الآخر ـ كالشيطان المشار إليه ـ أسعى بحثًا عن مكان بعيد، في تلك الآفاق الممتدة الخاوية، كي أضع ذراعي تحت رأسي.. لأرتاح.. وأريح أيضًا.

كلمات لها معنى

أود ـ مخلصًا ـ أن أمنح جائزة نوبل في الطب النفسي المعاصر لهذا الذي ابتكر الكلمات المتقاطعة التي تفشت في الصحافة الآن.

*

أخطر ما يمكن أن يواجهك: أن تسلك طريقًا يؤدي بك إلى الحقيقة، فتعتورك ـ أو تعترض طريقك حقائق عديدة أخرى.. وتظل في الطريق.. تسلك فقط.

*

الخرائط الجغرافية تظهر على شاشة التلفزيون في حالات الحروب والوقائع الدموية.. والنشرة الجوية فقط.

*

لا تزال الألوان المتعددة للزهور تأخذ بريقها ونصاعتها وتشع بجمالها حينما تكون في موقعها الأصلي ذي الأوراق الخضراء.. بمجرد اقتطافها تفقد كل هذه العناصر، لكننا لا نريد أن نعلن ذلك.

النخلة

الممتزجة بأخلاقنا وتقاليدنا وقدرتنا الفائقة على الصمود

في التعريف بأمة العرب، انصب اهتمام علماء التاريخ والاجتماع والجغرافيا على الدين واللغة والتقاليد، دون الانتباه الكافي للنخلة، هذه السامقة الشامخة المتأودة مع النسيم، المقاومة للريح على شواطئ النيل، ودجلة والفرات والعاصي، وعلى سواحل البحرين والكويت وعمان حتى المغرب وموريتانيا، ولا يخلو بلد عربي من غابة لها أو أجمة أو عدة أفراد تتراقص بين الحقول وفي عمق الصحراوات. شهدت بكور العقل وتفاعل الأساطير مع الخرافات ومولد الأديان وحكمة السماء واجتياح الطوفان وظهور السجون والحدود والكتب والكتاتيب، لترى العيال وقد جلسوا يتلقون العلوم على قفص من جريد وتحت سقيفة من الفلق المنشق من سيقانها. ورغم تعدد الأنواع من عائلة النخيل في الهند وجنوب آسيا والدنيا الجديدة «أمريكا» وإسبانيا وبعض مناطق وسط وجنوب أفريقيا،

إلا إن النخلة العربية متفردة في صفاتها وفي ثمارها. وحتى وقت قريب لم يكن يخلو بيت ـ كوخًا كان أو قصرًا ـ من أثر في بنائه من أجزاء النخلة، ولأمة العرب دراية في شق جذوعها لتصبح أفلاقًا (جمع فلق) تعالج في الماء وتجفف فترات طويلة حتى تكتسب صلابة ومناعة ضد السوس والحشرات لتصبح ركائز وسقوفًا، كما يعالج الجريد ليصبح سقفًا قابلًا للتحمل والضغوط. لكن أمر الجريد ـ دون أغصان بقية أشجار العالم ـ تسلل من أحقاب إلى الأقفاص والأسرَّة والمقاعد والكراسي والموائد. قرى الشواطئ الراقية الآن لا تزال تتعامل بشكل فني رقيق مع عناصر الجريد لخفته وقدرته على إذكاء نوع من التشكيل الفني البديع، لكن السعف يتفرد وحده ليصبح صلبانًا يحملها المحتفلون في أعياد الأقباط يومي أحد السعف وسبت النور استحضارًا لموعظة محاولة صلب النبي عيسى ابن مريم تلك التي أجاءها المخاض إلى جذع النخلة، والتي أكلت منها رطبًا جنيًّا، عليهما الصلاة والسلام. والرطب الجني ـ ذلك الذي لا مثيل لحلاوته وليونته وقدراته الشفائية ـ يقودنا إلى هذه الأنواع المتعددة من بلح النخل: اللين والخشن والأخضر والرطب والأصفر والأحمر واليابس والتمر والرملي والعجوة والأمهات والزغلول. هي الثمرة الوحيدة التي تتعدد بتعدد النخيل وتعدد مناطق زراعته على غير ما ألفنا من جميع النباتات التي قد لا يزيد تعدد أنواعها على أربعة في أكثر الحالات كالبرتقال مثلًا. ويحصي ابن البيطار وأبو زكريا بن العوام وداود الأنطاكي في كتبهم عن النبَاتات والعلاج بالأطايب والثمار ما قد يصل إلى ثلاثمائة نوع من

بلح النخيل. ومع ذلك فإن النخلة تستعصي على التطعيم أو التلقيح مزجًا بينها وبين أي نبات آخر كما حدث في البرتقال مثلًا، ولذا فإن النخلة تظل شجرة أمينة مخلصة لا تمنح نفسها إلا لذكر النخيل، وتجد ذكر النخيل واقفًا وسط إناث النخل شامخًا غليظ الرقبة وكأنه ديك وسط الدجاجات. وفي الحالات التي تشاء الظروف فيها أن يبقى هذا الذكر وحيدًا دون إناث، فإنه لا يلبث أن يضطرب ويحتقن ويتجهم ويصبح وكرًا للثعابين والزنابير والغربان الضالة، وهو ما يصف به الناس فاقد التواصل مع الغير «يعيش فلقًا ويموت فلقًا».

وأصحاب المأثور من الطب العربي يعتبرون البلح غذاء له قدرته على تقوية جهاز المناعة ضد الأمراض، وخصوصًا إذا ما تم تناوله مع اللبن، ويؤثر المسلمون عادة أن يفتتحوا إفطار صوم يوم رمضان بالبلح: خالصًا أو مخلوطًا بالأشربة، ولا يزال كثيرون يعتبرونه خير زاد للسفر، وللذهاب إلى المدارس، وخير مفتتح لتكريم ضيف.

ولكن المثلبة الكبرى للنخلة كانت في هذه الوقائع المؤلمة التي ربط فيها الجبابرة بعض الفقراء والمناوئين لهم في جذوعها وسقوهم الويل حتى الهلاك، حدث هذا في عصر الوليد بن عبد الملك والحجاج بن يوسف الثقفي، وفي عصور المماليك والمداهمين ومحطمي الأوطان وذوي القدرة على الاجتياح، قديمًا وحديثًا، حتى إن قاذفات اللهب وحاملات الصواريخ لم توقفهم عن ولعهم بهذا الفعل في العصور الحديثة. لكن النخل سوف يظل نخلًا، فيه كثير من صفات هذه الأمة التاريخية، يمتزج بأخلاقها وبأغانيها وبسلوكها، ثم بقدرتها الفائقة على الصمود والاستمرار.

كلمات لها معنى

أكثر المواقع مناسبة كي يفترس الباطل الحق: الجيب الخاوي أو الجمجمة الخاوية، أيهما أظلم.

❊

لو أن ناقدًا أتيحت له فرصة أن يمتطي جوادًا ويسوسه ولو لمرة واحدة، لعرف الطريق الصحيح للاقتراب من النص الأدبي.

❊

ظلت زوجتي تقول الحق ولو على نفسها، ثم لاذت بالصمت في الأعوام الأخيرة.

❊

الحقد العميق في الفاشلين مثل الأحشاء المطمورة، ما يكاد يرى النور حتى يجمع حوله الذباب الأزرق.

❊

هذا التواطؤ الواضح الذي يلتف حولي، فحينما ينقطع مدد النقود أفاجأ بالمياه تنقطع فجأة وأنا في الحمام غارقًا في الصابون.

❊

الذي يجيد تمزيق ملابس الآخرين لا يحسن اختيار الكساء المناسب لنفسه.

❊

السعادة كالفراش لا تخشى الروائح أو الأشواك بل الصوت العالي.

القمح

الحلم الإنساني المتألق في الحقول والسياسة
والخطوات الأولى للأفراح

القمح، ملك الحبوب، وذهب الحقول المتألق، وسيد المحاصيل الزراعية، وهو حصن للأمن الغذائي، وزاوية للارتكاز السياسي وللتعامل الدولي، والحاضر دائمًا في أفواهنا وأمعائنا وأمنياتنا في حساب الآخرة حينما تصبح حسناتنا مضاعفة كالسنبلة. وهو الوحيد من الحبوب الذي نفذ إلى الأغاني في ليلة عيده، ربنا يبارك ويزيده، فما سمعنا أغنية ترددت فيها ألفاظ الأذرة النيلية (العويجة) أو الشامية أو الأمريكية أو الشعير أو الأرز كما حدث للقمح، وهو أول محصول أثار معنى الإستراتيجية في التاريخ تفسيرًا لعلاقة الإمبراطورية الرومانية بمصر.

والموطن الأصلي للقمح أرض ما بين النهرين ـ دجلة والفرات ـ أي العراق، وشمال وادي النيل: مصر، وفي مصر بالذات تألق القمح حلمًا لفرعونها نصفه الأول سبع بقرات عجاف تلتهم سبعًا سمانًا،

والنصف الثاني سبع سنابل يابسات تأكل سبع سنبلات خضر، مما يؤدي إلى خروج النبي يوسف من سجنه بصفته صاحب تفسير الحلم، وليصبح مشرفًا على مشروع السنوات السبع لمواجهة القحط المقبل، كما أن الأواني الكانوبية ـ التي كانت تحفظ في بعضها أحشاء الجثث المحنطة (المومياوات) في المقابر المصرية القديمة، حفظت ـ أيضًا ـ حبوب القمح ضمن ما حفظته من أشياء يحبها الراحل صاحب المقبرة، وثمة تجربة جرت على بعض هذه الحبوب العتيقة لاختبار مدى استجابتها للنمو بعد كل هذه القرون، وكانت النتيجة مدهشة.

ويمتزج القمح بعادات وتقاليد الناس أكثر من أي حبوب أخرى، ففي اتفاقات الزواج لا يزال جزءًا من الأعباء التمهيدية للعريس، فمع الذهب والملابس والمهر يكون إردب القمح، ذلك لأنه هو الأصلح لعمل رغفان الولائم وبسكوت الفرح، وكثيرًا ما كان أجر تعليمنا في الكتاتيب قدحًا من القمح كل فترة. ودقيق القمح أكثر الأنواع حساسية في الحرام والحلال، فلا يصح أن يرتكب الإثم قريبًا من أجولة القمح، كما أن غضب السماء مرهون بأي أدران تلوث العجين. والوالدة حديثًا تبدأ خطوات حركتها المباركة فوق غربال به بذور القمح مشاركة مع الفول، وهو نفس الغربال الذي يصبح مهدًا للوليد في الاحتفال به في الأسبوع الأول، وكثير من الأعمال الماكرة ذات الشر، والتي توضع سرًّا في طريق المطلوب إيذاؤهم من البشر (في شكل تمائم أو أحجبة) تفقد قدرتها على التأثير إذا ما كان المطلوب إيذاؤه مضمخًا بالدقيق. ومسح أو

تضميخ مقدمة رأس البهيمة بالدقيق، إضافة إلى إلقاء حبوب القمح اللينة مع الملح في طريقها، طقس معروف ـ وقديم ـ كي تتفشى في البهيمة البركة. كما أن إناء اللبن الحليب الذي تفت فيه عجائن القمح المبثوث: تطهر الجسد من الشياطين والجوف من المرض. وسنابل القمح اليابسة تصاغ بشكل مجدُول كالتاج لتوضع في مداخل البيوت، رمزًا للخير والرضا الإلهي، وسوف تجد تيجانًا صغيرة من سنابل خضراء تحت وسادة العرسان إشارة لاستجلاب العزيمة والبركة. ولعل وشم سنابل القمح فوق الأكتاف قريبًا من الرقبة يشي بما للقمح من دوره الواضح في التفاؤل، وإن كانت جماعات بشرية كثيرة تجعل الوشم قريبًا من الرسغ ممتدًا إلى ظهر اليد، فالشيطان لا يجد الطريق سهلًا لمن احتمى بالقمح: سنابل وحبوبًا ودقيقًا وعجينًا وخبزًا.

وأشهر أنواع القمح في الشرق الأوسط: الهندي، والأسترالي، والبلدي، والبوهيا، لكني لا أعرف مدى انطباق هذه الأسماء على أنواع القمح المذكورة في دوائر المعارف لأنها تتوقف عند الأسماء العلمية اللاتينية فقط: «الفلجير» ويعرف بقمح الخبز، و«الديورم» ويعرف بقمح المكرونة، و«البيراميدل» المعروف في مصر بالقمح البلدي، ثم كلام كثير عن خاصية كل نوع دون أن أنجح في ربطه بما نعرفه في ثقافتنا الشعبية حول القمح حيث يمتزج بحياتنا وسلوكنا وعاداتنا، مدخلًا للوجاهة الاجتماعية، وزهوًا بما نملكه منه، وتنويعًا أصفر خلابًا يهفهف رقيقًا وسط الخضرة التي تلتف حوله لتحرسه وتشدو معه في السهول والحقول. والتعامل

والشؤون السياسية، وفي تلك الاحتفالات الجميلة التي تقيمها كثير من الأقطار تفاؤلًا بموسم القمح: في النمسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وفي كثير من القرى المصرية التي تربطه بموالد أولياء الله الصالحين.

كلمات لها معنى

بعضنا لا يزال يرى في المروج الممتدة: خواء مرعبًا.

*

الكلاب التي تقودنا إلى الطريق الصحيح، قد تصبح في لحظة كلابًا ضالة.

*

الخيانة دائمًا حبلى بكوارث جديدة.

*

أجمل ما في العالم أنه لا يزال يقرأ القصة والقصيدة، ويمعن في التفكير كأنه قد قرأها فعلًا.

*

الإيقاع السريع للوجبات السريعة والموسيقى السريعة يثير السخرية بإيقاع طقوس الزواج.

*

أي تكبير لصور مناقير العصافير يقربها من الصقور - فاحترس.

*

ليس صحيحًا أن القبور تحت سطح الأرض فقط.

*

لكي تنجو من هذا المرض ابتعد عن السمن والسجائر والسكر والملح والقهوة والخبز والدهون واللحم الأحمر والبيض والجرجير والفجل والخس والطماطم، فماذا بقي ليساعد على هذه النجاة؟

الورد

هذا الأريج حول الأعناق والنصوص والنهايات المتعددة

ظللت أتجول خلال السنوات الماضية بين مختلف الممالك، الإنس والجن والحيوان والأخلاق والزرع، فكيف فاتني أمر الورد؟ ذلك الذي ظل ـ على استحياء ـ يرنو إلى قلمي من خدره الشائك، مع أنه الوحيد المخلص الذي سيكون في مقدمة المودعين ـ دون أن يرث مني شيئًا، هذا إذا كانت نهايتي ستتم في سلام يسمح للورد بأن ينتظم ـ حزنًا ـ أو شعرًا ـ أو أغنية يؤرقها الندى، أو النوى، أو المنون، أو النسيم.

والورد زهر نشط مشع، وليس أخطر ما فيه جاذبية اللون فقط، بل ملمس أوراقه المماثل لنعومة بشرة الأنثى، ولذا فقد ظل زهرًا جليلًا، يطوق الأعناق، ومساند مقاعد الفرسان، ورسائل العشاق، وهامات الصبايا، وجراح المصلوبين، ونعوش أجداث الراحلين، ونُصُب الخالدين والشهداء ـ معروفين أو مجهولين ـ وقرون أبقار النذور

الحية في الصعيد المصري، والأبقار الجليلة في الهند، وأول ما يقدم للمنتصر والفائز والقادم ضيفًا عزيزًا والمستكين في فراشه معتلًّا، ويحتل مساحة واسعة من عناوين الروايات والأفلام والإخلاص والمحبة والبوح الهامس الساحر.

وللورد طاقة من الجمال تصنع حوله هالة تألق، لو أمعنت فيها الدقائق الأولى من الصباح لانسابت إلى جوانحك، وحالت دونك والشراسة أو العنف أو الشر حتى آخر النهار، وأثارت فيك إحساسًا دافقًا بالفأل الطيب، قد تحيلك إلى شاعر، أو ملاك، أو فراشة، أو تحيلك إنسانًا خالصًا.

وأعدى أعداء الورد أقدام الحفاة والجياع، وجنازير وبارود وأحذية وآلات العسكريين، ومعدات العلماء، والمرعوبون والجهلاء، والحيوانات، وعمال التعدين والإنشاءات والمباني، والأرض الجيرية والباحثون عن الآثار القديمة، والذين يصنعون الورد البلاستيك، والسفهاء والكلاب، والزوابع، وعمال الصباغة، والمتعصبون دينيًّا أو سياسيًّا أو اجتماعيًّا أو عرقيًّا، واللصوص.

وكلما تفككت حقول وبساتين الورد، أفرزت معنى جديدًا، ففي تحريكها كمحصول فإنما هي تسعى لمصانع الروائح، وباقات: أعناق الفرحانين أينما وكيفما كانوا، وأفراد أو واحدات: فإنما هي الوردة التي تحمل رسالة واضحة وعاشقة بين فتى وفتاة. وقد قامت الوردات المفردات بأكثف رسائل الغرام في القرون الوسطى، عصر «كازانوفا» و«روميو»، دعك من السلم الذي يلجأ إليه العاشق كي يصل ـ بالوردة ـ إلى أول شرفة تقف فيها معشوقته، وانتبه إلى أن

الوردة ذاتها مقتطفة من حديقتها، إن لم تكن وردتها الخاصة، ولذا ستظل الطريقة التي تمسك بها الأصابع الوردة مختلفة عن الإمساك بالقلم والرايات والسكين والسيف والمدفع.

والورد بأنواعه يظل طوال الليل يتلمس وسائل الوصول إلى النهار، وبألوانه يتألق فرحًا بمجرد تسلل وانسياب الفجر، ويعشق الأصوات الجميلة الخفيفة. وقد نشرت مجلة «الريدرز دايجست» الأمريكية الشهيرة أن وردًا كان يذبل قبل استكمال دورة نموه، لوجوده قريبًا من نافذة جماعة من الطبالين الذين يحدثون أصواتًا يومية ضاجَّة. وفي المقابل يُحكى أن حديقة «فيفالدي» الإيطالي ـ من أشهر عازفي وواضعي ألحان الكمان ـ كانت تنتج أكبر زهور وأطولها عمرًا، ولذا فمن الميسور عليك أن تراقب نحلة تسعى نحو وردة: إنها تكاد تغلق أجنحتها قبل الهبوط على أوراقها، وتكاد تنحني عشقًا أثناء سعيها لمركز الوردة. وبالتأكيد فإن النحلة تخفي زبانها داخل جسدها، لا مجال للقسوة أو الشر على وجه الوردة، وعندما يمتد خطم النحلة نحو وريقات جسد الوردة، فإنما هو يحتويها ويصافحها ويقبلها، النحلة تمتص الرحيق الآن ثم تحمل حبوب اللقاح لوردة وحيدة أخرى. وخلال كل ذلك تحاول النحلة ألا تحرك أجنحتها، إنها لا تود من الوردة الثملة اليقظة أن تنفصل عن هذا الاندماج المرتاح، انظر إلى النحلة ـ بعد ذلك ـ وهي تسقط سنتيمترات خارج الوردة دون أن تحرك أجنحتها، إنها لا تود أن تصنع للوردة قلقًا، بعدها ينفرج الجناحان بكل قوة الحياة، لتبدأ الوردة في الاهتزاز الجميل.

تعديل ضروري نتيجة للتضخم العالمي: السعادة ليست في المال ـ بل في الأموال.

*

مسألة الزواج من عجوز ثرية أمر مقدور عليه، المصيبة أن تلد، والكارثة أن تتخلى عنها.

*

كلما كتبت هذه الجملة يشطبها أناس غامضون: الناشر نوع من الثعابين.

*

حتى الأشجار: لا نستطيع صعودها إلا إذا ألفناها.

*

ليس صحيحًا أنني أعادي نقاد الأدب، الأصل في الموضوع أنني أزدري الطريقة التي يخبطون بها على باب النص الأدبي.

*

كلما انطبقت السماء على الأرض: ضحك الماء من الزوابع.

*

الصداقة اسم وفعل وأداة إشارة، الحب كل اللغة.

*

ليس مصادفة أن يكون هذا المعدن الغالي الذهب على وزن الفعل الماضي: ذهب.

التفاح

ما بين تفاحة آدم، والمعرفة، وتألق الوجنات

أرهقتني علاقتي بالتفاح: ظللت ثلاثين عامًا ـ المقطع الأول من حياتي ـ أتصور التفاح فاكهة غامضة، لها إشعاع الراديوم وتألق القمر وسطوة إناث الجان اللاتي تزوجن من حكماء وجذبوهن إلى الهلاك. وبعد أن توقفت عن الدراسة ـ التي كنا أثناءها نرسم تفاحًا لن نشاهده، ونقرأ عن شفة أنثى شهية كالكريز الذي فشلنا في تصوره، أي بعد أن تقلبت بي شتى صنوف الفاكهة في شتى صنوف الأنظمة التي حكمت مصر. وبعد رحيل جمال عبد الناصر مباشرة رأيت التفاح، بوادر انفتاح كان يطل على استحياء، لكنه انتشر في جميع الأرجاء فور انتصار أكتوبر ١٩٧٣، حرماني منه ثلث قرن ويزيد جعلني شديد النهم في طلبه، حتى إنني كثيرًا ما اشتريت التفاح على تفاح. أحس به يتقلب في المواويل الشعبية رمزًا للمتعة، وفي الأسماء الأنثوية إشارة لطموح دنيوي للوالدين ـ لم يتحقق، وفي بروزه شريكًا مع الثعبان ـ عنصرًا أساسيًّا لفاجعة نزول آدم وحواء من الجنة إلى الأرض، وفي

قصائد التشبيب عندما نتجاوز مرحلة الغزل، وفي سلاسة طعمه التي تعلو فوق أي طعم مرافق، ولو كان مرًّا، وفي تدرج لونه أثناء استدارة الخد الجميل الحار لأنثى تدرك معنى الوهج.

والتفاح ـ في تصنيفه العلمي ـ يتبع الفصيلة الوردية، لا أعرف كيف ولماذا، ولا أريد أن أعرف لأني مقتنع بذلك، وموطنه أوروبا والأناضول (تركيا وأطراف من أقطار أخرى) وجنوب القوقاز وشمال الهند. لكنه سيظل فاكهة قومية في لبنان حتى ولو لم تذكر المراجع ذلك، ونجحت زراعته في مصر خلال الحقبة الأخيرة، كما أن الأرض الأمريكية تنتج منه حاليًّا أنواعًا وأصنافًا جديدة ومتعددة. ويصل عدد أنواع التفاح في العالم إلى ٧٥٠٠ صنف، خمسون فقط لها أهمية تجارية، وثماره تنضج حسب الأنواع في جميع فصول العام، وتختلف الثمرة حجمًا ونوعًا، وطعمًا أيضًا. وأنا وكل من أعرف من الأصدقاء نعرف التفاح فاكهة طازجة أو مربى، لكن البعض أكل ثمار التفاح مطبوخة ومقددة، ولا أشك أبدًا أن البعض قد حقق فوزًا إذا ما أكل فطيرة التفاح، أو حلوى التفاح، وبعض أصنافه يُعتصر شرابًا، كما تصنع من التفاح ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ـ أنواع من المشروبات المحرمة المذهبة للعقل مثل «السيدر». وقد اعتقد الكثيرون أن «الشمبانيا» بصفتها أثمن المشروبات: مصنوعة من التفاح، والصحيح أن هذا المشروب اللعين ـ إنما هو مجرد نبيذ أبيض يتلألأ بالحبب، وأفضل أنواعه ما صنع من العنب المزروع في مقاطعة شمبانيا بفرنسا، لعن الله صانعه وحامله وشاربه. لكن الملاحظ أن ثمرة التفاح تُصاب بتغير سريع فور تقطيعها، ثم يصيبها

فساد سريع أيضًا (تخمر كحولي) إن وُضعت في الماء، مع أن الثمرة ـ ذاتها ـ قادرة على تحمل مشاق تغير الجو نقلًا وسفرًا وتخزينًا وقتًا طويلًا، حتى إن هذه الثمرة تنضج خارج شجرتها إذا ما قطفت مبكرة.

ويروق لكثير من الشعراء المحدثين التهويم حول تفاحة القلب بصفتها فاكهة محرمة، تشعل نار الرغبة في أفئدة العاشقين، ومن النادر أن تتفاعل تعبيراتهم حول فاكهة أخرى، كالموز والرُّمَّان والبرتقال والجميز والفراولة. ولعل التكوين اللفظي للتفاحة بما فيه من موسيقى تصنعها علاقات الحروف سبب آخر مع كونها كانت فاكهة محرمة تقود للمعرفة، إضافة إلى تدرج لونها المميز من الأصفر الفاتح حتى الأحمر الفاتح والغامق ـ وكل درجات الأحمر الملتهب بالموسيقى اللونية أيضًا. يبقى من أمر التفاح شيء يسير: أن أجد من يهديني إلى فطيرة التفاح، أو يهديني فطيرة التفاح، أيهما أقرب.

كلمات لها معنى

نحن المنادين بالحرية: لا نتحمل النظر إلى قفص فارغ.

*

الذي ينبش الأرض استدراجًا للثعابين، لا يرى عروق الذهب أبدًا.

*

يرعبني هذا الصديق المتألق: ظل يفخر لأنه تزوجها، وها هو يفخر لأنه طلقها.

*

الجار للجار وخصوصًا إذا أصيب أحد الطرفين بتاء التأنيث.

*

نستطيع أن ندرك مغزى سلوك بعض الحيوانات الغريبة، بأسرع ما ندرك مغزى سلوك بعض النماذج الأدبية الحديثة.

*

وأي كارثة أكثر من كونها تزوجت سقاء،
وقضت نحبها من العطش؟

*

لعل أهم هدف عصري تحقق من الشهادات الدراسية: أن نجد شيئًا نحتفظ به.

*

لا بد أن يكون لدينا قانون نحاكم به مدرسي الفصول الذين علَّموا كثيرًا من الكتاب المشهورين كتابة موضوعات الإنشاء.

*

داخل كل رجل أنثى: يقولها علماء النفس ليشيعوا بيننا نوعًا من الرحمة، انظر إلى ما هو معروف: داخل كل أنثى رجل على الأقل.

*

حتى الزهور تميل بعنقها حين تقطفها.

شجر السَّنط

الشرير الشوكي الذي لا ظل له مع صداقته التاريخية للناس

يبدو شجر السنط مصابًا بالإرهاق والأنيميا إذا ما قورن بأشجار القرى: الكافور والنخيل واللَّبْخ، لكنه ـ مثل الشر ـ ينمو خارج إرادة البشر، ثم لا يلبث البشر أن يبحثوا تحت أغصانه المعروقة الشوكية عن الظل، فقد رأيت أبي وهو يجمع في صبر شجيرات الحراز التي اخترقت بواطن حقله، (والحراز هو شوك شجر السنط فقط في منطقة ديروط ـ وسط الصعيد المصري ـ التي أنتمي إليها، وقد تابعت أثر لفظ الحراز في القواميس والمصطلحات بمعنى الشوك فلم أجد)، وأهل المدن قد لا يدركون أن واحدًا في الريف نادرًا ما ينجو من لدغة عقرب أو زنبور أو شوكة سل النخل أو حراز السنط، ونادرًا أيضًا ما تخلو مدارية ـ أي بين مداري السرطان والجدي وحول خط الاستواء ـ من شجر السنط، حتى في الجبال الشاهقة على البحر الأحمر سوف تدهش أن الفسيلة النامية في قلب الصخر

هي من شجر السنط، وحينما تأخذ القطار من القاهرة إلى أسوان ـ جنوبًا ـ لمسافة تصل إلى ألف كيلومتر، سوف تلاحظ تغير وتباين أشكال المباني والأزياء وملامح الناس والمزروعات والتضاريس واللهجات، تختفي أشجار الجميز وتظهر أشجار الدوم، يقل البلح الأصفر الصغير ويبرز البلح الأحمر الكبير. وتتراجع الحلي في صدور الإناث ومعاصمهن لتغزو مداخل الأنف وأعلى الرأس. تختفي مزارع البرتقال واليوسفي ثم تتألق مزارع الرُّمَّان، إلا عنصرين يظلان ثابتين: أبو قردان وشجر السنط.

وفي ظاهر الأمر فإن السنط يظل شجرًا شوكيًّا شريرًا مؤلمًا لا ظل له، غير أن أشجاره استخدمت من قديم الزمان عند الفراعنة في تصنيع أخشاب الأثاث المنزلي والأدوات الزراعية، ويجمع أحمد كمال استخدامات الفراعنة للسنط في كتابه الصغير الجميل: اللآلئ الدرية ـ الذي طبع بمدرسة الفنون والصنائع سنة ١٣٠٦هـ (وقد حسبتها فوجدتها سنة ١٨٩٠م)، ويقول إن نقوش آثار إدفو ودندرة وما جاء في الباب التاسع عشر من (كتاب الموتى) الفرعوني، تؤكد أن السنط كان منتشرًا في مصر منذ البكور ـ أي في فجر التاريخ، كما أن القدماء كانوا يعدون نار خشب السنط هي الأقوى ولا سيما بسبب رائحتها النفاذة الناجمة من احتوائه على سوائل ومواد راتنجية، لقد استخدمت أخشابه مبكرًا في صناعة الآلات الحربية ـ مع أن أغصانه شديدة التعقيد والالتواء.

والمواد الراتنجية هي الصمغ المشهور، والذي كان يدخل في تركيبات الأثاث وإضفاء اللون القاتم على الكتابة العميقة فوق

المقابر وتشكيلات زخارف وتوصيلات العاج، يذوب بعضه في الماء، كما أنه يمتص كميات كبيرة منه، وكان يستعمل أيضًا في صناعة الأحبار والمواد اللاصقة، وتذكر الموسوعة العربية الميسرة أن الصمغ يدخل أيضًا في صناعة الحلويات، كيف؟ لا أعرف، ومالئًا في صناعة النسيج، وملطفًا في الأدوية.

لكن بلاد الريف أكثر اهتمامًا بالقرظ من الصمغ، والقرظ هو ثمرة شجر السنط التي تحتوي على بذوره وتشبه قرون شجر الخروب الشهيرة، إذ يستخدمون القرظ في الطريقة الموروثة من قديم في دباغة الجلود، ولعل جلد قربة حفظ الماء، وقربة خضِّ اللبن أكثرها انتشارًا، كما يدخل القرظ في كثير من الأدوية القروية لعلاج أمراض الجلد، وبالمناسبة فثمة مرض يصيب الجلد بالدمامل والعقد الجافة السوداء ويسمى طبيًّا وشعبيًّا: السنطة.

كذلك فإن بيوت العرسان الجدد لا بد أن تخلو من ثمار السنط ـ بذور السنط بالتحديد ـ وهي التي يستعملها خبراء صنع التمائم والأحجبة في تكوينات «الأعمال» التي تحيق بالأعداء الشر، ومع أن رائحة زهر السنط الأصفر زكية ومقبولة، إلا إن كثرة الحراز ـ أي الشوك ـ الذي يطوف بها، وانتشار الدود المسمى كلاب السنط، زاحف حولها، يجعل هذه الأزهار في موقع الخوف والتوجس، ذلك أن كلاب السنط هذه تتسلل إلى أقرب المخلوقات الحية وتلدغها مما يثير ذعرها واضطرابها، وحتى دون لدغ فإن الحركة الدودية بما في جسد الدودة من شعيرات خشنة يجعل الجسد الحي يقشعر، كتبت قصة مبكرة ـ وشهيرة ـ بعنوان «كلب السنط».

ويستعمل شجر السنط حتى الآن في صناعة السواقي والمحاريث والنوارج والطبالي ـ وما إلى ذلك من أدوات ريفية ـ لكنه يظل شجرًا شريرًا وكريهًا رغم كل ما أفاد به الناس، حيث لا يرتاح إلى جذوعه أحد، لأنه أيضًا بلا ظل.

كلمات لها معنى

كل المعادن تشكلت أسماؤها خارج الفعل الماضي،
عدا الذهب.

*

ينشئون الشعر على وقع خطوات الجمال، وعندما يستعملون
السيارات والطائرات يدهشون للشعر الحديث.

*

هذه القدرة المذهلة التي يتلمس بها النور الطريق إلى الأذكياء ولو
كانوا عميانًا.

*

تتشقق حوائط المدارس من الأناشيد، وحوائط المحاكم
من الارتجاف.

*

مسابقة ذات سؤال واحد: متى وأين عرفت أي كثافة سكانية
يهودية السلام؟

*

مطلوب مني أن أتفاءل، بعد أن أهلكت كل هذه العصور المتوالية المتناقضة.

*

تتشدق كتب مدارس الصناعات الغذائية والمنزلية بما تحيقه إناث الحشرات فتكًا بالذكور، تدير هذه المدارس ناظرات.

القصب

مأوى السكر وذيل القط وناي الموسيقى وقطاع الطرق

ظللنا سنوات ندرس في المدارس - المتعددة المراحل - القمح والفول والبرسيم والأذرة والشعير، دون أن نقترب من القصب، مع أننا - في صعيد مصر بالذات - ندرك أن القصب يؤثر في علوم الاجتماع والتاريخ وتضاريس الجغرافيا. هناك - في منطقة ديروط مثلًا - منطقة زراعية شاسعة تقع بين ترعتين، وظلت هذه المنطقة أحقابًا طويلة دون أن يقام فيها بيت واحد، بسبب زراعتها كاملة بالقصب، إذ إن غابات قصب السكر تؤوي الحيوانات المفترسة مثل الذئب والضبع والثعلب والنمس والقط البري، كما تؤوي اللصوص وقطاع الطرق وطالبي الانتقام والساعين إلى الثأر. وجاءنا عصر كنا - في منطقتنا - نلتوي في طرق جانبية ضيقة كي لا نسير بجوار حقل القصب، وعندما تنطلق كلمة «قصب» فهي لا تنصب إلا على قصب السكر، ذلك النبات المعمر المسالم المؤثر في جميع شؤون حياتنا، والمتداخل في الحلوى والمشروبات المتعددة في درجات الحلال

حتى تصل إلى درجات الحرام، وفي الفطائر والمهلبية وأمراض ارتفاع ضغط الدم والبولينا والكولسترول وتمزق صمامات الفؤاد، ثم مرض السكر ـ (أو المرض السكري كما كانوا يطلقون عليه منذ خمسين عامًا)، مع أن للقصب أتباعًا خارج العائلة السكرية الحلوة، تراه في غابات غاب ذيل القط النامي بريًّا على شواطئ الجداول والبحيرات، والذي يهدينا ـ بين وقت وآخر ـ جثة قتيل مخفاة بين ظلاله الكثيفة، وكثيرًا ما تكون الجثة محترقة أو مجذوبة من المياه الغريقة، وهناك نوع من الغاب تصنع منه قصبة العزف: الشبانة والمزمار البلدي والناي، وآلات موسيقية عديدة أخرى، بعضها شعبي نراه ونستمتع به في عزف الموسيقيين الشعبيين في الحواري والطرق والموالد، يساعد في تكثيف حكايات أبي زيد الهلالي سلامة وعنترة العبسي والأميرة ذات الهمة، أو حكاية حسن ونعيمة الشهيرة في صعيد مصر، (وبالمناسبة فإن حسن المغنواتي هذا الذي كان يعشق الغناء والشدو في ريف مصر، وتم قتله عقابًا له على حب نعيمة، وجدوا جثته أيضًا مواراة في غابة قصب ذيل القط)، كما أن نوعًا من الآلات الموسيقية الغابي نراه قد انضم إلى الفرق المحترفة وراء مغنيات المدن ومطربيها. وللناي بالذات دوره المهم وراء أم كلثوم وفي الفرقة الموسيقية التي تحمل اسمها، ولـ«موتسارت» ـ أو «موزار» ـ النمساوي الشهير مؤلفاته الشهيرة المخصصة للناي (الناي السحري مثلًا)، لقد انضمت القصبة الموسيقية إلى مجموعة العزف الأوركسترالي من مئات السنين، دون أن تترك موقعها الأصلي في فم الرعاة، وشمامسة الكنيسة، والمعزوفات العربية والشرقية.

ونادرًا ما تخلو الألحان الهندية من قصبة الناي، حتى تلك التي تتراقص على إيقاعها الثعابين الضخمة، والفتيات ذوات الجسد اللدن في الأسمار والأفراح والليالي الملاح، ولا سيما أن قصب الغاب موطنه الأصلي جنوب آسيا، مثله مثل قصب السكر الذي تعتبر الهند أكثر الدول إنتاجًا له. وكان أول من اهتم بقصب السكر اهتمامًا كبيرًا في مصر محمد علي باشا أوائل القرن التاسع عشر، من ناحية زراعته واستيراد ما يكون قد حصل لأنواعه من تطورات في الهند. وتحققت للسكر المصري مكانة عالمية، وصلت إلى ذروتها في عصر جمال عبد الناصر، حيث تعددت مصانعه من كوم امبو وإدفو وأبو قرقاص إلى قوص ونجع حمادي. وفي السنوات الأخيرة بدأت زراعة قصب السكر في مصر تواجه مشاكل عديدة أثرت في كمية إنتاجه، منها استيراد السكر من الخارج بأسعار تهدد إقبال الجمهور على السكر المصري، ثم منها زحف المباني والمساكن على مناطق زراعته، ومنها سقوط الإلزام الحكومي على مناطق معينة بزراعته حفاظًا على مصانع السكر لتظل تعمل. وأصبح المزارع حرًّا في اختيار ما يحقق له الدخل المناسب بجهد أقل وفي زمن أسرع، فقصب السكر يحتل الأرض أربعة أعوام حدًّا أدنى، أي أن كل عام يكون «كسر القصب»، ثم رعاية الجيل التالي من المحصول للموسم القادم.

ولا يزال سكر القصب جزءًا من هدايا العائلات إلى المرضى، والخارجين من السجن، والعرسان، والعائدين من الحج، والناجحين في المدارس والكليات والانتخابات، لكنه ممنوع في هدايا مجاملات المآتم وذكريات الموتى ومواسم الاحتفاء بهم. كما أن السكر

لا يزال ـ حتى اليوم ـ خارج استعمالات الأحجبة والتمائم والأعمال في التفاؤل والتشاؤم ـ وما إلى ذلك من اعتقادات شعبية يستخدم فيها الملح دون السكر، فالسكر هو جزء من الذوق العام يطلق اسمًا على اللطيف من العيال: الذكور والإناث، واسمًا للقطط والكلاب. ولا يوجد من الحيوانات ما يلتذ بطعم السكر سوى الببغاء والقرد والحصان، كما أن السكر أصبح ممنوعًا على الأفراد الذين يتجاوزون في أعمارهم الخمسين عامًا (في المشروبات مثل: الشاي والقهوة، وفي الفطائر والعصائر والعجائن)، غير أن السكر ـ حين يختفي من البيت ـ سوف تسمع من يهمس متضايقًا: أعوذ بالله، وكان ذلك يطلق على خلو البيت القروي من الدقيق، لأن نفاد السكر من البيت إشارة للفقر وهي مرعبة للأسرة.

على أن القصب يترك السكر في الأفواه وزجاجات الشربات ليتراقص زخارف ضوئية على فساتين الأفراح، وتيجان العرائس ليصبح المقصب تكوينًا لازمًا لهذه المناسبات العربية، في كل مستوياتها، الأكثر فقرًا، والأكثر ثراء، ولكل مقصب عناصره من «الترتر» أو «الخرز» حتى اللؤلؤ والدر ـ والماس أيضًا.

كلمات لها معنى

ذيل الكلب لا ينعدل لو علقوا فيه القالب أو رزمة دولارات: إنها الأصالة.

*

لم يعد الجبر علمًا، لقد أصبح عنصرًا أساسيًّا في الزواج.

*

كثير من المحبين يرحلون وراء حبيباتهم وهم يتعذبون دون أن يدركوا أن الحبيبات قد توقفن عند نقطة معينة، وأن العودة إلى الوراء لم تعد ممكنة.

*

أي عذاب هذا الذي يحيق بعصفور صامت يقف ـ في القفص ـ على جسد عصفور ميت؟ المشهد أحال بيتنا إلى سرادق عزاء عدة ساعات.

*

كان القطار الفاخر قد أغلق عينه متناومًا كي لا يرى فقراء المسافرين.

*

سحر الأنثى يبدأ من العيون، دعها تتكلم!

*

كان عدد الناس ـ قديمًا ـ يسمح بوجود قرين خرافي لكل فرد، عدد الناس الآن تجاوز المسموح به من القرين، فظهر التقدم.

*

الحدود بين الأمم، مثل أي حدود، قابلة للتعديل بعد المفاوضات، وقابلة للإلغاء فور التعاشق، أو المداهمة.

الرُّمَّان

أكثر الفاكهة تفاعلاً مع عالمنا

الحلو نايم مستريح في أمان
سايبني أسرح جعان على عطشان
والحلو نايم في الهوا جنينة
وعوده غصن الهوى: رُمَّان
يا منفلوط الحليوة لملمي حسنك
دا أنا اللي كليت من لوعة الحيران
إنت الجمال والمرجلة وإحنا مريدينك
وريحتك الحلوة: الفل والرُّمَّان!

وهكذا يظل صوت المادح الجوال يشدو في شجن واضح - وأجش - متنقلًا في عربات القطار، ليتوسل الصدقة ممن يكون من أهل منفلوط - أو محبًّا لمنفلوط، ولقد حاولت محاصرة الإفراط (في النص) في اللهجة العامية كي أتفادى محظورات النشر في مجلة «العربي» باللغة غير الفصحى، حيث يبدو واضحًا أن فاكهة الرُّمَّان

رمز لمنطقة منفلوط (نعم: التي منها الناثر الرومانسي مصطفى لطفي المنفلوطي)، وأن كل منطقة ـ في الصعيد لها رمزها الذي يستخدم في إثارة النخوة والكرم. دير مواس: العسل الأسود (عسل القصب)، ديروط: القناطر، ملوي: نسج شيلان العرائس، إلخ، حيث تصبح نقطة أساسية في أشعار ومباريات أغاني الأفراح ومراثي الموتى والافتخار وما إلى ذلك من فنون وأقوال شعبية.

ويعد الرُّمَّان من أقدم الفاكهة، ولثمرته بذورها الحمراء ـ التي قد تشوب حمرتها ظلال غامقة أو آثار بيضاء، ولها طعم مز ـ أي به أثر من انحراف عن الحلاوة الخالصة، وكانت ثمة عادة في بلادنا: تنقع بذور ثمرة الرُّمَّان في ماء مالح لأيام، ثم تلقى البذور على رؤوس المحبين والسوائل تحت أقدامهم ـ في أيام الأفراح. وحكمة الماء المالح هنا تبدو مرتبطة بما يعنيه استخدامه من تفاؤل معروف، لكنني أعتقد أن الماء المالح الباقي من نقع بذور الرُّمَّان إنما هو ضد التخمر بطبيعة الملح، إذ بالسليقة والتجربة واتساع دائرة المعرفة: اكتشف القرويون أن الرُّمَّان سريع التخمر. وهو ـ بالفعل ـ قاعدة لشراب «جرينادين» المنتشر شعبيًّا في إسبانيا وجنوب إيطاليا واليونان، بل إن قشور ثمرة الرُّمَّان يمكن نقعها لهذا الهدف أيضًا، غير أن الذي يحدث لقشور الرُّمَّان من نقع أو غلي في ماء فاتر فترة طويلة إنما هو لعلاج انتفاخ البطن ـ المصران الغليظ ـ وطرد ديدان «الإسكارس»، كما يعتقد كثيرون أن هذا المنقوع له أثر في تحريك حصوات الحالب أو المرارة. وفي أسوان ـ جنوب مصر ـ كانت العائلات تحتفظ دائمًا بمعالجات الرُّمَّان للتغلب على بقع البهاق التي تظهر واضحة في

الوجه والرقبة. ولعل ذلك وراء استعماله لمعالجة النقرس الذي يتسبب من عدم تصريف البولينا كي لا تمثل نسبة أعلى في الدم، وفي حماطة وأبو غصون ـ على شواطئ البحر الأحمر الجنوبية ـ كانت قشور الرُّمَّان تغلى مع حبوب الحلبة، ويتم توزيعها ـ أكوابًا ـ على الضيوف دون التعلل بالأمراض ـ تمامًا ـ كعادة تقديم القهوة أو الشاي، ويضاف إليها السكر لمن لا يستطيع تحمل طعمها المرير.

والموطن الأصلي للرُّمَّان: إيران وما حولها، وقد حاولت أن أعثر على أثر للرُّمَّان في كتب الحضارة الفرعونية دون جدوى، وهذا لا يحسم استعمال المصريين القدماء لهذه الفاكهة الطيبة، لا سيما وأن المتخصصين في زراعة الرُّمَّان يشيرون إلى أنواع عديدة: منها الحجازي، والمنفلوطي، والطائفي ـ بالتأكيد نسبة للطائف في شبه الجزيرة العربية ـ والملليسي (أو القبطي) ذلك الذي كان يفضل زراعته في أديرة الرهبان (وثماره بيضاء مصفرة وبذوره بالغة اللين) ويقاوم التغيرات الجوية العنيفة، وتخلو قائمة أصنافه من الرُّمَّان الإيراني، (ربما كانت إيران تزرع كل الأصناف)، وقد لاحظت أن داود الأنطاكي ـ صاحب «التذكرة» ـ لم يذكر شيئًا ذا بال عن الرُّمَّان إلا إنه اشتهر بالجلنار، والجلنار شعبيًّا هو حبوب الرُّمَّان، ويعرفه أبناء المناطق الشعبية في القاهرة. لكن الجلنار ـ مرتبطًا بالرُّمَّان ـ مجهول تمامًا بالنسبة لنا نحن أبناء الريف، مع إدراك الأجيال القديمة من أهلنا لمعنى الرُّمَّان: رمزًا في الأغاني والمقولات الشعبية.

وبرغم انتشار الرُّمَّان ـ فاكهة شعبية ـ في جميع البلاد، فإنه يظل خارَج اهتمامات الأفراد الزوار، إذ لا يحبذ الزوار والضيوف أن يكون

الرُّمَّان داخل سلة الهدايا التقليدية التي يميل الضيوف أو العرسان إلى اصطحابها عند دخولهم بيوت المضيفين المرحبين: سوف تجد العنب والخوخ والبرتقال والموز ـ والتفاح في العصور الأخيرة ـ دون الرُّمَّان، وهو تقويم اجتماعي لا يليق بهذه الفاكهة الجميلة المتميزة، والتي حظيت بموقع متميز في الفولكلور، كما أن كل دروس المدارس الابتدائية، وكتب الحساب فيها تشمل كثيرًا من أنواع المسائل حصرًا وبيعًا وطرحًا وقسمة وضربًا في سعر الكيلو أو الواحدة، الفاكهة والبيض وأرادب القمح وكيلات الذرة: عدا الرُّمَّان، مع أنه يحاصر البيوت والموائد والأشجار وأكوام التسويق (بالشروة) دون ميزان، كما أن الرُّمَّان تسرب ـ مصطلحًا معروفًا ـ في كثير من المعدات والآلات: رُمَّانة الميزان الكبير، ورُمَّانة الجرس، ورُمَّانة ذراع الكراكة، ورُمَّانة بلي السيارات (البلي: جمع بلية ـ وتستخدم في تكوينات تحريك العجلات)، كما أن القرويين يطلقون على أنواع من القنابل المكورة القديمة: الرُّمَّانة.

وقد بدأ كل ذلك يندثر عدا ما تلقيه مباشرة كلمة (رُمَّان) في العقل ـ أو الخيال ـ رمزًا للتغيرات التي تصيب تكوينات جسد الصبية، وهي في طريقها لتدخل محافل الأمنيات والأغنيات.

كلمات لها معنى

ومن سوء حظها أن الحزينة جاءت لتفرح، فلم تجد مطرحًا واحدًا، كانت كل المطارح فاضية.

*

إنها نخلة رديئة، فقد طاب بلحها دون أن يكون على أرضها طوبة واحدة تصلح للرجم.

*

للرغبة رائحة، ولها عيون واضحة أيضًا.

*

ليس صحيحًا أن الذهب ملك حلي الزينة، ولا البلاتين، إنه الصدق.

*

الأكثر نزقًا: قطة تحيا في رعاية نظام دقيق.

*

الليالي الطويلة إحساس بالوحدة، أو بضمور الأموال، أو اندثار الثقافة.

*

لا ترجم زجاج نوافذ بيوت غيرك بالطوب، انتظر حتى تنغلق الشبابيك.

التوتة

ذات الظل الوارف الساتر، والثمرة الطيبة المتداخلة في الحكايات والعلاقات

أزعم أن التوتر، والاكتئاب، والشراسة، هذه الأمراض العصرية، داهمت الأجيال القائمة بسبب نموهم بعيدًا عن ظلال شجرة التوت، هذه الشجرة التي تورق الهدوء الأبوي، وتثمر الحنان الأموي، تصد الأعاصير وتحيلها إلى نسيم رقيق يتسلل إلى الجوانح حبًّا، وودًّا، وشعرًا وأغنية. وكان حسن ـ المغني ـ عاشق نعيمة: يرتكن على جذع شجرة التوت القريبة من ديار المحبوبة ليشع وجدانه بالشدو المسالم الجميل، إذ يكاد التوت يكون المرتع الدافئ للصبية، ومركز المسامرة للفتيان. وأهل الريف ـ في بلادنا ـ وقعوا في مشاكل عديدة تعصبًا لأشجار التوت، خارج الديار وداخلها، على ناصية القرى ومداخل النجوع. وعندما يفتحون الطرق والمسالك وجداول الماء: يظلون شديدي الحرص على عدم قطع هذه الأشجار، وكانوا يطلقون على الإناث الوارفات الجميلات: الحاجة توتة. ربما هي أكثر الأشجار القروية

إحساسًا بالشتاء: حيث تتساقط أوراقها منذرة بحلول البرد الذي سوف يصبح بعد ذلك قارسًا، ثم تظل الشجرة عارية خالية من أي أوراق تكاد تكون في حالة موات، لكنها ـ إن يحن الدفء ـ تشقشق الأوراق بازغة من خشبها القاتم، معلنة قدوم الربيع، ما هكذا يكون شجر السنط الشرير الذي لا يأبه ـ بأشواكه ـ لأي تغير في الطقس، والذي ينمو ويترعرع ـ تلقائيًّا وفي شراسة شريرة ـ أينما وكيفما تكون الظروف.

والتوتة مهد الأغنية الريفية المرتجلة، وعنصر مهم في الحكايات الشعبية عندما تنتهي في سلام دافئ (توتة.. توتة، خلصت الحدوتة)، وثمارها تجذب الكبار قبل الصغار. وستظل دودة القز ـ الحرير ـ تسعى بين أغصانها سعيًا للتغذي بالورق الطري تمهيدًا لأن تصبح شرنقة ملتفة بالشعيرات الناعمة، ولذا فإن التوت يزرع بكثرة في اليابان ـ بالذات ـ ثم الصين وأوروبا الغربية لتربية دودة الحرير على أوراقه. مؤسسات ضخمة ترعى هذا النشاط الذي تقوم به وحدات من العائلات ترتزق منه، لكننا ـ في بلادنا ـ لا نرعى أمر حرير دودة التوت بهذه الكيفية الاقتصادية، ربما تتوقف المسألة في حدود «الهوايات» التي تأخذ قسطًا من اهتمام المدارس، حيث تظل الشجرة مصدرًا للظل، وللثمرة الأسطوانية الصغيرة، البيضاء أو الصفراء أو الحمراء أو البنية السوداء، الحلوة، اللينة، والتي يشوب حلاوتها مُرَّة مثيرة الطعم، تؤكل طازجة أو يصنع منها عصير لذيذ منعش. ويقال إن هذا العصير يشفي من دود البطن (أي يطرده خارجًا) ومن ذلك جاء المثل القروي على لسان امرأة لزوجها: أنا مثل التوت، «توتة ما تشبع تشفي»، فالتوَت ـ في الموروث العلاجي ـ يوصف لمداواة انتفاخ البطن،

وفي الحد من تنميل الأطراف، وفي تطييب خاطر الغاضب، وفي تهدئة حالة العطش. ولا يزال بدو الصحراوات المصرية يحصلون على كميات كبيرة منه خلال أسواق الربيع في وادي النيل، لاعتقادهم بأن الكثير منه يشفي من آلام الركبة، وفي منطقة إدفو ـ جنوب مصر ـ كانوا يخمرون ثمار التوت مع غشاء الدوم ليحصلوا على مزيج علاج أمراض قوائم الإبل، كما أن كمادات التوت المعروق الساخن تخفف من آثار حساسية الجلد.

وتواجه التوتة إبادة واضحة في بلادنا المعاصرة، حيث اندثر عصر الآباء الذين كانوا يدركون معنى هذه الشجرة، ولم يعد يهتم أحد بزراعتها أو تربيتها بعد أن داهم العمران الحديث المواقع السكنية، كما أن أصحاب الحدائق لا يضعون التوتة موضع الاهتمام المناسب، مع تقلص حرير القز ـ أو الخز ـ تحت ضغوط انتشار الحرير الصناعي ـ عندنا وعند غيرنا. كما أن الأغنية التلفزيونية كبرت وترعرعت بعيدًا عن ظلال التوتة، واستيقظت أشجار الكازينوهات وأيكات (جمع أيكة) الشواطئ والقرى السياحية والملاهي الليلية عشاق هذا الزمن، ثم إن الشعر الحديث فقد التواصل القديم مع الطبيعة فلم تظهر توتة واحدة في بيت واحد، ربما لأن هذا الشعر لا يقوم على مساحات، إنما مجموعة متناثرة من الوحدات تخلو من التضاريس، والتي في وديانها وبين رباها، وعلى مداخل بيوتها، وساحاتها، وجداولها، كانت التوتة تنمو، مستنشقة النسيم، ولهو العيال، وسمر الكبار، وحكمة الشيوخ. وقبل كل ذلك كانت التوتة رمزًا للستر، وإخفاء ما يسبب الحرج، أليست التوتة هي تلك الشجرة التي هرع إليها آدم وحواء كي

يتوسلا بأوراقها العريضة لستر ما لا يحبان للآخرين الاطلاع عليه، فور نزولهما من الجنة إلى الأرض؟

وهو ما يفوت أجيالنا إدراك معناه ومغزاه.

كلمات لها معنى

ينمو الشر في الوديان، فإن نجح: يلوذ بالجبال.

*

صنعت المدن سيارات الإسعاف والحريق، ثم وضعت أمامها مركبات مزدحمة لتعوق حركتها، ثم اندهشت لصراخها.

*

الديمقراطية نوع من تربية الكتاكيت في الهواء الطلق، دون أن ترفع عينها عن السكين المعلقة على الحائط.

*

الدليل على فساد ذوق العصر: مايكل جاكسون.

*

يتكلمون عن الطفولة المشردة، دون أن ينتبهوا للرجولة الواقعة في نفس المأزق.

*

سماعات على الأذن، نظارات على العيون، تلفون في الحزام، سيجارة في الفم، ويشتكون من الوحدة.

*

ألم تلاحظ أن قوس قزح لم يعد يطل من السماء؟

*

تريد الزوجة أن تثبت ـ طوال الوقت ـ أن الوصول إلى قلب زوجها يمر من البلعوم.

*

الصداقة تحتاج إلى تهوية حتى لا تفسد من التخزين.

الزهر

أريج الحياة، ومتعة للنظر، وراحة للفؤاد، والسلوان، وبهجة العرسان، والمنتصرين

صباح الورد، والفل، والياسمين، كل هذا الزهر يتألق بين التحايا الزاهرة في أقطارنا، حتى بعد أن ينسحب عنا الصباح لنوغل في المساء، فإنه يستأثر بنصيبه منها، والزهرة ألمع نجم سماوي ـ باستثناء الشمس والقمر. وعبد الحميد الزهراوي من زعماء سوريا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أصدر جريدة «المنير» وكان يطبعها ويوزعها سرًّا ليقاوم سياسة السلطان العثماني عبد الحميد، وله تاريخ في إنشاء الأحزاب والمنظمات الوطنية. ولما نشبت الحرب العالمية الأولى حكم عليه بالموت شنقًا، أما أبو القاسم الزهراوي فهو أول من نبغ في الجراحة بين العرب، وقد عاش في الزهراء ـ من ضواحي قرطبة الأندلسية، أجرى العمليات الجراحية التي وضع تفصيلها في كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف» وكان له أعظم أثر في النهضة الأوروبية بعد

أن رحل صاحبه عام ١١٠٣م، وزهران هي قبيلة في منطقة عسير بشبه الجزيرة العربية، وفيرة العدد الذي قد يصل إلى مائة ألف فرد. وزهر اللؤلؤ: يطلق على كثير من نباتات قصيرة تنتشر في أوروبا وشمال آسيا، وهي فصيلة مركبة ذات أزهار إشعاعية، وهي غير زهرة الثلج ذات الشكل الناقوسي من فصيلة النرجس، و«شنق زهران»: قصيدة طويلة كانت لها شهرة مدوية في الخمسينيات لصلاح عبد الصبور، أنشأها حول زهران الذي تم إعدامه شنقًا في أعقاب حوادث دنشواي ـ تلك القرية المصرية التي داهمها الإنجليز بعد أن فتكت ضربة الشمس بأحد جنودها. وزهران سلامة رسام مصري شهير ومؤثر، وتحظى رسوماته بالتميز الجمالي المتفرد، وزهير بن أبي سلمى شاعر من العصر الجاهلي، أسس مدرسة «عبير الشعر» التي تتأنى وتنقح في القصيدة قبل أن تصل إلى الناس.

والزهري من الأمراض التناسلية الخبيثة ـ رعاكم الله ـ له أعراضه من طفح جلدي وأورام وارتفاع الحرارة ومسائل أخرى عليكم أن تبحثوا عنها بعيدًا عن الواحة. أما أدهم زاهر فقد كان مديرًا لنا في شركة كانت تعمل في الستينيات في مشروع السد العالي، ومن كثرة تعديه علينا ـ في الأوقات القليلة التي عملنا معه فيها ـ قررنا أن نقتله، وبالفعل ترصدنا له مرتين، لكنه مات دون أن نحظى بالمراد. والأزهر: صفة ليوم الجمعة، وللجامع الأزهر الذي بزغ إلى الوجود في ميلاد مدينة القاهرة منذ أكثر من ألف عام بقليل، ليصبح أكبر ـ وأقدم ـ جامعة لعلوم الدين الإسلامي منذ نشأته حتى الآن، وقد أضيفت إليها ـ في عصر جمال عبد الناصر ـ جميع العلوم النظرية

والتجريبية والتربوية الأخرى. والأزهران: الشمس والقمر، وزهر النرد (الطاولة في العامية المصرية) قطعتان من العظم أو العاج (أو البلاستيك حاليًّا) صغيرتان مكعبتان، ويُحفر على كل وجه من وجوهها الستة، نقاط سود من واحد لستة، وتستخدم في اللعبة المعروفة، والتي يقلبها البعض من تسلية إلى ميسر، وماء الزهر: ما خرج من الزهر بالتقطير ويستعمل في إضفاء الرائحة الزكية على العصير، ويقال له أيضًا ماء الورد. وأول ثلاث ليالٍ في الشهر كانت تُسمى: الزهر (بضم الزاي) ـ وهي الآن الليالي الثلاث التي تلي قبض أي أموال وتحتسب فور لقاء الصراف مباشرة. والزهراء لقب السيدة فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، والزهراوان: سورتا البقرة وآل عمران من القرآن الكريم، وزهرة الغسيل مادة تستعمل في الغسيل لتضفي على الملابس البيضاء بالذات تألقًا مشوبًا بظلال اللون الأزرق البهيج. وزهرة القمر: نوع من الكروم «الأعناب» التي تنمو في أمريكا «وتزهر بالليل»، والزهرية: الإناء الذي توضع فيه ـ أو تنمو فيه ـ الزهور. والمزهر: آلة موسيقية شرقية تشبه العود وتثير الشجن بسبب نغماتها التي تقارب القانون. والدكتور زاهر طبيب مصري التقيت به في بغداد عام ١٩٦٩، كان مغرمًا بالقصة القصيرة والشعر حين كنت ـ أنا ـ أحاول العوم في بحر الكتابة، ولا أعرف أين أراضيه الآن. والزهار: بائع الزهور، وتاجر الزهرة، وصاحب الخبرة في صناعة النيلة (صبغة شديدة الزرقة تستخدم في مظاهر الحزن والالتياع بسكبها على الملابس وفوق رؤوس النساء). وزهر الفول يطلق على الكتكوت الذي تلازم

بياض أجنحته نقطة سوداء، ويتيمن أهل القرى به. وهو اسم قصة لي عن ديك عظم أمره واستفحل لهذه الأسباب.

يبقى من الزهر كثير من الأمور التي نشمها قبل أن نراها، ترقبًا لتواصل وجداني متوقع، وتعبيرًا عن امتنان يصعب على اللسان التعبير عنه، ثم إن مروج الزهر ـ حين تمتد في الأفق ـ فإنها قادرة على احتوائي وجذبي إليها، كي أتحول إلى فتات ودقائق في المعاني الجميلة التي يشع بها الزهر في الأغاني والأشعار والقصص الرومانسية، وفي أكاليل المقابر، وإكليلات العرسان والمنتصرين أيضًا.

كلمات لها معنى

فقرات العنق لا تطاوع الرأس الذي ينحني لغير الله، كثيرًا ما تنكسر فلا يعتدل لها صاحب مرة أخرى.

*

ليس صحيحًا أن المدن تخلو من السراب الذي تتميز به الصحاري، إنه فقط يميل إلى الركون في الجماجم.

*

يأتي التذمر ثم الكراهية، فالعصيان: من العصا.

*

يصل مجدك إلى عنان السماء حينما تهمس الجدة لأحفادها بأنها كانت تعرفك، وتصمت ناظرة إلى بعيد.

*

القط الأبيض الذي يعيش معنا بدأ يطعن في السن ويشيخ: انتشرت الشعيرات السوداء في رأسه.

*

بعد اندثار مهنة السقا أخيرًا، يصبح المناسب تعديل المثل الشعبي عن الغبي إنه: يبيع الماء في حارة السقائين، ليصبح: إنه ينشر إعلانات الثلاجات في أصقاع الإسكيمو.

البصل

ذو الرائحة النفاذة في الفأل الطيب، والمأكل اللذيذ والحكمة، والتجربة العميقة

«يا داخل بين البصلة وقشرتها» المثل عامي مصري وهو يوازي ـ بالتأكيد ـ أمثلة أخرى منتشرة في البيئات العربية المختلفة. ومعنى المثل واضح ـ يضرب للذين يتطفلون على أمور لها نتائج غير مريحة، وبالتحديد الأكثر دقة: عن نوع من المحكمين بين المتنازعين الأقارب ذوي الأمزجة المتعادية، لكن دور البصل في الحياة ـ كلها ـ أكبر بمراحل من مجرد ارتباطه بحالات الصلح التي قد تتمزق فيها ملابس المحكمين. وقد ظل جدي في حالة خصام مع عائلة في قرية مجاورة لأنهم قدموا إليه طبقًا من البصل المقطع أرباعًا، وانتظروا أن يمد يده لكن الرجل رفض، لم يكن يعرف أن تقليدًا خاصًّا بهذه القرية يستوجب تقديم البصل للضيف قبل إقامة المائدة الوليمة، إثباتًا لحسن نواياهم ونواياه. إذ من المعتقد أن البصل يطرد السموم، أو يكشفها، أو يعطلها، فيحمي المصاب به إذا ما كان جوفه قد امتلأ

بالبصل ذي المادة المطهرة ذات الرائحة النفاذة، لقد رفض جدي ذلك وغضب أن تبدأ الوليمة بالبصل، وخرج لاعنًا.

أناس كثيرون لا يحبون البصل، ويتكارهون مع رائحته، على أساس أن «الصنان» الناجم منه يظل منتشرًا في الفم - والمجال الجوي للفم، والبصل أول ما يستقبل الوليد فور ولادته: يتم تهشيم البصلة ودعك أنف الوليد بجزيئاتها ليتسنى للرائحة النفاذة الطيارة أن تستثير الخياشيم فتبدأ العمل، ومشهد الوليد حين يعطس حينذاك - يجعلك تتشمم الحياة معه وكأنك تواجهها لأول مرة، سبحان الله، يتقلص وجهه ثم ينفرج ويعطس مرة أخرى فينطلق تيار من الحبور والانشراح في أعطافك. وهو ما أدى إلى إحساس غامر بالتفاؤل حين تدخل العروس بيت العريس للمرة الأولى وهي تخطو على قشر البصل (لاحظ أن بعض الجماعات الشعبية تعتبر ذلك رمزًا للعداوة)، كما أن الأمر لا يخلو من بصل أخضر أو ناشف وعتيق يتم إخفاؤه تحت زوج الحمام - أو الدواجن - في صينية العشاء الأول لفرح الزفاف، (ولعل التخلص منه فور الادعاء باكتشافه المفاجئ يأتي في مجال تنقية الجو الخاص من أي مشاحنات، أو عداوة محتملة بين العروسين)، كما أن التفاؤل - وطلب البركة - واضح في إلقاء عروش البصل وبقاياه على أجران الحبوب - قبل الكيل، وكان عمال معامل تفريخ الكتاكيت يلتهمون كميات غير معهودة من البصل خلال كمونهم أسابيع بجوار مواقع البيض المظلمة، لكن الأمر هذه المرة لا يرجع لطلب البركة واليُمن والتفاؤل حماية للكتاكيت - كما كنت أعتقد، بل لأن البصل صيدلية كاملة لعلاج الدم ودورته البابية -

في الكبد ـ أو الوريدية، أو القلبية، وقدرته فائقة ـ والثوم كذلك ـ على إذابة الدهون (الجلطات) وتنشيط الأعصاب بما فيها أعصاب الحواس كالنظر والسمع والذوق والشم والتواصل بالطبع. وشعوبنا الشرقية العربية مغرمة بالبصل المخلل، المصاحب الدائم للوجبات الدسمة، والبصل المشوي كان مطلوبًا عند الأجيال السابقة بإلحاح ـ ولم يعد ذلك قائمًا الآن. ويعدد داود الأنطاكي في تذكرته فوائد صحية وعلاجية للبصل تتجاوز المعهود: المعتق مع الفاكهة يشفي من التأتأة واللجلجة في النطق، والمخمر مع لبن الزير (وهو معروف في صعيد مصر) يساعد على نمو الأطراف القصيرة، ويعيد البهجة للأزواج الذين تجاوزوا عمر البهجة، كما أن البصل بالبيض (مختلف عن العجة التي يكون الفول أهم عناصرها) يفيد في إذابة النقطة التي تعتور العين وتدمرها. ويزيد الناس من أهمية البصل فيحيلون إليه علاج أمراض النخاع الشوكي (آلام سلسلة الظهر)، وتنميل الركب والمفاصل (الروماتيزم)، وسقوط شعر الأهداب (أي الرموش)، وكان البصل عندنا غذاء أساسيًّا للفلايت (الذين يفلتون من كمائن الأعداء ـ أو الذين يهربون من السجون)، وللذين يصيبهم القراع، كما أن قبائل البشارية والعبابدة ـ في الصحراء المصرية الشرقية ـ يحفظون التمائم والأحجبة فترة في ماء البصل كي تكتسب قدرة على البقاء في إشعاع دائم يحمي المتسلح به من مهاجمة الحيوانات والزواحف الصحراوية ـ والأعداء أيضًا.

وبعيدًا عما يكون معتقدًا شعبيًّا أو حقائق طبية، فإن البصل يكاد يكون القاسم المشترك في كل موائدنا ـ الدسمة أو الفقيرة، كما أنه يدخل في

معظم تجهيزات المأكولات وأنواع الطبيخ، ولا يزال تسبيك اللحوم فنًّا لذيذًا خاصًّا بشعوبنا، دون اهتمام بما يعنيه ذلك من تحفظ أهل النظم الصحية شديدة الحساسية للأكل. وكان المرحوم عبقري اللحن الشرقي زكريا أحمد يصدر أصواتًا من غازات بلعومه ـ خلال انتشائه بغناء ألحانه، وكان الشيخ سيد مكاوي يقول ضاحكًا: إن الحنجرة الطيبة تنمو في «صنان» رائحة البصل، إلا إن نزوع الملحنين المعاصرين بعيدًا عن الجلسات الشعبية الأثيرة فصل البصل بعيدًا عن الموسيقى، وهو ما أدى لظهور هذا الضجيج الحداثي من الغناء الذي خلا من العنصرين: البصل ـ والموسيقى، مع أن البصل معروف في العالم كله، وطعام العالم كله. وقد تكون هناك تحذيرات طبية بالتخفيف من تناول اللحوم، أو السكر، أو الزبد، أو القهوة، أو الملح، لكن نفس الطبيب قد ينصحك ـ أو يأمرك ـ بأن تسرف في تناول البصل.

أكثر الله من الأبصال في بيتك ومأكلك، وفي زهورك أيضًا.

كلمات لها معنى

أعمى القلب لا يمكنه مراقبة تسلل المياه إلى نبات عطشان.

*

الظالم يتضخم: عند الانحناء أمامه، أو الاعتدال عند ذكر أفعاله.

*

إذا خلا الجو من معارك أو أعداء يأكل نفسه، الشرير.

*

الذي يعيش على السوائل: تتساقط أسنانه، وعلى الحقن: يتساقط جسمه كله.

*

لكي تريح نفسك من فتنتها: انظر إلى جسدها الجميل على أنه عملية فنية فقط.

*

التلال التي تستمتع ـ أنت ـ بغياب الشمس خلفها: تحجبك عن الشمس أيضًا.

*

الأمم المتحدة معهد للتمثيل الهزلي يدرس الميلودراما فقط.

السمسم

القادم من جوف التاريخ، رقيقًا، هامسًا، مثيرًا للنشوة والسعادة، والعزف الموسيقي.. أيضًا

سمسم، سماسم، ألفاظ التدليل في اللهجة الرقيقة التي يداعب بها الناس العزيزات عليهم، وفي الغالب يكون الاسم الأصلي: سامية أو سُمية، يشيرون بذلك إلى التواصل مع هذا النبات الأليف المتماوج خضرة مسالمة مع النسيم. ولعله نبات الحبوب الوحيد الذي يحظى باندماجه العذب في اللهجات الشعبية أو اللغة الفصحى بعد الزهور والورد. وهو ـ بالتأكيد ـ نبات قديم يعتقد المتخصصون أن موطنه الأصلي أفريقيا الاستوائية، وتنتشر زراعته في المناطق الحارة بآسيا وأفريقيا ـ دون أي إشارة إلى وجود أمريكا ـ مما يقوي عمق وجوده التاريخي. ومع ذلك فلم أجد له أثرًا بين جميع أنواع المحاصيل الزراعية القديمة في الكتب التي اهتمت بذلك مثل الحياة اليومية في مصر القديمة للفرنسي «بيير مونتيه»، (ترجمة عزيز مرقس)، ومعجم الحضارة المصرية القديمة، ترجمة أمين سلامة ـ ومؤلفوه

جماعة من علماء الغرب. لكن الأهم من ذلك أن السمسم ـ بصفته نباتًا مسالمًا يدخل في هدوء إلى حياة الناس في بلادنا دون ضجيج مواسم القطن أو القمح أو أزمة الفول المنتصر دائمًا مرتبطًا بالمائدة المصرية، ذلك أن الإحساس الجمالي للسمسم يجعله يتناثر حبيبات على بؤرة قرص الطعمية الشهير، ثم إن السمسم يتسلل إلى خلطة ـ أي مخلوط ـ الكزبرة (بالزاي أو السين) والفلفل والملح والكمون ليثير الاشتهاء في «البيصارة» والفول المدمس. ويزعم أصحاب الرؤية النفاذة في أحوال البشر أن حبوب السمسم ـ حين تضمها تعويذة علاج أو حجاب حارس ـ توقف مسعى الشياطين إن حاولت إيذاء مستعملها ويقوم البشاريون ـ قبائل جنوب الصحراء الشرقية لمصر ـ بعمل سفوف من السمسم يمضغونها في أناة واستحلاب إن واجهوا جوعًا شديدًا قبل الأكل، فالسمسم يساعد على تنشيط الغدد اللعابية وإفرازات المعدة، والسفوف ـ كما هو معروف ـ وكما هو وارد في المعجم اللغوي ـ كل دواء يابس غير معجون، ويستخدم عادة للأطفال غير القادرين على المضغ لخلو الفم من الأسنان. وجاءت منه ألفاظ الإسفاف التي يسف بها الناس ـ أي يتصرفون تصرفات تافهة.

وكالعادة ينحرف السمسم الوديع ليدخل في الجدول الشعبي الخاص بطقوس السعادة والهناء، حيث يتم سحق حبوبه مع قطع الحشيش ـ وقد يضاف إليها السكر، ثم يستحلب الخليط في الفم السعيد ليشع النشوة تمهيدًا للرجولة المأمولة، ثم هناك الحلاوة الطحينية ـ والمعروف أنها مستخرجة مباشرة من طحن أو سحق

حبوب السمسم مع السكر ـ والتي يخلطها عتاة خبراء السعادة الشعبية ـ مع نبات الخشخاش (أصل الأفيون) لتسحق في هدوء هامس أو صامت بالغ النقاء ـ دون ضجيج. بعدها يضاف بعض من حبيبات حبة البركة، وبعدها يترك المعجون ساعتين صيفًا ـ أو عدة ساعات شتاء، ليريق ـ خلال استحلابه ـ القوة القصوى في الأجساد المعتلة. وتمثل الحلاوة الطحينية نسبة كبيرة من أغذيتها اليومية المعهودة مع الفول المدمس والطعمية، مع أن الريف المصري ظل دهورًا يعتقد أن الحلاوة الطحينية بالذات غذاء الموسرين الأثرياء أو الطبقات العليا، حتى فوجئوا بها غذاء مقررًا في المدارس الابتدائية والثانوية (لم تكن المرحلة الإعدادية قد اكتشفت بعد) أيام نظرية طه حسين الخاصة بحق الناس في التعليم المجاني مثل حقهم في الحصول على الماء والهواء، وعليك أن تضيف الحلاوة الطحينية باطمئنان، غير أن الطحينة ـ النتاج السائل ذا القوام المتماسك ـ والتي تخلو من السكر، ظلت حتى كتابة هذه السطور بمنأى عن التواصل مع الريف المصري، انتشر فقط ـ بعد العاصمة ـ في المدن، وعندما نكون في قريتنا ونطلبها ينظرون في وجوهنا بارتياب، تمامًا مثل السمك المشوي والكابوريا والجمبري، مرفوض كل ذلك في الريف، وقد يثير التعليقات المريرة التي تبدو ضاحكة.

ويُعرف زيت السمسم ـ والموازي في استعماله واستهلاكه لزيت بذرة القطن ـ بزيت السيرج، ومنه جاءت السرجة ـ أي المكان الذي به طاحونة سحق السمسم لاستخراج الزيت، وتستعمل درجات نقائه المتعددة في الطهي (وصحتها الطهو)، وفواتح الشهية مع

الخل والبقدونس والبصل وشرائح اللفت، وفي الأغراض الطبية ـ المقويات ومساعدات التئام الجهاز الهضمي، وفي صناعة الأغذية. وكُسب السمسم يُعد غذاء فاخرًا للبهائم تعلو قيمته على كُسب بذرة القطن، وتُعد بلدة بني قرة (محافظة أسيوط) مركزًا لتصنيع هذه الأنواع من الكُسب والزيوت، وكان توزيعها على الفلاحين وأصحاب مزارع البهائم يتم عن طريق الحكومة إلى وقت قريب، واشتهرت ـ لذلك ـ عصابات أو جماعات تهريب زيت السمسم والكسب، وكان محظوظًا من يتاح له فرصة الهيمنة على توزيع هذه السلع، علمًا بأن الفلاحين ـ لا يزالون حتى الآن ـ غير مقبلين على زراعة السمسم ـ وهو ما يحدث للقطن المصري الآن ـ الذي يواجه كارثة تتحدث عنها الجرائد، ذلك أن الفلاح المصري لم يعد يرتاح لأنواع من المزروعات المجهدة، التي تحتاج إلى رعاية ورقابة وحنان ضد العطش، أو الغرق أو الجفاف، أو ضرورة التنظيم الدقيق للري والتسميد، مما أدخل السمسم ـ في مصر ـ إلى الأركان الضيقة القليلة، لبعض المزارعين، الذين يدركون معنى السمسم، ومدى رقته، والتفاؤل الجميل بزراعته. سمسم سماسم، وكل الحنان ينساب من ظلاله الرقيقة وحبوبه الأنيقة المدللة، التي تدغدغ الحواس، وتنفث في القلوب دفئًا يدعو للتأمل والحب، وتكاد تتحول إلى نغمات بالغة الشجن من أوتار السمسمية الشهيرة، التي تراقص على ألحانها أبطال المقاومة في منطقة قناة السويس أثناء الحصار الدموي خلال الحروب المتوالية، والتي تصنع طعمًا خاصًا لتاريخنا المعاصر.

كلمات لها معنى

ما الذي يدعوك للوقوف طويلًا ـ مع أن الأجوبة تأتي طواعية للسائل الجالس في استرخاء؟

*

الأعاصير تزلزل الجبال والبيوت وتصنع من المياه طوفانًا، كما تنجح في تحريك ذيول الكلاب في دهشة.. أحيانًا.

*

المال يساعد على تقوية العضلات وضعف البصيرة.

*

كلما ازدادت الأنثى أمومة: استيقظت مبكرة.

*

فصول السنة خمسة: الشتاء والربيع والصيف والخريف، والخريف مرة أخرى.

*

ظلت ممعنة في وجهي دون أن تبتسم، سألتها ـ عطوفًا ـ عن حالها، فسألتني عن حال بنت ابني.

*

القضية ـ ببساطة ـ أن كثيرين من الرؤساء مصابون ببؤس الخيال، دعنا نواسيهم.

*

الحقيقة كالشمس، تحتاج إلى الاختناق وراء الغيوم لتبدو أكثر جمالًا.

التمر.. من آل تيمور.. حتى تيمورلنك

مفاجأة حالت دون تحريك قلمي وعقلي بعض الوقت، التمر هو المرحلة التالية بعد نضج البلح ليصبح الرطب ثم يتتمر، أي يجفف، وهو ما يستطيب الصائمون تناوله ـ في بطء ـ عندما يستهلون الإفطار فور أذان المغرب الرمضاني الكريم، إلا إن التمر في تاريخي الشخصي المفعم بأنواع البلح: هو المرحلة السابقة قبل أن يصبح البلح بلحًا، وكنت أعاقب من أمي ـ أكثر من أبي ـ حينما يستبين لها أنني انتزعت التمر من سباط النخيل، وقد استشرف اللون دون النضج، سبع نخلات ذات أنواع متعددة من البلح في ساحة بيتنا الريفي ذي الحوائط المنحنية ـ في حنان ـ على بقايا الجريد والسعف الناشف. وبين تمر المعاجم اللغوية وتمر الأحقاب الأولى من عمري، ظل تمر البلح يستقبلني حتى بعد أن هاجرت من قريتي إلى القاهرة (سوق البلح في السبتية: الحي الشهير) ثم إلى إدفو وإسنا وأرمنت وكوم أمبو والواحات وبلاد النوبة: حيث يصفو التمر ويشف، ويمكنك إذا أمعنت في واحدة من هذه التمور أن ترى النواة كامنة في الجسد

اللدن الذي تجاوز مرحلة الرطب، والذي يثير في النفس اشتهاء مهما كنت شبعان.

ويذكر داود الأنطاكي في «تذكرته» الشهيرة لأولي الألباب أن التمر هو المرتبة السابعة في نضج ثمر النخيل، وهو كثير الأنواع يتجاوز الخمسين صنفًا، وأجوده ما ينشأ في البلاد الحارة اليابسة (أي التي تتضاءل فيها درجات الرطوبة بما تعنيه من تشبع الهواء ببخار الماء)، كنخيل المدينة الشريفة (أي المدينة المنورة) والعراق ومصر، ويعالج التمر أمراض الصدر والسعال المزمن ويستأصل مكونات البلغم والفالج (الشلل) وآلام المفاصل ـ خصوصًا إذا أكل على الريق، ولا أستطيع أن أترك نفسي مستدرجًا في غابات تمور الأنطاكي بما فيها من أنواع علاجات أمراض تداهمنا في العصر الحديث، حتى أتمكن من دخول عالم آل تيمور، وأولهم أحمد تيمور (١٨٧١-١٩٣٠م) العالم اللغوي المصري الذي عاش ورحل في مدينة القاهرة، وهو من أصل تركي، كان ثريًّا شغوفًا باقتناء الكتب والمخطوطات النادرة، وكان يجمعها من أنحاء العالم العربي. وقد بلغت مكتبته ثمانية عشر ألف كتاب ومجلد تعد قسمًا مهمًّا من دار الكتب الشهيرة في مصر، ومن مؤلفاته «التصوير عند العرب» و«ضبط الأعلام» و«أبو العلاء المعري»، ثم قام أبناؤه ومحبوه بإصدار كتابه: «معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية»، بل إن تأثير هذا العالم العربي لم يكن في اقتناء وتأليف الكتب فقط، فقد أثمر في بيته وأسرته شقيقته عائشة التيمورية ذات النشاط الثقافي الاجتماعي المبكر، ثم ابنيه محمد تيمور، وقد رحل عام ١٩٢١ وقد استشرف

ثلاثين عامًا من عمره القصير ـ يرحمه الله ـ ويعتبر من عناصر مؤسسي الأدب القصصي والمسرحي في مصر، ثم محمود تيمور الذي يعد من أشهر كتاب الرواية والقصة القصيرة، ولعله الأشهر أيضًا فيمن تضمنته كتب مقررات دراسات الأدب والنصوص العصرية في المدارس العربية في القرن العشرين. وقد شاءت ظروفي أن أشهده في هدوئه ورصانته خلال الأعوام الأخيرة في مجمع اللغة العربية، وقد رحل عام ١٩٧٣م ـ يرحمه الله ـ فبكى على فراقه كل أعضاء وخبراء وموظفي وعمال المجمع اللغوي، إذ كان مفخرة لنا جميعًا، ثم كان تتويجًا لآل تيمور الذين ندر من نجد هذا الإنجاز الثقافي والفكري والسلوكي في أسرة واحدة مثل هذه الأسرة التيمورية.

وكأني بهذه الجملة أعتذر أن أخرج من هذا الإحساس والحس العربي الراقي، إلى تيمور آخر هو تيمورلنك، ذلك الفاتح المغولي الذي ولد قرب سمرقند في وسط آسيا، ويعرف أيضًا بتيمور الأعرج، وكان يدعي أنه من سلالة جنكيزخان، غزا فارس (إيران الآن) وجنوبي روسيا والهند، ثم اكتسح بلاد الشام، ودمر مدينة حلب (التي استباحها لمدة ثلاثة أيام من النهب والتخريب)، ثم استولى على دمشق (فأخذ طائفة من أفضل علمائها وأمهر صناعها وفنانيها ونقلهم إلى سمرقند)، ثم عاد فزحف على بغداد للمرة الثانية، بعدها زحف إلى آسيا الصغرى وهزم العثمانيين في موقعة أنقرة (١٤٠٢م) وأسر سلطانهم بايزيد، ثم توفي ـ تيمورلنك ـ آخر الأمر أثناء غزوه الصين، اتركوني أخرج من هذا العالم المشتعل المرهق حتى أعود إلى أنواع من التمور المريحة.

ولقد عثرت ـ بمتعة نادرة ـ على أول متخصصة عربية في فن الولادة، متجاوزة ما تقوم به القابلات (أو الدايات في العامية المصرية) من مرحلة الخبرة إلى الرقي العلمي، إنها تمرهان جليلة، (وقد رحلت عام ١٨٩٩م) خريجة مدرسة القابلات التابعة لقصر العيني (أشهر كلية طب وأقدم مستشفى في مصر)، وقد وضعت خبرتها وتجربتها المؤسسة على العلم في كتاب عنوانه (محكم الدلالة في أعمال القبالة).

إلا إن الشجرة المعمرة وموطنها أفريقيا الاستوائية، والتي اشتهرت الهند ـ نعم: جنوب آسيا ـ بزراعتها ورعايتها وتصديرها، إنها التمر هندي، الشهيرة في كل البلاد العربية مشروبًا له لذة خاصة، تجده في المقاهي وقاعات الاستقبال ومع الباعة المتجولين، ولا يكاد بيت يخلو من حب بعض أهله للتمر هندي، الغني بالأملاح وفيتامين ب، ويميل إلى المرارة رغم ارتفاع نسبة السكر به، ويتصف بقدرته الفائقة على الإنعاش، والإحساس بالمتعة، وهو ما يتركه في وجدانك التمير: تلك الطيور الصغيرة الجميلة، والتي ترفرف حول الأزهار بطريقة منسابة بالغة العذوبة، ولسانها أنبوبي بين أخضر براق وأزرق وأسود وأرجواني وبني وبرتقالي أصفر، وتنتشر في وادي النيل، في المناطق ذات النباتات الوديعة التي لا أشواك فيها، وهو ما يساعدني على الإحساس باللذة الطفولية القديمة، بعد أن استدرجتني مصادر التمور إلى مناطق شائكة، لم يكن سهلًا أن أتفاداها، مع أني ما زلت ـ حتى آخر هذه السطور ـ أسعى كي أتسلق واحدة من نخلات منزلنا القديم، وصولًا إلى لذة قديمة، قد أطلب من أحد الأطباء أن يكتب

التمر ـ والوصول إلى التمر ـ في تذكرة علاجي ـ أقصد علاجنا في عصرنا الحديث، والذي اضطربت فيه كل أنواع التمور.

كلمات لها معنى

هل يمكن لك أن تعود فتتمتع بمشهد ثمار أشجار التوت أو التين أو الموز إذا ما طارت ورقة مالية في الهواء فوق هذه الأشجار.. وغابت في الأفق؟

*

غريبة: كليات جامعية للحقوق، ولا توجد كليات للواجبات، حتى التعليمات المدرسية التي كانت فوق غلاف الكراسات، وتبدأ بالأمر أن ننام مبكرًا ونستيقظ مبكرًا، لم تعد تجد لها موقعًا على أي كراسات بالمرة.

*

لعل القطط تظل الحيوان الوحيد الذي يستثير فينا الإحساس بالأسرة، وإلا.. كيف تفسر مواءك التلقائي حين تداعب طفلك ـ لا سيما إن كان حفيدك ـ في فراشه؟

الكوسة

ظهرت الكوسة أول ما ظهرت ـ نباتًا طيبًا مسترخيًا هادئًا، نما بجوار قبر هابيل بعد اغتياله بيد قابيل ـ وبالتحديد يوم الأربعين، هذا في رأي الفلاسفة المثاليين، أما الذين يميلون إلى خلط الفلسفة بعلم النفس ـ الجشطلت ـ فيزعمون أن الذي أودى بآدم وحواء لم يكن تفاحة وثعبانًا، بل كان (ثمرة رقيقة عليها خطوط صفراء ويميل طعمها إلى الحلاوة). وهو وصف دقيق للكوسة وليس للتفاحة، ويؤيد ذلك ما يزعمه المؤرخون من أن التفاح فاكهة حديثة لا يزيد عمرها على خمسة قرون، ولعل طبق فاكهة الملك شارلمان المرسوم على جدران قصره وعلى دانتيلا فراشه وسريره خير شاهد، فقد حوى ثمارًا من فاكهة شهيرة ومعروفة: جوافة وبلح أمهات (في سباطته) وبطيخة بالغة الحمار (في نصفين متساويين) وكوز عسل غير مفتوح وبرتقالة (ذات فصوص متناثرة) وثلاث ثمرات من الجميز ورمانة (تظهر حبوبها الأرجوانية في دقة رائعة)، ولم يكن بطبق شارلمان أي أثر للتفاح الذي ظهر بعد ذلك بفترة غير قصيرة، كذلك فإن الأثاث الجنائزي

لتوت عنخ أمون كان به كوسة ناشفة، وكان رمسيس الرابع مدمنًا للكوسة حيث (كان يهدي رهبانه ثمارًا من القرع الجميل الصغير تعبيرًا عن رضاه السامي ـ هذا ما جاء على الحائط الثالث وجزء من سقف مقبرته)، أما رمسيس الثاني فقد كان مغرمًا بالملوخية (وهو غير الحاكم بأمر الله) كما كان مولعًا بالترمس وفتة النفوس (وهي المرقة المصنوعة من مؤخرات الحيوانات)، ولعل انتصارات رمسيس الثاني كانت ترجع ـ في سبب من أسبابها ـ إلى انخفاض عشق الكوسة في عصره، لكن العصور الحقيقية للكوسة جاءت في العصر الفاطمي ثم العثماني والمماليك حيث كانت تنمو في كل موقع حتى إنها نمت على الشواطئ المالحة لبحيرات قارون والبردويل وإدكو، وكانت الكوسة سببًا في تحطيم أسطول «نابليون» في أبي قير (كيف؟ لا أعرف)، وأوروبا التي تفخر بأنها لا تحب الكوسة الآن ـ كانت وراء انتشارها في العالم الثالث ـ وفي البلاد العربية بالتحديد، ومن نافلة القول أن نشير إلى أسباب انهيار الإمبراطورية الرومانية ودور الكوسة البارز فيه، وأكثر السلالات إدراكًا لدور الكوسة في السلوك هن ربات البيوت المصريات المجربات، حيث يذقن الكوسة قبل طبخها بل ويذقن كل ثمرة قبل تجهيزها خشية أن تريق واحدة مرارتها الخاصة في الطبيخ وتجعله أكثر مرارة من الحنظل، بل إنهن لا يتورعن عن اختبار الكوسة باللسان في عز رمضان الكريم دون أن يشعرن بأن ذلك قد يجرح الصوم، وطعمها الجميل الذي قد يخفي تلك المرارة ـ قادر على إحداث انتفاخ البطن لأسباب غير معروفة يمكن إدراك خطورتها إذا ما قدمت الكوسة في الحفلات الراقصة أو

في غداء عمل كبار السياسيين أو في عشاء جماعة الذكارة قبل قيامهم بأداء الذكر، وخصوصًا إذا ما كانت ثمارها كبيرة بالغة ـ أي عندما تصبح قرعًا ـ ومعظم التحقيقات السرية التي جرت حول الهزائم العسكرية كشفت عن ولائم سابقة من الكوسة ولحم الضأن والقرع أيضًا، لذلك فإن المصريين لا يقدمونها إلى العرسان ليلة الزفاف إطلاقًا. وبعد أن تراخت قبضة التقاليد وانتشر الجهل الملون قدمت الكوسة للعرسان بحسن نية وكانت النتيجة وخيمة، حيث ظهرت طعون كثيرة في كفاءة العريس، وفي كفاءة العروس أيضًا، بل وفي كفاءة لجان انتخابات كثير من أعضاء المجالس النيابية بالذات.

لقد استطاعت الكوسة وعمرها من عمر الإنسان أن تصبح عنصرًا أساسيًّا في سلوكه ومزاجه وثقافته وعلاقاته وتصريحاته وقدراته ولجانه ومؤسساته، ومن حق الكوسة علينا أن نقيم لها تمثالًا في مدخل قصر أو متحف أو دار الأوبرا، فإن لم يكن فأمام بنك الاعتماد والتجارة ـ أو خلف البنك ـ أيهما أجدى.

مختارات الكرمة

١. مليم الأكبر ـ عادل كامل
٢. دنقلا ـ إدريس علي
٣. مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس ـ أحمد حجي
٤. الشبكة ـ شريف حتاتة
٥. الناس في كفر عسكر: أولاد عوف ـ أحمد الشيخ
٦. النزول إلى البحر ـ جميل عطية إبراهيم
٧. ملك من شعاع ـ عادل كامل
٨. إجازة تفرغ ـ بدر الديب
٩. رابعة ثالث ـ علي الشوباشي
١٠. رباعية أيام الطفولة ـ إبراهيم عبد الحليم
١١. الرحلة (الجزء الأول) ـ فكري الخولي
١٢. الرحلة (الجزءان الثاني والثالث) ـ فكري الخولي
١٣. حديث شخصي: أربع تنويعات ـ بدر الديب
١٤. الباب المفتوح ـ لطيفة الزيات
١٥. أوراق شخصية ـ لطيفة الزيات
١٦. الشمندورة ـ محمد خليل قاسم
١٧. بيت سري ـ عثمان صبري

١٨. هوامش الفتح العربي لمصر ـ سناء المصري
١٩. صدمة طائر غريب ـ كمال القلش
٢٠. صاحب البيت ـ لطيفة الزيات
٢١. الوسية (ثلاثية «الوسية» ١) ـ خليل حسن خليل
٢٢. الوارثون (ثلاثية «الوسية» ٢) ـ خليل حسن خليل
٢٣. السلطنة (ثلاثية «الوسية» ٣) ـ خليل حسن خليل
٢٤. قاهر الزمن ـ نهاد شريف
٢٥. نبش الغراب في واحة العربي. الجزء الأول: الإنسان ـ محمد مستجاب
٢٦. نبش الغراب في واحة العربي. الجزء الثاني: الكائنات ـ محمد مستجاب
٢٧. نبش الغراب في واحة العربي. الجزء الثالث: الأشياء ـ محمد مستجاب
٢٨. ليلة القبض على فاطمة ـ سكينة فؤاد

«محمد مستجاب من الروائيين العظماء»

أمير تاج السر

«مستجاب من أهم الكُتَّاب، وله قراءات رائعة في التراث العربي، لأنه كان يقرأها بعين الفنان والكاتب القصصي، وهذه القراءات أثرت ثقافة القارئ العربي عبر ١٥ سنة أخيرة في مجلة العربي»

د. حامد أبو أحمد

«محمد مستجاب: أدب السخرية الضاحك الجاد والعميق والمثقل بالزاد المعرفي»

د. سليمان العسكري، مجلة العربي

«أهم ما يميز أعمال مستجاب هو المفارقة، إنها تكشف عن أصداء مباشرة وغير مباشرة لعالم مستجاب، وتُحدِثُ التضاد بين المظهر والجوهر في قصصه، والغفلة الفعلية والغفلة المصطنعة، والمزاج اللعوب الذي يظهر في كسره للمتوقع، وفي حطه من القيم الرفيعة، وإعلائه من قيمة الوضيع، ويظهر أيضًا في التوليد للمفردات والتراكيب التي لم تكن موجودة في اللغة العربية، ثم عنصر الكوميديا السوداء التي تُعدُّ أحد مكونات عالم مستجاب. وأخيرًا العنصر الجمالي الذي يتمثل في الألفاظ المنتقاة المتجملة من خلال المترادفات والتراكمات»

د. شاكر عبد الحميد

هذا هو الجزء الثاني من المجموعة الكاملة لمقالات محمد مستجاب البديعة في واحة العربي، ويتناول فيه بذكائه الشديد ووجهة نظره المتفردة وقلمه السلس، عالم الكائنات والحيوانات والنباتات التي حولنا.

كما يحتوي الكتاب على حِكمه الساخرة التي كان ينشرها مع كل مقالة.



محمد مستجاب (١٩٣٨-٢٠٠٥) أديب مصري. ولد في جنوب مصر. عمل في العديد من المهن، فاكتسب خبرة حياتية عميقة وواسعة، انعكست على كتاباته وأسلوبه.

نشر أول قصة قصيرة عام ١٩٦٩، فجذب إليه الأنظار. صدرت له ثلاث روايات وست مجموعات قصصية وأربعة عشر كتابًا، جمعت أغلب مقالاته الأدبية التي نُشرت في المجلات والجرائد، ومن أشهرها «نبش الغراب في واحة العربي» في مجلة العربي الكويتية.

تُرجمت قصصه إلى عدة لغات، وحُوِّلت إحدى قصصه إلى فيلم سينمائي عنوانه «الفاس في الراس».

حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٨٤ عن روايته الأولى «من التاريخ السري لنعمان عبد الحافظ»، ووسام الفنون والآداب من الطبقة الأولى، وجائزة الدولة التقديرية.

ISBN 978-977-6743-49-6

الكرمة